سيمون حايك
دكتور في الفلسفة

بلاي الرومي

أو

العرب في إسبانيا وجنوبي فرنسة

قصة وتاريخ

سيمون عايك

بَلاي الرومي

او

العرب في اسبانيا وجنوبي فرنسة

قصة وتاريخ

١٩٨٠

تمهيد

في القرن الخامس المسيحي ، دخل القوط شبه الجزيرة الابرية الاندلس ، واستولوا عليها بعد ان اخضعوا القبائل البربرية التي كانت قد سبقتهم اليها . فأسسوا دولة عزيزة الجانب تمتد الى كافة انحاء شبه الجزيرة الابرية ، وتصل الى اربونه والى الشواطئ الافريقية الشمالية المسماة طنجانية . وانبثقت هذه الدولة الجديدة من القوط والابريين .

وظل الحكم القوطي سائداً طيلة قرنين ونصف ، وتوالى عليها خمسة وعشرون ملكاً . ويتم انتخاب الملك عن طريق الاساقفة والاشراف . ثم اصبحت الملكية وراثية ، وكان القوط في اول عهدهم يعتنقون المذهب الاريوسي . ثم ما لبثوا ان اعتنقوا الديانة الكاثوليكية . وكان الاساقفة يسلكون مسلكاً مثالياً ويساعدون على احترام القوانين والشرائع . وكانت النتيجة ان ازدهرت الزراعة والتجارة ، وتهذبت اخلاق الناس . وما لبثت ان دبّت حياة الخمول ، واطلّ الانحطاط بوجهه البغيض .

تلك كانت حالة اسبانيا في مطلع القرن الثامن ، وانتخب غيطشة ملكاً سنة ٧٠١ . وسلك في بادئ الامر المسلك الذي يقضي على الملك ان يسلكه مع رعاياه : الحكم بالعدل . غير انه ما طال ان كشف عن سريرته وعن سوء نيته ، فخامره الشك ، وقتل على الشك ، والقتيل كان فافيلا دوق قنطبرية ، وكاد يقضي على الابن ، بيلاي ، لو لم يتدارك الخطر وينجو بنفسه .

وحسب في ظنه ان الجوّ قد صفا له بعد مقتل فافيلا ، واتخذ له الحظايا ، وحثّ رعاياه على ان يقتفوا اثره ، وسعى الى حمل الكنيسة كي تحبّذ تصرفاته ، فسنّ قانوناً يسمح للاكليروس بالزواج واتخاذ الخليلات .

وهدده البابا قسطنطين آنذاك بالخلع والحرم اذا لم يرجع عن هذه الشرائع القباحية ، ولم يكترث له غيطشة ، وهدده بمهاجمة روما والاستيلاء عليها كما فعل قبله الريكو

وكان يردد قوله : تزين نساءنا بجواهر روما ، ونملأ خزائننا من اموال الكرسي الرسولي

عارضه بعض رجال الاكليروس ، فهذا التجديد في الكنيسة لا يرضيهم ، فهاجموه على المنابر محرّضين المؤمنين عليه . وكانت ردة الفعل شديدة ، فأقصاهم عن مراكزهم بتهمة الشغب والانشقاق . وظلّت كنيسة طليطلة بعيدة عن هذا التجديد بالرغم من ان الاسقف « سندردو » اعلن عن رغبته في الرضوخ لاوامر الملك . وقال غيطشة : الآن سيكون للكنيسة زوج آخر . وقرن القول بالفعل ، وعيّن اخاه المطران اوباس ، رئيس اساقفة اشبيلية ، رئيس اساقفة طليطلة الى جانب المطران سندردو .

وعبثاً حاولت روما ان تثنيه عن عزمه ، فشقّ عصا الطاعة وهدد بالموت كل من يخالف اوامره ويطيع شريعة البابا ، وكان يردد : لا نريد ان يتدخل احد بشؤوننا .

وسمح غيطشة لليهود بالعودة ، ومنحهم امتيازات ، وأعيدت اليهم كنائسهم المسلوبة منهم في العهد السابق ، واعربوا عن استعدادهم في دفع ما يترتب عليهم لقاء الحماية .

وعاشت المملكة بأمان وسلام ، ولكن المؤامرة كانت تتهيأ في الخفاء ، وحاول خنقها في مهدها ، فوزع الاوامر سراً بهدم الحصون والقلاع التي اتخذهـا المتآمرون مكاناً للاجتماعات السرية . ونزع السلاح حتى تصح النبؤة القائلة : المحراث بدل السيف ، والمنجل مكان الرمح .

وعلى ما يظهر ان الاصلاح الذي نهجه غيطشة جاء سابقاً لأوانه ، فالجيل الثامن لم يتقبّل هذا الاصلاح والتجديد بالشوق واللهفة اللذين تخيلهما غيطشة ، وقد حسب ان روح الدعة والمسالمة والسكينة والسلام تقضي نهائياً على روح القتال والحروب والعنف ، بعـد ان جرد الاعيان من وسائل المقاومة بتهديم الحصون والمعاقل .

وكان العرب قد طوقوا سبتة معقل القوط في بر العدوة ، فوجّه الملك غيطشة هرة جنوده لمساعدة القند يوليان المدافع عن سبتة .

ووجد الاشراف الفرصة مؤاتية ، فالتفوا حول لذريق بن تيودفردو الذي كان غيطشة قد سمل عينيه ، فجمع لذريق هذا جيشاً ضخماً من الناقمين على غيطشة ، ونادى نفسه ملكاً ، وظفر بالملك غيطشة ، فاقتيد الى حضرته ، فسمل عينيه انتقاماً لأبيه ، والقاه في الزنزانة نفسها التي قضى فيها تيدفردو نحبه . وبعد ان استراح من الوالد ، وجّه لذريـــق انظاره نحو ولدى ضحيته وهما اباس وسيسبوتو ، فنفاهما من مملكته خشية قيامهما بثورة انتقاماً لابيهما . واستقروا في افريقيا حيث استقبلهما وكيلا حاكم طنجة اعترافاً بالجميل الذي لاقاه من والدهما غيطشة .

اما عمهما اوباس ، اسقف اشبيلية ، الذي كان قد عيّنه اخوه غيطشة ، رئيس اساقفة طليطلة ، لم يتعرض لسخط الملك الجديد ، لانه كان داهية ، يلبس لكل زمان بردة ، فنال رضى لذريق الذي ثبّته على مطرانية اشبيلية ، وسلّم قيادة الكنيسة الاسبانية للحبر اوربانو ، وألغى الملك القانون الذي يسمح للاكليروس بالزواج .

ووصل الى اسماع لذريق ان انصار الملك السابق غيطشة يتآمرون ، فأمر بضرب اعناقهم ، وهدم قلاعهم وحصونهم ، واستطاع ان يشذب قادتهم ، ويخمد نار ثورتهم وفتنتهم ، ولكن ظلّ عرش القوط يضطرب تحت اقدام لذريق الملك الذي لم يبصر حوله الا اناساً اعتادوا على حياة الدعة والسكينة ، مستسلمين الى اللهو والترف من عهد غيطشة ، ولذريق يريد مقاتلين اشداء يعتمد عليهم في ساعات الضيق . اين من هؤلاء واولئك المحاربين الذين اعتادوا على شظف العيش الذي تفرضه عليهم الحياة العسكرية ، فتحدوا الطبيعة نفسها ، وصارعوا الامواج ، وخاضوا الانهر ، وتسلّقوا الجبال ، واحتلوا مملكة مترامية الاطراف . وقد صدق ابن خلدون لما قال : « ان من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم » .

« وسبب ذلك ان القبيل اذا غلبت بعصبيتها استولتْ على النعمة بمقداره ، وشاركت اهل النعم والخصب في نعمتهم وخصبهم . فان كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمح احد في انتزاع امرها ، ولا مشاركتها فيه اذعن ذلك القبيل لولايتها والقنوع بما يسوغون من نعمتها ولم تسم آمالهم الى شيء من منازع

الملك ولا اسبابه ، انما همتهم النعيم والكسب وخصب العيش والسكون في ظل الدولة الى الدعة والراحة والاخذ بمذاهب الملك في المباني والملابس والتأنق فيه ، فتذهب خشونة البداوة ، وتضعف العصبية والبسالة ، ويتنعّمون فيما اتاهم الله من البسطة ، وتنشأ بنوهم واعقابهم في مثل ذلك من الترفع عن خدمة انفسهم ويستنكفون عن سائر الامور الضرورية في العصبية حتى يصير ذلك خلقاً لهم وسجية » .

وارتكب لذريق الاخطاء ذاتها التي ارتكبها غيطشة .

ليس من فتح نسجتْ حوله الاساطير مثل فتح الاندلس على يد طارق بن زياد . لقد امتزجت الاسطورة بالتاريخ امتزاجاً يصعب التمييز بينهما . فلا نعلم اين تبتدئ الاسطورة واين ينتهي التاريخ او العكس بالعكس .

ولا عجب في ذلك . فكلمة « اسطورة » تعني كلمة « تاريخ » والكلمة الاوروبية « هيستورية » التي تعني التاريخ ليست شيئاً آخر سوى الكلمة العربية « اسطورة » . وهذه الكلمة العربية « اسطورة » مأخوذة عن اليونانية . ولا حرج علينا في رواية بعض هذه الاساطير .

لمّا ابتدأت معركة وادي بكة ، وأقبل طارق في اصحابه ، عليهم الزرد ، من فوق رؤوسهم العمائم البيض ، وبأيديهم القسي العربية ، وقد تقلدوا السيوف ، واعتقلوا الرماح ، فلما نظر اليهم لذريق ، حلف وقال ان هذه الصور هي التي رأيناها ببيت الحكومة في بلدنا ، فداخله منهم الرعب .

اشار الى بيت حكمة اليونان ، وهم الطائفة المشهورة بالحكم . كانوا يسكنون بلاد الشرق قبل عهد الاسكندر ، فلما ظهرت الفرس واستولوا على البلاد ، وزاحمت اليونان على ما كان بأيديهم من الممالك ، انتقل اليونان الى جزيرة الاندلس لكونها طرفاً في آخر العمارة ، ولم يكن لها ذكر اذ ذاك ، ولا ملكها احد من الملوك المعتبرة ، ولم تكن عامرة ، وكان اول من عمّر فيها واختطها ، اندلس بن ياقت بن نوح عليه السلام ، فسميت باسمه . ولما عمرت الارض بعد الطوفان كانت الصورة المعمورة عندهم على شكل طائر رأسه المشرق ، والجنوب والشمال رجلاه ، وما بينهما بطنه ، والمغرب ذنبه . وكانوا يزدرون المغرب بنسبته الى اخس اجزاء الطير . وكانت اليونان لا ترى فناء الأمم الا بالحروب لما فيها من الاضرار والاشتغال عن العلوم التي كان الاشتغال بها عندهم من اهم الامور ، فلذلك انحازوا من بين يدي الفرس الى الاندلس ، فلما وصلوا

اليها ، اقبلوا على عمارتها ، فشقوا الانهار ، وبنوا المعاقل وغرسوا الجنان والكروم ، وشيّدوا الامصار ، وملأوها حرثاً ونسلاً وبنياناً ، فعظمتْ وطابت حتى قال قائلهم لما رأى بهجتها : ان الطائر الذي صورت هذه العمارة على شكله وكان المغرب ذنبه كان طاووساً معظم جماله في ذنبه .

فاغتبط اليونان بالاندلس اتم اغتباط ، واتخذوا دار الحكمة والملك بهـا طليطلة لانها اوسط البلاد ، وكان اهم الامور عندهم تحصينها عمن يتصل به خيرها من الامم ، فنظروا فاذا هو انه لا يحسدهم على رغد العيش الا ارباب الشظف والشقاء والتعب ، وهم يومئذ طائفتان ، العرب والبربر ، فخافوهم على جزيرتهم العامرة ، فعزموا على ان يأخذوا لهذين الجنسين من الناس طلسماً ، فرصدوا لذلك ارصاداً . ولما كان البربر بالقرب منهم وليس سوى عبر البحر ، ويرد عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع ازدادوا منهم نفوراً .

فلمّا علم البربر عداوة اهل الاندلس وبغضهم لهم ، ابغضوهم ، وحسدوهم ، فلم تجد اندلسياً الا مبغضاً بربراً وبالعكس . الا ان البربر احوج الى اهل الاندلس ، لوجود بعض الاشياء عندهم ، وفقدها في بلاد البربر .

وكان بنواحي غرب الاندلس ملك يوناني بجزيرة يقال لها قادى ، وكانت له ابنة غاية الجمال ، فتسامع بها ملوك الاندلس ، وكانت الأندلس كثيرة الملوك ، لكل بلدة او بلدتين ملك ، فخطبوها ، وخشي ابوها ان يزوّجها من واحد اسخط الباقين ، فتحيّر ، وأحضر ابنته وكانت الحكمة مركبة في اطباع القوم ، ذكورهم وأناثهم ، ولذا قيل ان الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة اعضاء من اهل الارض ، ادمغة اليونان وايدي اهل الصين والسنة العرب . فقال لها : يا بنية ، اني اصبحت على حيرة من امرك ممن يخطبك من الملوك ، وما ارضيت احداً الا اسخطت الباقين . فقالت له : اجعل الامر عليّ تخلص. فقال : وما تقترحين ؟ فقالت : ان يكون ملكاً حكيماً . فقال : نعم ما اخترته لنفسك ، فكتب في اجوبة الملوك الخطاب : انها اختارت من الازواج الملك الحكيم . فلما وقفوا على الجواب ، سكت من لم يكن حكيماً . وكان في الملوك الخاطبين حكيمان ، فكتب كل واحد منهما انا الملك الحكيم . فلما وقف على كتابيهما قال لها : يا بنية ، بقي الامر على اشكال ، وهذان ملكان حكيمان ، ايهما ارضيت اسخطت الآخر . فقالت : سأقترح على كل واحد منهما امراً يأتي به ، فأيهما سبق الى الفراغ مما التمست ، كنت زوجته . قال : وما الذي

تقترحين عليهما ؟ أناساً ساكنين بهذه الجزيرة يحتاجون الى رحى تدور بها ، واني مقترحة على احدهما ادارتها بالماء العذب الجاري اليها من ذلك البر ، ومقترحة على الآخر ان يتخذ لي طلسماً تحصّن به جزيرة الاندلس من البربر . فاستظرف ابوها ذلك ، وكتب الى الملكين بما قالت ابنته . فأجاباه الى ذلك وتقاسماه على ما اختارا ، وشرع كل واحد منهما في عمل ما اسندا اليه من ذلك . فأما صاحب الرحى ، فانه عمد الى اشكال اتخذها من الحجارة نضد بعضها الى بعض في البحر المالح الذي بين جزيرة الاندلس والبر الكبير في الموضع المعروف بزقاق سبتة وسدد الفرج التي بين الحجارة بما اقتضت حكمته ، وأوصل تلك الحجارة من البر الى الجزيرة ، وآثاره باقية الى اليوم في الزقاق الذي بين سبتة والجزيرة الخضراء . واكثر اهل الاندلس يزعمون ان هذا اثر قنطرة كان الاسكندر قد عملها ، يعبر عليها الناس من سبتة الى الجزيرة والله اعلم اي القولين اصح . غير ان الشائع الى الآن عند الناس هو الثاني . فلما تم تنضيد الحجارة للملك الحكيم ، جلب الماء العذب من جبل عالٍ في البر الكبير ، وسلّطه من ساقية محكمة ، وبنى بجزيرة الاندلس رحى على هذه الساقية .

وأما صاحب الطلسم ، فانه ابطأ عمله بسبب انتظار الرصد الجوي الموافق لعمله ، غير انه عمل امره واحكمه ، وابتنى بنياناً مربعاً من حجر ابيض على ساحل البحر في رمل عالج حفر اساسه الى ان جعله تحت الارض بمقدار ارتفاعه فوق الارض ليثبت .

فلما انتهى البناء المربع الى حيث اختار صوراً من النحاس الاحمر والحديد المصفى المخلوطين باحكم الخلط ، صورة رجل بربري وله لحية ، وفي رأسه ذوابة من شعر جعد قائمة على رأسه لجعودتها ، وهو متأبّط بصورة كساء قد جمع طرفيه على يده اليسرى بألطف تصوير ، واحكمه في رجله نعل وهو قائم على رأس البناء على مستهدف بمقدار رجليه فقط وهو شاهق في الهواء طوله نيّف عن ستين او سبعين ذراعاً ، وهو محدودب الاعلى الى ان انتهى ما سعته قدر ذراع ، وقد مدّ يده اليمنى بمفتاح قفل قابض عليه ، مشير الى البحر كأنه يقول لا عبور .

وكان من تأثير هذا الطلسم في البحر الذي تجاهه ، انه لم يرَ قط ساكناً ، ولا كانت تجري فيه قط سفينة بربر الا سقط المفتاح من يده .

وكان الملكان اللذان عملا الرحى والطلسم يتسابقان الى فراغ العمل ، اذ بالسبق يستحق زواج المرأة . وكان صاحب الرحى فرغ اولاً ، لكنه اخفى امره عن صاحب الطلسم لئلا يترك عمله ، فيظل الطلسم ، لتحظى المرأة بالرحى والطلسم . فلما علم باليوم الذي يفرغ صاحب الطلسم في آخره، اجرى الماء في الجزيرة من اوله ، وادار الرحى ، واشتهر ذلك ، فاتصل الخبر بصاحب الطلسم ، وهو في اعلى القبة يصقل وجهه ، وكان الطلسم مذهباً ، فلما تحقق انه مسبوق ، ضعفتْ نفسه، فسقط من اعلى البناء ميتاً ، وحصل صاحب الرحى على المرأة والرحى والطلسم .

وكان من تقدم من ملوك اليونان ، يخشى على الاندلس من البربر للسبب الذي قدمنا ذكره . فاتفقوا ، وجعلوا الطلسمات في اوقات اختاروا ارصادها ، وأودعوا تلك الطلسمات تابوتاً من الرخام ، وتركوه في بيتٍ بطليطلة ، وركبوا على ذلك الباب قفلاً تأكيداً لحفظ ذلك البيت فاستمرّ امرهم على ذلك . ولمّا حان وقت انقراض دولة من كان بالاندلس ، ودخول العرب والبربر اليها ، وذلك بعد مضي ستة وعشرين ملكاً من ملوكهم من تاريخ عمل الطلسمات بطليطلة . وكان لذريق المذكور آنفاً هو تمام السابع والعشرين من ملوكهم . فلما اقتعد اريكة الملك ، قال لوزرائه وخواص دولته واهل الرأي منهم : قد وقع في نفسي من امر هذا البيت الذي عليه ستة وعشرون قفلاً ، شيء اريد ان افتحه لانظر ما فيه لانه لم يصنع عبثاً .

فقالوا : ايها الملك ، صدقت انه لم يصنع عبثاً ، ولم يقفل سدى ، والرأي والمصلحة ان تلقي انت ايضاً عليه قفلاً اسوة بمن تقدمك من الملوك . ولم يهمل آباؤك واجدادك هذه العادة فلا تهمله وسر سيرهم .

فقال لهم : ان نفسي تشأ فتحه ، ولا بدّ لي من ذلك . فقالوا له : ان كنت تظن ان فيه مالاً فقدره ، ونحن نجمع لك من اموالنا نظيره، ولا تجرّ علينا بفتحه حادثاً لا نعرف عاقبته . فأصرّ على فتحه ، وكان رجلاً مهيباً لم يقووا على مراجعته .

وأمر بفتح الاقفال ، وكان على كل قفل مفتاحه معلق به . فلما فتح الباب ، لم يرَ في البيت شيئاً ، الا مائدة عظيمة من ذهب وفضة ، مرصعة بالجواهر ، وعليها مكتوب : هذه مائدة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام .

ورأى في البيت ذلك التابوت ، وعليه قفل ، ومفتاحه معلّق ، ففتحه ، فلم يجد فيه سوى رق وفي جانب التابوت صور فرسان مصورة بأصابع محكمة التصوير ، على اشكال العرب ، وعليهم القراء ، وهم معممون على ذوائب جعد ، ومن تحتهم الخيل العربية ، وهم متقلدون السيوف المحلاة ، معتقلون الرماح ، فأمر بنشر ذلك الرق ، فاذا فيه : متى فتح هذا البيت وهذا التابوت المقفلان بالحكمة ، دخل القوم الذين صورهم في التابوت ، الى جزيرة الاندلس ، وذهب ملك من فيها من ايديهم ، وغلبت حكمتهم .

فلما سمع لذريق ما في الرق ، ندم على ما فعل ، وتحقق انقراض دولتهم . فلم يلبث الا قليلاً ، حتى سمع ان جيشاً وصل من الشرق جهزه ملك العرب ليفتح بلاد الاندلس .

القسم الاول

١

الوثبة الجامحة

من هما هذان الفارسان الجادان في سيرهما قاصدان طليطلة عاصمة القوط؟ انهما سائران صامتين ويبدو على احدهما سيماء الوقار والآخر يمشي متأخراً عنه .

وينسابان بين الاشجار انسياب الافعى بين العشب وتلج اشعة الشمس التي شارفت على الزوال بين الاغصان الباسقة . ولاح لهم من بعيـــد دير لرهبان البندكتان ، ولا بأس في التعريج عليه وقضاء فترة استراحة .

وهبطت الشمس وراء الأفق ولمعت بروق تبشر بهبوب العاصفة .

– أيريد سيدي اللجوء الى الدير قبل ان يداهمنا المطر ؟

– هناك نجد الملجأ الامين ويستطيع جوادانا الاستراحة التي هما بأشد الحاجة اليها بعد عناء هذا النهار .

– ونستريح ليلتنا هناك وفي الصباح نواصل السير الى طليطلة .

– لا اسايرك في هذه المسألة يا فرنندس «Fernandes» لا نبيت ليلتنا الا في عاصمة القوط .

ولم يستريح فرنندس لإجابة سيده بلاي ، واستقبلهم رئيس الدير بالترحاب.

– خذا راحتكما يا ولديّ . هل من جديد بعد تقابلنا الاخير يا بلاي ؟

– لا لا يا ابت غير اني اصبحت مقتنعاً كل الاقتناع بان الملك لذريق قريبي وصديقي في الماضي يبغضني للموت ، والعجيب اني اجهل الباعث لهذا البغض .

وأطرق القس قليلاً ثم رفع رأسه :

– تجهل السبب ؟ فانا اتخيّله . ان لذريق عالق بهوى فتاة الى حد الجنون .

– وكيف علمتم ذلك يا ابتِ ؟

غادر هذا المكان منذ ثلاث ساعات . فقد استراح في هذا الدير من عناء رحلة صيد فتناول الافطار وكان على المائدة منحني الرأس اصفر الوجه ساهم النظر مقطّب الجبين، متقطع الالفاظ . كله دلائل حب يضطرم في صدره وافكاره بعيدة عنا وهبط الى الحديقة يتمتم بين شفتيه اسماً يردده بحرارة اللهجة والشوق .

– اسم من ؟ ابتِ بحقكم قولوا لي اسم من ؟

فحدق فيه الراهب بنظرة ملؤها الشفقة وقال :

– هل استطيع ان ارد طلباً لابن فبيلا رفيقي القديم في السلاح ؟

– انت تعلم انه جرت العادة عند القوط ان تتربى بنات الاشراف في بلاط الملك لخدمة الملكة ومرافقتها كما ان الاولاد يخدمون الملك ويرافقونه .

– وما معنى ما تقول ؟

– بين الصبايا اللواتي يخدمنَ الملكة اجياونا صبية بارعة الحسن راودها الملك عن نفسها بالحاح لا مزيد عليه .

– وهي ما موقفها ؟ هل سايرته في طلبه ؟

– كلا ، ردته خائباً .

فتهللت اسارير بيلايو Pelay والحف بالسؤال .

– وما اسم تلك الفتاة ؟

– هذا ما لا استطيع البوح به انه سر ، سر اعتراف ، انا استطيع معرفة اسرار الغير ، غير ان احداً لا يستطيع معرفة سر مني .

وبالواقع كان الراهب يعلم سر الفتاة ويدرك حب الملك ويفهم غرام بيلاي وما يمكن ان يسببه له من صعوبات قد تؤدي به الى مهلكة فهو مزاحم الملك .

ـ هو الشباب يلعب برأسك اتظن ان الملك الذي تزعم انه يضمر لك البغضاء يتركك تخرج حياً اذا علم انك دخلت قصره خلسة . كما تنوي ان تفعل ، لمقابلة احدى وصيفات الملكة .

فذهل بيلاي لمّا عرف ان الراهب واقف على حقيقة سره وقصده من الوصول الى طليطلة في تلك الليلة بالذات . فقبّل يد القسيس وطلب بركته ودعاه ورجع الى حيث ينتظره وصيفه فرنندس وانطلق الاثنان يحثان الجوادين على العدو في تلك الليلة الظلماء الممطرة . العاشق الولهان يهون عليه اجتياز الصعاب والمخاطر اذا كانت نهاية المطاف تؤدي له الجائزة : نظرة ابتسامة كلمة حب .

والقصر قريب من الاسوار ، وفيها ممرّ سري يعرفه بيلاي فعبره بعد ان اوصى وصيفه بانتظاره في انقاض قلعة قريبة . وسلك في منعرج حتى وصل الى باب يؤدي الى حديقة اجتازها ووصل الى مدخل نهايته سلّم لولبي ضيّق ومظلم يؤدي الى رواق سار فيه الى آخره ، فانسلّ بيلاي كشبح عندما سمع صوتاً رخيماً يرنم اغنية دارجة خفق لها قلبه بشدة فدرج اليه واذا به امام فتاة رائعة الجمال يعلو وجهها شحوب ، شعرها الاسود مسدول على كتفيها وظهرها ، عيناها عينا غزالة ناعستان حيبتان جللها الحب ، في سيمائها كآبة ، فرمقتْ الفارس الجسور الذي تأملها صامتاً مهيباً . ومكثا برهة طويلة نشوانين من سحر تبادلته نظرات الحب .

ـ وقطع بيلاي الصمت .

ـ ما هذا الحزن الذي يغطي وجهك يا فلورندا ولما هذا الاصفرار الذي يعلو جبينك ؟

ـ لقد جئت وذهب كل ما بي .

ـ بحقك ايتها الحبيبة قولي لي ماذا دهاكِ ؟

ـ وما يثير حفيظتك ؟ افصحي !

فتنهدت فلورندا وقالت : بيلاي ، يا ليتني قروية ولم تطأ قدمي هذا القصر . هنا الشباب يشيخ بسرعة وكل طاهر يتدنس ويفسد .

ـ ما تقصدين ؟ بحق السماء ، اذا كنت تحبينني فلماذا لا تكشفين لي سريرتك ؟ عندما اكون بقربك لحظة من عينيك تنسيني الوجود وعندما اكون بعيداً عنك اعيش بذكراك . أبعد هذا تجسرين ان تخفي عني ما يثير اشجانك ؟

– ارى المستقبل من وراء قناع اسود . بين صدرك وصدري خنجر . هوّة عميقة تفصل بيننا .

– ما هذا الكلام يا فلورندا ؟ من يستطيع ان يفصل بين قلبين ؟ انهم كما لو ارادوا ان يفصلوا النور عن الشعاع . انت من نسل غيطشة وابنة يوليان وانا ابن فيبلا Favila نسيب الملك ندريق وانا قريب من العرش ولا احد يجسر على معاندتي .

– لا احد ؟ ولا الملك ذاته ؟

وذهل الفتى كما لو ان جبلاً سقط عليه وساد الصمت . ثم رفع بيلاي رأسه وقال : سنرى فيما اذا كانت ارادة الملك اقوى من شريعة الحب التي فرضتها الطبيعة .

وانشقّ الباب في تلك اللحظة وانتصب رجل طويل القامة يتبعه راميا قسي .

وارتعب العاشقان وهتفا معاً : لذريق !

وبالواقع كان لذريق الملك فأشار الى مرافقيه فانقضا على بيلاي وعبثاً حاول المقاومة .

وخرّت فلورندا خائرة القوى على كرسيها واقتيد حبيبها الى السجن بعد ان نزع عنه سلاحه . الملك ليس صديق بيلاي بل غريمه ومزاحمه .

* * *

في احدى قاعات قصر ملوك القوط في طليطلة ينتظر انسان طويل القامة ، شعره اسود مثل الأبنوس يتساقط على كتفيه العريضتين ؛ وفي نظراته العزم.

وطال انتظاره . وفجأةً انفتح الباب وظهر شاب في العقد الثالث من عمره كسير الجفن غير انه لا يخلو ظاهره من الحيلة والذكاء ؛ انه يرتدي ثياب اليهود .

الحمد لله لقد جئت اخيراً يا كلب !

– سيدي ، لم يكن بمقدوري المجيء قبل الآن ؛ ها انا رهين اشارتك يا مولاي !

– اسمك دانيال ؟

– نعم سيدي .

– هل انت طبيب ؟

– اجل مولاي الملك انا طبيب .

– وكيف حال فلورندا ؟

– انها احسن حالاً من الاول ولا ادري ما ألّم بها غير اني اظن انها متوترة الاعصاب .

– لقد قيل لي انك عليم باعداد عقاقير تجعل من يتناولها يستسلم الى رقاد عميق .

– ولم يخدعوا جلالتكم .

– ومتى عزمت على اعدادها ؟

– عمل شاق وكثير التكاليف .

ولم يدهش الملك لكلمات اليهودي الطامع في المال .

– ومتى يصبح جاهزاً ؟ وكم المبلغ ؟

– غداً صباحاً ان شاء الله وتكاليفه لا تقل عن مايتين قطعة ذهبية .

– خذ اربعمائة .

فدهش دانيال وقال :

– سيدي انا لم اطلب هذا القدر .

– وانا اريد اعطاءك هذه الكمية بشرط ان تحدد لي مفعول الدواء المنوّم .

– من يتناوله يستسلم لسبات عميق ولا يشكل خطراً على حياته .

– تجاوب بحياتك ؟

– بحياتي يا مولاي .

– مسألة اخرى ، اريده الليلة الساعة الثانية عشرة الى ابعد حد .

فأبدى اليهودي اشارة الايجاب والتأكيد .

وتابع الملك قوله : اذاً في الساعة الثانية عشرة ترقد فلورندا رقاداً عميقاً .

– في الساعة الثانية عشرة والربع حتى السادسة صباحاً .

وباشارة من الملك انسحب دانيال بعد ان ادى انحناءة كاد جبينه يلامس الارض .

وبقي الملك وحده مستسلماً الى اضطراب عميق وفجأةً انفتح الباب وأطلت سيدة متشحة بثوب ابيض وانتصبت امام الملك وانطلقت من صدرها تنهدة اليمة وانفجرت باكية .

فتأملها الملك صامتاً . ثم بادرها بالسؤال : وما جاء بك الى هنا ؟

– وتسألني ايها الرجل الخالي القلب عن سبب مجيئي ؟ آه يا لذريق لقد نسيت ساعات الحب التي قضينا معاً ؟ هل تذكر يا لذريق تلك ليلة الصيف وانا كنت في حديقة ابي وانت على قدمي والقمر يلمع في السماء وحلفت لي على ضوئه المنازع ، حباً مدى الابد ، وانا اتأمل بك ساهية ساهمة واصغي الى كلماتك الحارة وصدقت قولك وانت لم تكن آنذاك سوى انسان مضطهد يطاردك غيطشة وانا لم اكن سوى ابنة دوق غني . فلم تكن ملكاً ولم اكن ملكة . واعجبتني لشقاوتك وكنت صديق الشريف بيلاي . فيا ليتك لم تضع التاج على رأسك وليتني لم اصبح ملكة اذا كان ذلك يؤدي الى قساوة في قلبك فتتنكر للحب .

– اسكتي ايتها السيدة اسكتي .

– ولكن عزمك ...

– عزمي لا رجوع عنه وانت تعلمين تصلب ارادتي .

– اذن تطلقني ؟

اطلقك وغداً تغادرين قصري .

وسدرت الملكة اجيلونا في صمت حزين كأنها تمثال من الألم ، الا انها جميلة وكئيبة مثل المجدلية .

وتنبه فيها كبرياؤها كملكة :

ايها الظالم تظنني اجهل سبب مسلكك حيالي ؟ اتدري من يحاول اغواء اجمل واطهر فتاة بين وصيفاتي ، فلورندا ، هو انت يا لذريق . اتذكر من دنّس زوجة ارفيجيو ؟ هو انت يا لذريق . اتتذكر بيلاي صديقك وقريبك ؟ انه الآن في السجن ومن زجّه فيه سواك يا لذريق !

واصفرّ الملك لمّا كشفت له زوجته آثامه الماضية غير انه تجلّد امام كلمات زوجته التي تابعت كلامها :

– يوم الانتقام قريب لقد ضجت السماء من الافراط في الظلم . الشعب سينزع التاج عن رأسك ويحطّمه عندما يعلم بسجن بيلاي خطيب فلورندا التاعسة . اضطرب يا لذريق ستلعنك الاجيال القادمة وستكون آخر مـلك سيحمل هذا الاسم .

– اخرجي من امامي –الاّ ابتعدي عني .

فأدركت الملكة انها تمادت في القساوة فقالت :

– ألبّي مشيئة زوجي وأطيع اوامره ؟

– لست زوجك ، بل ملكك الذي يأمرك .

فانفجرت باكية ، الغيرة في صدرها واليأس يغشاها والحب في فؤادها .

وصوّبتْ اليه نظرة ملؤها الحنان قد تكون النظرة الاخيرة . وخفض الملك رأسه .

– استودعك الله .

وغادرت المكان حزينة القلب باكية ، وأدركت انها فقدت حب زوجها الى الابد .

امّا هو فتوجه الى مرقد فلورندا فتأملها على فراشها. رأسها الجميل المجلل بالشعر المبعثر على وجهها وصدرها الابيض الرخامي الذي يرتفع ويهبط وزنداها البيضاوان. فوقف يتأمل هذه الفواتن المعروضة امام عينيه في مكان لا ثالث بينهما. شعر كأن رصاصاً مذاباً يجول في عروقه وتشنجت اعصابه ودبت فيه رعشة الشهوة وهو يحدق النظر في كل نقطة من هذا الجسم البض الممدد امامه على السرير لا تستره سوى غلالة بيضاء تبدي اكثر مما تخفي. فانقضّ عليها وهو يعتقد ان المنوّم ما زال يفعل فعله معها ، فأهوى على شفتيها يمتصهما مصاً واستيقظت الفتاة من رقادها العميق ، ولمّا ابصرت وجهاً قريباً من وجهها يحرقها بأنفاسه اغمضت اجفانها من الرعب لما علمتْ انه الملك وسقط من يدها وحاولت الصراخ ولم تقدر ، لذريق يرزح عليها بكل ثقله ولم تجد مقاومتها بل زادته شراسة وعنفاً وشبقاً فتمكن منها وقضى وطره وغادرها مثل ثمر يغادر فريسته بعد شبعه .

• • •

٢

وفي اليوم التالي سار الملك في رحلة صيد تتبعه حاشيته كما اعتاد في كل اسبوع لان القنص كان هوايته المفضلة ، وتوسم فيه الجميع المرح الذي لم يعرف ملامحه منذ زمن طويل فالعبوس كان يهجم وجهه . ولمعت عيناه ببريق ساطع من الحنان ووجنتاه تكحلتا بالتورد وتاه في مشيته وبان فيه الرجل الصافي له زمنه فقد حقق امنية غالية على قلبه .

استعاد لذريق بهجته القديمة وابتسم للطبيعة او بالأحرى تصور الطبيعة تبسم له . فمن تغريد الحسون الى عبير الزهور الى اخضرار المرج الى عظمة النهر الجارف الى سحر الغاب الصامت كلها تحرك روحه وتحمل الى قلبه الف رنة حنان . كل ما حوله يحدثه عن الحب ، تجدد شبابه ورأى الدنيا مصورة في شبح امرأة ، فلورندا ، فالأمل يبسم له بأنها ستجود عليه بعد اليوم بحبها ولقاء هذا الحب يغطي وشاحه الملك وصولجانه وتاجه .

وطارد خنزيراً بريا وابتعد عن حاشيته وغاب عن ناظريه الخنزير وفجأة صهل فرسه ورفع قوائمه ورنّ سهم وصرخ الملك صرخة داوية وسقط على الحضيض صريعاً .

وارتفع صوت فارس يطوي البيد ملثم الوجه يقول : انتقمت لكما يا اجيلونا Egelona ويا وفلورندا .

وبالفعل كانت اجيلونا اسيرة في احدى غرف القصر يحرسها غلمان يهود .

وانفتح الباب فجأة وظهر شخص ليس بغريب عن الغلمان الذين ابدوا له الخضوع .

وكان القادم الطبيب دانيال فانحنى رأسه اجلالاً للملكة التي رمقته باحتقار واشمئاز .

فقال لها بكل احترام : سيدتي ادرك موقفك واحاول بقدر امكاني التخفيف عنك في مصيبتك .

فألقت عليه الملكة نظرة لا تخلو من الدهشة وفيها شيء من الشكران .

— الملك يصطاد فاذا احببت الخروج الى الحديقة فلا حرج عليك . هذا كل ما اقدر ان افعله لأجلك .

وتنوّر وجه اليهودي لمّا حدج الملكة بنظرة عابرة . اجل انه يعبد الملكة ولا يجسر ان يكشف لها باطنه .

وندمت الملكة على قساوتها حياله فقد نظر اليها في مصيبتها فوجهتْ اليه نظرة شكر قائلة : اقبل الخروج قليلاً من هذه الحجرة الخانقة الانفاس لأشم الهواء وأرى السماء والازهار .

سيدتي ، اني اشقى خلق الله . ولدت للبكاء وأنا اليهودي حتى انه لا يحق لي ان ابكي آلامي لان الجميع يهزأون من رؤية يهودي يبكي . لم انعم بحنان أم أو بنصيحة أب ولا بمعانقة شقيق . انت سيدتي الملكة غير قادرة على تفهّم المرارة التي تتآكل قلب الشقي الوحيد على الارض .

— اجل اني ثمرة حب اثيم فأمي لم اعرفها كانت جارية يهودية وابي قتل من المقدمين بين القوط ولم يبقَ لي من امي سوى هذا الخنجر المكتوب عليه اسمها « راحيل » .

— ابوك مسيحي على ما تقول ولماذا لم تتبع دين ابيك ؟

— لاني تربّيت عند طبيب يهودي وأساء معاملتي غير انه علّمني مهنة الطب التي اعيش منها .

— ولماذا لا تعتنق الديانة المسيحية ؟

— انت سيدتي ديني الوحيد فان شئت ان اؤمن بالمسيح فانا مؤمن به . انا عبدك .

وارتمى دانيال على قدمي الملكة يوسعها لثماً وتقبيلاً . ولمّا رأت اجيلونا هذا الاظهار السافر تبيّنت ان بركاناً من الحب يضطرم في صدره .

— انك تهذي ؛ انصرف عني .

فلملم المسكين ذاته متعثراً بالخيبة .

وفي غرفة في الجانب الآخر من القصر كانت فتاة رائعة الجمال مكبّة على الكتابة ، متشحة بالسواد ، دموع حرار تنسجم على خديها وتتساقط على الرق الذي تكتب عليه .

وقرأت الرسالة ورضيت عن مضمونها ونادت خادمتها سميرة قائلة :

— هل قدم « غوملدو » Gomildo ؟

— اجل سيدتي انه بانتظار اوامرك .

ودخل شاب رثّ الثياب فاستقبلته برقة ودعة : ايها المخلص غوملدو عليك القيام برحلة بعيدة .

— انا رهين اشارتك يا سيدتي !

— عليكَ ان تحمل هذه الرسالة الى ابي .

وطوتها بعد ان قرأتها للمرة الثانية وقد جاء فيها :

— الى القند يوليان :

ابي وسيدي : ليت الارض تفتح فاها وتبتلعني قبل ان اكتب اليك مصيبتي التي ستقيمكم وتقعدكم ولا ريب . اني اخجل ان اقول ما يجب عليّ ان اصمت عنه ، ما اتعس حظي . بكلمة ، ابنتك من دمك ومن السلالة القوطية اغتصبت ، اغتصبها الملك لذريق الذي اوكلت اليه امرها والعناية بها كما لو انك اوكلت حراسة الشاة الى الذئب فافترسها . ابي لا بدّ من ازالة الإهانة ومحو العار ، الانتقام لشرفنا الملطخ بالدنس .

« فلورندا »

ولفتها في منديل من الحرير ووضعتها في يدّ خادمها غوملدو .

— شرفي وحياتي بين يديك .

— وسأكون عند حسن ظن سيدتي .

وودعها ورافقته سميرة الى الباب دامعة العين كئيبة الفؤاد ، انها تخشى عليه اهوال السفر الطويل . وعند المدخل وبمنأى عن انظار سيدتهما استسلما الى عناق طويل وتعاهدا على الوفاء حتى يقضي الله امراً كان مقضياً .

والملكة اجيلونا ما زالت رهينة محبسها وعبثاً حاولت مقابلة الملك ولم تدرك بغيتها . اما لذريق فقد نجا من الموت باعجوبة وبيلاي السجين انقذه خادمه اذ سهّل له سبيل الفرار ودانيال الطبيب اليهودي الذي اوكل اليه الملك حراسة اجيلونا كان يتردد على شيخ هرم اسمه بنيامين يعيش في قصر الملك ، مشغوف بالطب وبعلم النجوم . فلما دخل عليه في مطلع الليل وجده يراقب القبة الزرقاء ويطالع كتب زاردشت والمجوس الشرقيين وفيثغورس وابقراط وجالينوس وغيرهم فبادره بالكلام : امر خطير ، الملك يطلق الملكة ويرسلها الى شريش للقضاء عليها .

فدهش دانيال من وقوف بنيامين على هذه الاسرار البالغة الاهمية لانها تتعلق بحبيبة قلبه اجيلونا . فقال له الشيخ : لا تحاول اخفاء ما يجول في ضميرك ، انها الملكة .

ـ بحقك لا تفشِ سري والاّ قتلتني فاذا كشف الملك امري فلا شك انه قاتلي .

ـ لا تعجب اذا امرك الملك بان تصحب الملكة الى شريش للتخلص منها على الطريقة التي تخلص بها من غيطشة ملك القوط السابق ؛ أتذكر ؟

ـ أجل ، مات ذلك الملك مسموماً في برج القديسة « لوقديا » والملكة ستلاقي المصير ذاته .

ـ مسكينة الملكة ، أفديها بروحي . شكراً لك يا بنيامين على هذا السر الذي كشفته لي .

وبينما همـــا في الحديث سمعا لغطاً ، انه الملك مع بعض افراد حاشيته يتحادث معهم بشأن التوجه الى قصر هربلوس الرهيب ولا تتجاسر حاشيتـــه اللحاق به . فقد اشيع انه قصر مسحور يضم كنوز الاقدمين ، متحامي الفتح على الايام ، عليه عدة من الاقفال ، يلازمه قوم من ثقات القوط ، قد وكلوا به لئلا يفتح . وقد عهد الاول في ذلك الى الآخر ، فكلما قعد منهم ملك اتاه اولئك الموكلون بالبيت فأخذوا منه قفلاً وصيّروه على ذلك الباب من غير ان يزيلوا قفل من تقدمه .

فلما جلس لذريق على العرش وكان يقظاً ذا فكر ، اتاه الحراس يسألونه ان يقفل على الباب فقال لهم لا افعل او اعلم ما فيه ولا بد لي من فتحه فقالوا له : ايها الملك انه لم يفعل هذا احد من قبلك .

وتناهوا عن فتحه فلم يلتفت اليهم ومشى الى القصر المسحور فأعظمت ذلك حاشيته وضرع اليه بعض اكابرهم في الكف فلم يفعل وظن انه بيت مليء بالذهب والحجارة الكريمة .

ففض الاقفال عنه ودخل فأصابه فارغاً لا شيء فيه الا تابوتاً عليه قفل . فأمر بفتحه بحسب ان مضمونه يغنيه فألفاه ايضاً فارغاً ليس فيه الا شقة مدرجة قد صوّرت فيها صور العرب عليهم العمائم وتحتهم الخيول العربية متقلّدي السيوف متنكّبي القسي رافعي الرايات على الرماح وفي اعلاها اسطر مكتوبة بالعجمية فقرئت فاذا فيها : « اذا كسرت الاقفال عن هذا البيت وفتح هذا التابوت فظهر ما فيه من هذه الصور ، فان هذه الأمة المصورة في هذه الشقة تدخل الاندلس وتتغلب عليها وتملكها » .

فوجم للذريق وندم على ما فعل وعظم غمّه وغمّ حاشيته بذلك وأمر بردّ الاقفال واقرار الحراس على حالهم . وكان عليه ان يصدق الاساطير عن ذلك البيت ، فالقرويون يروون عنه الاساطير منها انه مسكون . مارد جبّار يقذف الحمم من فيه اسمه هربالوس يستنشق النار وشعره مجدل واقاعي تصفر صفيراً جهنمياً .

ويروون عنه انه في الليل يشاهدون فيه روحاً تتعذب ممتطية تيوس ماعز او غرباناً او عصا مكنسة يتقدمها العملاق على ظهر قزم له شكل تمساح ذي ذنب مجنّح .

وسكان طليطلة عن بكرة ابيهم يرثون لحال من تسوّل له نفسه الدخول الى ذلك المكان فانه سيصبح فريسة الارواح المعذبة تمتص دمه ثم تلقي بجثته في مياه نهر التاجه .

* * *

في صمت الليل تنكمش النفس على ذاتها . فلورندا الكئيبة غارقة في تأملاتها تنتظر لقـاء حب . وعادت الى ذاكرتها الليالي السعيدة ، ليالي الحب قرب بيلاي . امّا الآن فان حبيبها يقرأ في وجهها عارها .

وانفتح الباب وظهر الفارس وهتف صارخاً : فلورندا حياتي !

– بيلايو .

وانكبّ على يديّ حبيبته يقبلها .

– تروّ يا بيلايو لا ترفع صوتك قد يكون للجدران آذان .

– بحقك يا فلورندا لا تعكري عليّ اجمل ساعات حياتي بصور قاتمة . ما بالك تبكين ؟

– اصبحت طليقاً يا فلورندا ، سأخاطب والدك ولنخرج من البلاط . هنا نستنشق الروائح النتنة ، فلنبتعد عن هذا المكان . فلنبتعد عن الدريق . الحب هو جنّتنا والوطن حيث استطيع ان اعبدك . تعالي حيث لا عذول ولا رقيب سوى اغاني الطيور ، وهناك أصوغ لك اكليلاً من الزهور لأزيّن به هامتك .

– بيلايو اهرب من هنا قبل ان يسمعونا ، قد يأتي الملك .

– دائماً الملك ، الملك ، هل لجّ عليكِ ؟ وكيف عاملكِ ؟

فاصفرت اصفرار الاموات ولم يلمح عليها اصفرارها بل سمعها تقول : لا لم يضايقني .

– تعالي نتوجه الى الاسقف اربانوس فيبارك زواجنا . ثم اذا احببت تتبعيني او تظلّين هنا اذا شئتِ . هلمي بنا يا فلورندا اتبعيني .

ولو ان صاعقة انقضّت على رأسها لما احدثت فيها هذا الوجل المتأتي عن اقتراح حبيبها غير المتوقع .

– لا ، لا ولعنة السماء تتبعنا والعار يعلق بنا . كلا ، لا استطيع اللحاق بك واني قادرة على تحمل بعادك عني الى الابد ، لا ترمقني بهذه النظرات التي تهزّ كياني ، دعني في آلامي ، دعني وحدي اتحمل التضحية . اني افهم تألمك يا بيلايو لان حبك مضطرم مثل الشباب ولا حد له مثل اللانهاية . احظفه لامرأة اخرى تستحقه ، سوف لن تراني فيما بعد ، سأقضي ما بقي لي من حياتي في الدير وسألبس الحداد على ايامي وقد استنشق عبير زهور ذكرياتي الذابلة . ذلك العزاء الوحيد الذي يرافقني في وحدتي .

وغطت وجهها المبلل بالدموع بيدها ومدت الأخرى الى حبيبها اشارة الوداع . استودعك الله يا حبيبي بيلايو . استودعك الله .

– هل انا في منام ام يقظة ؟ هل صحيح ما اسمع ؟ أدعوك لتكوني زوجتي وتعرضين عني ؟

- واجبي يقضي عليّ بالبقاء وبالألم .

– انت حية رقطاء تخدعينني ، سبب آخر يشده بك للبقاء في هذا القصر . فلورندا ، فلورندا هل هناك حب آخر ؟ هل من مزاحم ؟ الويل لكِ وله اذا تحققت ظنوني !

وخرج من حضرتها بسرعة وقد جنّ جنونه من الغضب ومن الغيرة .

وما كاد يخرج بيلايو من حضرة فلورندا حتى شعر ان يداً من حديد تضغط عليه وتجرده من سلاحه ولم يستطع معها المقاومة لهول المفاجأة وأخذ يتخبّط بين ثماني ايدي محاولاً الافلات ولا سبيل اليه .

واقتيد الى قاعة السلاح وشددت الحراسة عليه .

– نفّذ امرك يا مولاي !

– حسناً ، اجل انا الملك صاحب الامر والنهي . ولكن هل آمر وانهي في القلوب العاشقة ؟

٣

الأب والإبنة

مسكينة فلورندا تطلعت الى المستقبل وشاهدت هوة من اليأس فتراجعت الى الوراء . حاولت خداع ذاتها بفكرة ابدال احلامها الغرامية الجميلة بوحدة الدير غير انها بعد ان سبرت غور قلبها فهمت ان الحياة بدون حب اشنع من الموت ذاته . ورفعت عينيها الجميلتين وعقدت يديها على صدرها وجالت البسمة على شفتيها كأنها وجدت المنقذ من عذابها .

واستسلمت الى احزانها ، وخالجتها فكرة الموت التي تهبها الراحة ، لان الحياة بدون حب بيلايو لا يطيقها قلبها الشاعل هوى .

وحرصت منذ الآن وصاعداً على الاّ تتكرر تلك الليلة الرهيبة التي نال فيها الملك منها ما اراد وادركت انها ذهبت ضحية حيلة خبيثة القت عليها ذلك الثبات العميق حتى تمكّن الملك لذريق منها . وحاذرت من تناول اي طعام لم تهيئه بذاتها .

وبينما هي غارقة في افكارها ظهر امام عينيها القند يوليان والدها .

فهرعت اليه هاتفة : ابي ابي !

وكانت برهة صمت بين الاثنين تعانق فيها الوالد العطوف والابنة الكسيرة الفؤاد .

— ابي ، الذنب ليس ذنبي ؛ ذلك الوحش ...

— لعنة الله .

ووضع يده على قبضة سيفه وحدقته فلورندا بنظرة نطقت اكثر من خطاب طويل نمت عن العار والألم .

– ابي اني مدركة مقصدك الشريف ، فاذا كان لا بدّ من الموت فليأت على يدكّ ، فستردد الاجيال المقبلة اسمك الملطخ بالعار ، لطّخه هذا الوحش الذي يسمونه الملك . والتضحية ، حفظاً لشرفك ، تهون عليّ ، الحياة الملطّخة بالعـــار عذاب مقيم . انا لم اعد اتوقّع شيئاً من الحياة ، مصيري على الارض وصل الى غايته ، فقد كنت اشقى بنات القوط ولم اعد استحسن حنان الوالد ولا محبة الرجل الذي لا يقاس بالرجال ، بيلايو .

ولما وصلت الى هذا الحد ، علا الاحمرار وجهها ، وداخلها اليأس المرير .

– ابتعدي عني يا فلورندا فانه من الخطر الشديد ان اضمك الى صدري فقد اسحق عظامك . الجنون ، الغضب ، الثورة قد تعبث بي عندما اذكر الإهانة الكبرى التي علقت بي ولا يغسلها الا الدم .

– اني على استعداد للجود بدمي .

– نعم ستجري الدماء كالانهار . اسبانيا جمعاء ستتحول الى بحيرة من الدماء ، وقد يذكر الخلق اسمي بالكراهية والمقت و لكن اكون قد انتقمت من الظالم . اليك عني فلا اثق من السيطرة على نفسي .

– ابي سأريك رسالة كتبتها اليك امس بعد ان قررت امراً لا رجوع عنه .

ونادت وصيفتها سميرة .

وظهرت الوصيفة مبدية علامات الاحترام لسيدها لاسيما وان جلالة الموقف ورهبته تقضيان بذلك .

وسلّمتها الرسالة ودفعتها الى ابيها فقرأها فاذا فيها : ابي العزيز ، لقد انتظرتك بدون جدوى منذ ان بعثت اليك برسالتي مع الامين غوملدو . انا هنا معرّضة للعار من جديد ولن اجد احداً يرفعه عني الا بالقاء ذاتي في نهر التاجه حيث اجد في مياهه طمأنينتي وراحتي الابدية . الموت افضل من الفضيحة . قل لبيلايو الذي اخترته انت بذاتك زوجاً لي انه يوجد عالم افضل حيث يفرح الحزانى ويلتقي المحبون . استودعك الله يا ابي واغفر لي هذا العزم الذي قصدته .

قد يكون غريباً في نوعه غير انه الوحيد الذي يضمن لي الاطمئنان ويحفظ شرف ابنتك فلورندا .

– ربي وإلهي انت تموتين؟ مجرّد التفكير فيه يجعلني ان اضطرب من الهلع والرعب . بفرسي ورمحي سأرفع لك عرشاً ، استعدي للرحيل سنذهب الى اطراف الارض .

– وهناك تتبعني صورة بيلايو الحبيبة على قلبي .

• • •

في فندق من مدينة «كونسوغرا» Consuegra جلس رجل امام طاولة مستسلماً لتفكير طويل ، رأسه بين يديه كأن كابوساً يرزح على اكتافه .

كان طويل القامة اسمر اللون قوي ملامح الوجه ، لحيته تصل الى صدره وخطها الشيب.

وبقي هذا الرجل على هذه الحالة حتى اخرجه من صمته وصول اربعة فرسان دلّت ملامحهم على انهم من اشراف القوط .

فحياهم الفارس بالترحاب .

– استعد ايها القند يوليان . دقّت ساعة الانتقام الرهيب ، الكاهن الاكبر صموئيل يصل بعد قليل وبمساعدته سنحاول ادراك المنى . في القلعة رسولان من قبل موسى بن نصير حاكم المغرب .

وقطع القند يوليان الصمت الذي خيّم على الجميع وقال :

– كلكم يعلم نبل محتدي ، اجدادي ضاهوا اجدادكم نبلاً وانتم اولاد الملوك .

وكان الاربعة الذين وجّه اليهم الكلام دون يوليان هم: القند «البيندو» والقند «اسموندو» وابني غيطشة ، «ابين» و«سيسبوتو».

فأجابوه ، لا احد ينكر عليك ذلك .

– لي ابنة وحيدة خسرتها ، الاهانة التي لحقتني لا توازيها اهانة .

ودخل عليهم في تلك اللحظة بيلايو فعانقه .

وكان الملك غيطشة Witaza قد قتل فيلا والد بيلايو بضربة عصا على رأسه وانتقلت العداوة من الآباء الى الاولاد . فقال له القند البيندو : ومن اطلعك على مجلسنا ؟

– صموئيل اليهودي وعن قريب سيلحق بنا .

وفتح الباب وأطلّ شيخ هرم دلّ لباسه على انه من اليهود . كان طبيباً ، لان الطب في ذلك الحين كان وقفاً على اليهود .

واقترب من القند يوليان وقال له بصوت منخفض: لقد وقع ما كنا نخشاه. ابنتك حبلى . ولو سقط في ذلك الوقت صاعقة قرب اقدام يوليان لما هزته كما هزه هذا النبأ القاصم الظهر . ولبث برهة صامتاً مذهولاً .

– ابنتي ، جئني بها في الحال .

وخرس الجميع من هول المشهد واستولى على مجلسهم صمت عميق بعد خروج صموئيل .

ومثلت فلورندا شاحبة الوجـــه حزينة ، غير ان حزنها لم يفقدها روعتها وسحرها .

واشار عليها والدها بالجلوس .

وفجأةً هتفت المسكينة صوتاً كان على وشك ان يتعالى من حنجرتها عندما ابصرت حبيبها بيلايو .

وتأثر هذا لحالها فتأملها بمزيد من الحنان والاحترام والرأفة .

ورفع يوليان رأسه نحو ابنته قائلاً

لا تيأسي يا ابنتي فهولاء السادة هم اشداء وخيرون ويبكون مثلك المصيبة التي ترسو على كواهلنا .

وتوجه اليهم بالكلام قائلاً : لا تذهلكم هذه الجريمة . الظالم الذي استعبد اسبانيا جمعاء قادر على قهر فتاة شريفة .

فهتف بيلايو : الانتقام ! الانتقام !

فردد الجميع : الانتقام .

فأخذ بوليان منديله وقال : لن يرى وجهك نور الشمس حتى تغتسل لطخة عارك بدم الظالم . ثم غطى وجه ابنته بالمنديل وهدر مثل الرعد صارخاً : ملعون الهواء الذي تستنشقينه وملعونة الصورة البشرية التي تتطلعين بها برضى وانت في عارك . اجهشي بالبكاء ولتحل عليك اللعنة حتى تخرج روح الظالم من جسده في العذاب المبرح ولتبقَ جثته بدون دفن فريسة للطيور الكوامر .

وعمّ صمت كأنه صمت القبور .

— ايها الاب الظالم الا تضطرب نفسك من قذف ابنتك البريئة بهذه اللعنة الرهيبة ؟

— صدقت يا بيلايو . ولكن لن اشفق عليها حتى اكون قد ارويت ظمأ انتقامي من دم الدنيق . ما بال الاصفرار يعلو وجوهكم ؟ أتشكون في تنفيذ وعيدي وتهديدي ؟ سترون .

• • •

٤

المؤامرة

والتأم مجلس القوم من قوط ويهود ومسلمين :

القند يوليان، رسل موسى بن نصير ، اولاد غيطشة، صموئيل الحاخام اليهودي وغيرهم .

وسأل القند يوليان :

— وما الغاية من حضور هؤلاء العربان بيننا ؟

— جاؤوا لنقدم لهم عروضنا .

— وما كانت هذه العروض ؟

— ان يرسلوا لنا جيشاً قوياً كثير العدد لنخلع لذريق .

— كنت اعتقد ان اقتراحاتنا تتوقف عند طلب تزويدنا بالمال والسلاح دون الجنود . الا نكفي نحن لخلع لذريق ؟ ان ما تسمّيهم اصدقاءنا قد يتحولون فيما بعد الى اسيادنا .

وسأل الحاخام صموئيل :

— وماذا يطلبون لقاء هذه المساعدة ؟

— ان نتنازل لهم عن موريتانيا ومنطقة طنجة .

— غضب الله . هؤلاء العربان همهم حب السيطرة . انا اعلم بهم منكم انهم اشداء . فقد عشت بينهم زمناً طويلاً . صدّقوا قولي ان هذا التدخل سيكون له عواقب وخيمة على بلادنا .

وخشي الحاضرون من كلمات القند يوليان . فقال ركيلا Requila : ولكن بدون عون هؤلاء الافريقيين من المستحيل انجاز مشاريعنا .

وقطع عليهم الحديث وصول متآمرين جدد بينهم المطران اوباس .

ودخل رجل طويل القامة شاحب الوجه يلبس زي الاكليروس . انه المطران اوباس اسقف اشبيلية الابن غير الشرعي للملك غيطشة وبالتالي شقيق « أبّا » و« سيسبوتو » Sisebuto .

— ما ايمن حضوركم ، لقد جئتم في حينكم فنحن نبحث في امور خطيرة .

وبعد ان لفظ ركيلا هذه الكلمات ، جلس المطران حول الطاولة .

ويدأ يوليان الحديث .

ايها القوط الاشراف ، لا حاجة الى التذكير بالعار الذي يلطخ اسمي . ولكن يجب ان تتذكروا اني انا ساعدت لذريق للوصول الى العرش . وانتم ايضاً حاربتم مع الظالم وماذا كانت المكافأة ؟ اختلس اموال البعض واملاكهم ونفى البعض الآخر وعامل الجميع بالقسوة والاحتقار المهين . فالبطل الريكو مضطهد والشريف غيطشة فقد عرشه وابن فيبلا البطل بيلايو شريد ومهان . سلاسل ودم واعمال عنف واضطهادات . تلك هي المكافأة التي يقدمها لذريق للمخلصين له . نحن سعداء لو لم نلاق سوى السلب والنفي والسجن والانتقام . على الاقل تلك ظلامات يمكن احتمالها ، ولكن تلطيخ شرفنا بالعار ، معاملة بناتنا ، لا ، لا وألف لا ، خلعه من العرش وقتله لا يكون انتقاماً بل عدلاً .

فصرخ الجميع فليمت الظالم .

فقال القند ركيلا : وما هي الوسائل لخلع لذريق ؟

فأجاب احدهم : انا اقدم مائة رمح . وقال آخر : يمكن الاعتماد على عشرة آلاف راجل والف فارس .

فقال اولبندو Olipando ولكن لذريق اقوى منّا بكثير . وقال يوليان : يمكن الاعتماد ايضاً على حلفائنا اليهود الخاضعين لصموئيل وهم يعدون بالآلاف .

وكان المطران اوباس صامتاً ، فلما سمعهم جميعاً قال : لا نستطيع خلع لذريق بدون مساعدة خليفة الشام الوليد بن عبد الملك .

وقال علقمة احد العربان الحاضرين : والله العظيم لقد نطق هذا الكاهـــن بالصواب .

و اكمل المطران اوباس كلامه : قوانا الهزيلة لا تصمد امام جند الملك لذريق البالغ عدده مائة الف محارب . ان لذريق واثق من نفسه فعمد الى معاقرة الخمرة وحياة اللهو والطرب ومعاشرة النساء . وفي ساحة الوغى بطل شديد المراس وجبار ومتكبر .

— مساعدة الخليفة مفيدة لنا ولكن لا اعتقدها كافية فعلينا باتخاذ بعض التدابير .

ان شقيقي أبّا و سيسبرتو سجنا بأمر من الملك .

فانبرى يوليان قائلاً : وما هي هذه التدابير ؟

— لا شك ان لذريق عندما يدرك الخطر المداهم يحاول كسب اصدقاء وارضاء متذمرين ، ويسعى الينا لمراضاتنا والذود معاً عن الوطن وعند ذلك يظهر شقيقاي الرضى بالظاهر فيوكل اليهما قيادة بعض الفيالق في جيشه. واذا انضم الينا طارق وموسى بن نصير نكون قد ادركنا المأرب .

فاذا تسلّم شقيقاي مثلاً قيادة الميمنة والميسرة حيث ينضم اليها عدد كبير من اليهود ، واذا جاء يوم القتال ينضمون الى الاعداء فيبلغ هؤلاء النصر المبين ويستولي الرعب والفوضى على جيش لذريق فيخسر عرشه وربما ايضاً حياته .

وران صمت طويل على المكان .

فانبرى الاسقف اوباس بلهجة ظافرة قائلاً : ما رأيكم في الخطة ؟

— انها خيانة قبيحة . لا نرضاها على الاطلاق . وكان المتكلم فتى شاحب اللون حزين النظرات ، لزم الصمت طوال الاجتماع ؛ انه بيلايو .

فأجاب الابن الاصغر سيسبوتو بن غيطشة : أجل انها خيانة لا اقدم عليها ، وشاركهما دون يوليان وكان الاسقف اوباس اكبر منه سناً .

وقال دون يوليان : اتعرفون مطالب العرب ؟ يريدون طنجة .

— انه شيء طبيعي . على حد قول الاسقف اوباس .

ـ ولكن فيما بعد يحاولون استعباد أمتنا .

ـ نقيم معهم اتفاقاً .

ـ ينقضون الاتفاق .

فقال المطران اوباس : قل لي بحقك ايها القند يوليان بصراحة ، هل نحن قادرون على الظفر بدون مساعدة العرب ؟

فأقرّ القند بالحقيقة الجارحة وخفض رأسه وانطلقت زفرة من حنجرته .

وتبادل صموئيل اليهودي والمطران اوباس نظرة ذات مغزى وابتسما ابتسامة الظفر .

وقال علقمة : صدقوا هذا الكاهن . وأشار الى اوباس . ان مساعدتنا لا غنى عنها لكسب قضيتكم .

وصرخ بيلايو : لا استل سيفي للمحاربة الى جانب اعدائنا . وجاراه سيسبوتو والقند يوليان .

وفجأةً فتح الباب وأطلّ الحارس يقول : وصل رجل منهوك القوى يطلب الدخول فمنعته .

ـ اتركه يدخل .

وكان الداخل خادم القند يوليان فبادره : ما دهاك ؟ لِمَ البكاء ؟ عجّل بالايضاح .

ـ سيدي لقد خطفوا فلورندا الى مكان مجهول .

ـ ان يد الملك وراء هذا العمل . لم يبقَ امامنا الا الانتقام .

وهتف بيلايو : الانتقام الانتقام !

والتفت القند يوليان نحو المتآمرين وقال : اتكلوا عليّ في ما تريدون : الموت والحرب والخيانة والدماء . كلها لا تكفي لارواء ظمأي من الانتقام .

وقال بيلايو : اننا مسيّرون ويد القضاء تعبث فينا .

• • •

٥

دولة القوط منقسمة على ذاتها . فريق منهم راغب في طلب مساعدة جيرانهم العرب على الفريق الآخر .

وابدى الرسل العرب رغبتهم على ان يجتمع المتآمرون في شريش .

وانتقل دون يوليان وبيلايو الى قلعة القند ركيلا حيث يجتمع المتآمرون .

امّا الحاخام صموئيل فظلّ مرافقاً لأشراف القوط الساعين للإطاحة بلذريق الذي اعتلى العرش اثر معركة طاحنة مع قوات غيطشة ، واشيع ان غيطشة ذاته قتل . ثم تأكدت الاشاعات عن موته بفضل سجان اسمه بنيامين وطاه اسمه يعقوب فقد اتفقا مع لذريق على تسميم الملك المخلوع . ولا مندوحة عن القول ان احد اولاد غيطشة كان السبب في مقتل ابيه لكي يضع التاج على رأسه ، غير ان السماء افسدت مخططاته . وهذا الولد هو المطران اوباس . فقد اتكل على لذريق لتنفيذ غرضه فدله على عورات جيش ابيه . وبينما كان يبيع والده على هذا الشكل دخل رجل على خيمة لذريق ليقتله ولم يفلح فأقرّ باسم محرّضه على القتل الا وهو المطران اوباس . واختفى بعد انكشاف امره الذي كان يأمل من مقتل ابيه ومقتل لذريق ان يخلو له الجوّ ويتبوّأ العرش . لان اولاد غيطشة الشرعيين لم يدركوا سن البلوغ .

* * *

على بعد اربعة اميال من طليطلة ينتصب على ضفاف التاجه قصر منيف يرتدّ عنه الطرف وهو كليل . انه مزيج من قصر وقلعة . كذا تبنى المعابد والقصور ، حتى البيوت الوضيعة في القرون الوسطى . ضمّ هذا القصر فلورندا وسميرة . فرشته الرياش وزيّنته الحدائق العابقة منها الروائح العطرية . هنا تستريح العين على خرير المياه تندك في البرك معجلة .

وفلورندا حملتها الذكرى الى براءة الطفولة والى احلام فتوتها الى ابيها المثلوم العرض ، الى حبيبها المستسلم لليأس المرير ، الى ذاتها الاسيرة في قصر يرفل عليه الجاه والعظمة ، وحيدة ليس لها من ينقذها من سيطرة هذا الظالم الذي استغلّ ضعفها وحاول ان ينتزع منها حباً قد اودعته مخلوقاً جديراً به ، حبيبها بيلايو . وقابلت بين ايام حبها الجميلة وطهرها وسعادتها وبين شقائها الحاضر ورفعت نظرها الى السماء شاكية ضارعة .

وسدرت هكذا في عزلتها غارقة في تأملاتها .

وكان نصف الليل وهبّت ريح شمالية في الابراج خلقت ضجيجاً عكّر صفاء الليل .

والقمر مثل جثة ملقاة في الفضاء الرحيب يسير الهوينا مغلفاً بغمامة شاحبة تدفعها العاصفة على غير هدى . ظلام ووحدة ورهبة .

وخرج ثلاثة رجال من الغابة وتوجهوا نحو باب الحديقة وارتفعت انظارهم نحو السماء وانطلقت من حناجرهم ادعية توسل ارتفعت نحو عرش الله .

وقال احدهم : دقت الساعة الحاسمة ايها العزيز بيلايو ، السماء تآمرت معنا لتنفيذ مهمتنا .

فقال بيلايو : الطهر والعدالة يساعدان العادل والبريء ؛ في هذه الليلة إمّا تصبح فلورندا حرة وإمّا نموت معاً .

فقال يوليان : لا شك اننا غالبون يا ولدي . ان عارنا يعطينا قوة وبأساً ، والليل يغلفنا بظلامه والله يهبنا عونه ، وسمع صوت هاتف : ابي ابي .

— ابنتي شقيقة روحي .

يوليان انه اسعد خلق الله ، وبيلايو عاوده الأمل وتصور الحياة والحب والسعادة متجسمة في فلورندا حبيبته ، والمستقبل ما زال مشرقاً وان غلّفته غيوم سوداء . وحدق بفاتنة قلبه فلورندا .

وفجأةً سمعت اصوات : لصوص جبناء خونة . وتوقف الكلام وحلّ محله صليل السيوف المنذر بنشوب معركة دامية .

• • •

٦

ودخل رئيس اساقفة طليطلة على الملك لذريق فوجده في حالة هذيان ، يردد اسماء غيطشة ، سارة ، ارفيجيو زوجته ، بيلايو . لا تعذبيني ايتها الاشباح الجهنمية ، دعيني بحق السماء ، وانتم المحاربون الخونة الذين يهددون عرشي . ماذا جنيت عليكم ؟ اما يضمنا وطن واحد ؟ انا ما زلت ملكاً ؟ انا اعرف كيف اعاقب جسارتكم وتطاولكم على العرش .

— وخشي المطران على الملك الرازح تحت كابوس يشد عليه توبيخ ضميره ينحر قلبه بصورة ضحاياه .

وبادره الملك قائلاً : هـــل سمعتم بتلك الاسطورة او النبؤة السارية بين الملك الذي يدنّس القصر المسحور يخسر عرشه وحياته ؟

— انها مشهورة .

— ولم تفكّروا بأهميتها وتأثيرها السّيء .

اني باستسلامي الى وظيفة كهنوتي لم اجد الوقت للتفكير بهذه النبؤة الرهيبة .

— ديانتنا معرضة للاذلال اذا انتصر المسلمون .

— انتصار قوات المسلمين سيكون انتصاراً للدين المقدس ، والصليب يخرج ظافراً من الدهاليز في روما رغم انف ديوكلسيانوس لان دم الشهداء بذار . انا اقول لك ايها الملك بقدر ما يتعذب المسيحيون بقدر ما يستقيم ايمانهم بالمسيح.

— بمَ تشيرون عليّ ؟

— بالتقشف والتوبة .

فتنهد الملك وقال : خذ واقرأ :

وقدم له رسالة فتناولها الاسقف واذا فيها :

سيدي العظيم : عرفت مؤخراً من صموئيل ان اليهود هم اقل الناس رغبة في القضاء على مملكة القوط ، ولكن لا اثبته . فقد يكون . ولكن هم الذين

دعوا العدو الى بلادنا . فاذا صحّت الانباء فانه منذ يومين نزل قرب المضيق ما يزيد عن اثنتي عشر الف رجل يخربون ويقتلون ويدمرون ويسلبون المواشي ، ويسبون النساء والاطفال القريبين من الشواطئ . نحن ما زلنا في شريش حسب اشارتكم ونحن دائماً بانتظار الاوامر . ولقد دقت الساعة لكي يخرج الفرسان الى ملاقاة العدو . هذا كل ما استطيع ان اقوله لكم .

خادمكم المخلص

دانيال

فخيّم على الجميع صمت مهيب وغطت وجوههم خضرة الموت والأسقف اشتعلت فيه حمية الدين فقال :

ـ كيف تنامون على شفير الهاوية ؟

ـ ما هذه القحة ؟ اعلم انك تخاطب ملكك وسيدك .

ـ انا امثّل هنا سيداً اقدر منك واتحدث الى رجل مثلي سيأكله الدود . أتريد ان اوافق عـلى ما ارتكبته من جرائم وعلى الجمود الذي انت سادر فيه في اشد الاوقات حرجاً وخطراً على الدولة . قل لي ايها الملك بحقك هل دعوتي لأصدقك الكلام ام لأملقك ؟

ـ لقد طفح الكيل .

ـ هذا قليل من كثير كان عليّ ان اقوله لكم .

ـ اليك عني .

ـ استودعك الله ايها الملك ولكن انذرك انك عن قريب ستراودك الاشباح من جديد ولكن بعد فوات الاوان وستطلب حضوري .

وخرج الاسقف الجليل تاركاً الملك لذريق في اضطراب وتأثر شديدين . ودعا اليه قائد جيوشه شانجه قائلاً :

ـ لا بدّ من رحيلك في الحال لمحاربة الاعداء لان الاسقف على صواب .

ـ سمعاً وطاعةً مولاي !

وبعـد ساعتين كان النفير وجلجلة السلاح وصراخ الجنود تعلن ان جيشاً مستعد للانطلاق من مدينة طليطلة .

* * *

٧

– ما وراءك يا دانيال ؟

– اخبار سوء يا سيدتي الملكة .

– ماذا جرى ؟ أفصح .

– العرب يقتربون من شريش وانت تعلمين ضراوتهم ، انهم لا يبقون على شيء .

– فلنهرب بسرعة .

– هذا ما فكرت به ولكن الا تعلمين اننا هنا بأمر من زوجك الملك وبدون موافقته لا سبيل الى مغادرة هذا الحصن .

– انا آمرك يا دانيال بمغادرة هذا المكان في الحال وفي هذا الليل ، غداً قد يكون سبق السيف العذل .

ولمعت اسارير اليهودي وتصنّع التصبّر .

– فلنهرب وان كان هذا الهرب يوقعني في غضب الملك .

– الشكر لك يا دانيال ؛ ولكن هل درى زوجي بدخول العرب الى بلاده ؟

– اجل سيدتي .

– والى اين نلتجئ ؟

– الى قلعة قريبة من هنا اسمها « الوليمة الدامية » .

– ولماذا أطلق عليها هذا الاسم ؟

– يحكى ان احد اسياد هذه القلعة اكتشف اثناء وليمة على شرف احد اصدقائه ، ان امرأته تخونه . اعتذرت هذه المرأة عن حضور الوليمة وخرجت ،

ودنتْ من الملك واخذتْ بيده تجرّه نحو الباب .

وكان الطريق صامتاً جامداً مقطّب الجبين لا يدري كيف يتصرف تجاه هذا الموقف الجديد عليه .

— ماذا بك ؟ الا تريد اللحاق بي لاني بحثتُ لك بسري ، لان لي ولداً . لا تحتقرني ، ولدي مات .

وقهقهت قهقهة جنونية . انها في حالة هذيان مخيفة .

وعند دخول الظلام ، كان رجلان يتحادثان هما الملك لذريق وكاتم سره غوديلا . وتكلم الملك :

— عليكم بالرجيل في نصف الليل اذا امكن ، ولا تنفصلوا عنها . واتركوها في منزل عمي القند انيق في شريش واسهروا على الطفل ، واذا الحّت في طلب رؤيته سلموه لها .

فبدرتْ من غوديلا اشارة الطاعة ، ثم تابع الملك قوله :

— وانا عن قريب سأنضمّ اليكم لأن الحرب ستعمّ البلاد ، واني للمقتن هؤلاء الكفرة درساً لن ينسوه مدى الحياة .

— يظهر ان طريف قد عاد ادراجه الى افريقيا .

— علمت من الجواسيس ان القند يوليان على اتفاق مع القائد الاربي ، وقد قفلا راجعين معاً الى طنجة .

— يا له من خائن .

— اجل يخون وطنه ويخون ملكه ، انّ له شركاء في الخيانة .

— بيلاي ؟

— لا اعتقد انه يبلغ درجة الخيانة .

— اذن من ؟ اليهود ؟

— اجل هم اتفقوا مع العرب وكاهنهم الاكبر صموئيل خزاه الله ، له الباع الطويل في طلب نصرة العرب .

— هل هذا ممكن ؟

— كتب اليّ داتيال يقول انه ضبط رسالة موجهة من الكاهن الاكبر الى اليهود يحثّهم فيها على خلع نير القوط .

واصل الاثنان سيرهما يتحادثان ، والملك يعطي غوديلا الاوامر ، بينما قلب يكاد يتحطم بالحرقة . الليل ارخى سدوله . امرأة فتية بارعة الجمال علاها الشحوب وشعرها الاسود المبعثر حول وجهها وخديها ، يدها ضارعة نحو تمثال العذراء مريم والزفرات تنطلق من حنجرتها حارة .

والدي حبيبي ، ايتها العذراء القديسة مريم ، يا نجمة البحر ويا كوكب السماء ويا زهرة الارض و ملوى الحنائى ، بحق ابنك الذي مات على الصليب ، سكّني اني ! انت ايتها العذراء أم الحزانى تدركين مرارة الحزن ، حزن أم اضاعت طفلها . ولدي حيّ . تضرعي لكي يردوه اليّ لأقبّله واضمه الى صدري وأرضعه من ثديي . الا ترأفين بي ؟ الست أماً ؟ لا تهملني ايتها العذراء القديسة . لقد ذبحوا ولدي مني ، فلتحلّ عليّ النقمة والعقاب ولكن ردّي اليّ ولدي .

وارتمتْ الارض خاشعة امام العذراء .

ووقف عليها الملك وغوديلا ، فصرخت في وجههما : اين ولدي ؟ ردّ اليّ ولدي .

— فأجابها الملك : سترينه عن قريب ، اتبعيني .

فلاحت بارقة امل على وجه المسكينة ولم تتردّد من اللحاق بهما دون مقاومة.

فقادها « غوديلا » الى « برج السلاسل » حيث القند اينيغا وابنته « غوديوسا » التي كان يطمع « غوديلا » بيدها . وأوصى بفاورندا خيراً ، عملاً بارادة الملك لذريق .

فاقتربت منها « غوديوسا » مستفسرة :

— ما بك يا سيدتي فالشحوب يعلو وجهك ؟

— من انت ايتها الفتاة الساحرة التي تعرف ان تلفظ كلمات حلوة تبعث السلوى في القلوب الكسيرة ؟ فاذا كان قلبك يرشح بالحنان كما يبدو لي ، اخبريني بمقام ابن ولدي ؟

وتبعها زوجها واكتشفها بين احضان عشيقها فقتلها في الحال . وانقلبت الافراح اتراحاً واختفى الزوج . فسمّيت القلعة « الوليمة الدامية » .

ـ لا نجد ملجأ افضل منها .

وبدا على الملكة الامتعاض والرفض .

ـ سيدتي ، الخطر مداهم وعلينا بالاسراع .

ـ اذا كان الامر كذلك فاني اعد العدة للرحيل في هذا المساء .

وبينما هما في الحديث سمعت ضجة ، فارتعشت الملكة ، فهدّأ من روعها بقوله انه رسول من قبل زوجك الملك .

ودفع الرسول رقاً ، وقرأه دانيال على ضوء سراج بصوت منخفض . ولما انتى على قراءته ارتسمت على وجهه علامات من الرعب والدهشة والحيرة والبهجة

ولف الرسالة من جديد ، وغادر الرسول المكان . وخلا الطبيب اليهودي بنفسه قائلاً : ايها الملك المشؤوم ، ألقيت زمامك بيدي ، لقد عبدت الطريق امامي لادراك مرامي . بحثت عن السعادة لحظة وانت وضعتها بين يدي ما دمت حياً .

وارتسمت على شفتيه ابتسامة جهنمية ، وخاطب نفسه قائلاً : « تحلّ بالشجاعة يا دانيال . الملكة التي تعبدها اصبحت ملكاً لك . لماذا اولد جميلا وشجاعاً مثل المحاربين القوط ؟ لماذا لم اولد في حضن الديانة المسيحية المسيطرة في هذا البلد الملعون . ولكن انا اليهودي المسكين حكم عليّ ان اعيش في الخفاء مهملاً متروكاً . انا الذي كنت احلم بالعيش الرغيد الى جانب امرأة واولاد . اجل ان الطبيعة حرمتني ما حللته لوحوش الغاب والقفر . لماذا لم اجد رجلاً استطيع ان اناديه ابي . لقد قذفت كلعنة على الارض . وانحدرت دمعتان كبيرتان على خديه .

وفجأةً نهض من مقعده وعلا صوته بالصراخ : اسممها ؟ انا اسممها ؟ على الاطلاق ايها الملك الملعون . انا اعلم كيف اخالف اوامرك . انا اعلم كيف استثمر هذه الرسالة التي تحمل في طياتها الموت .

وسارا يلفهما الليل الى قلعة « الوليمة الدامية » القريبة من شريش الكائنة على قمة جبل .

ورفعت الملكة رأسها الى السماء ضارعة : ربي والهي ! ما اشقى حياتي ! تحملت مصيبتي بصبر . ربي خذ لي بثأري ممن عاملني بظلم وجور . ماذا جنيت ؟ الم اكن المرأة المخلصة لزوجها ؟ الم اصبر على الغيرة التي كانت تنهش صدري ؟ وما كان جزاء تواضعي ؟ الطلاق والسجن . اجل السجن في هذا المكان المخيف .

وانطلقت بالبكاء بينما اليهودي يحاول افتراسها بنظراته المتوقدة .

— اذا عملت جلالتك بنصيحي تنالين حريتك في هذه الليلة .

فرنت اليه الملكة بدهشة يشعّ فيها البهجة .

— اجل لا ريب في الامر . بيدك الخلاص من هذا السجن ومن الموت لان الملك لا يقرّ له قرار حتى يراك ميتة .

— الظالم . وما عليّ ان اصنع .

— تسكنين في مكان لا يدري بك احد وأهبك بعض المال ، لاني غني يا سيدتي !

— وانت ؟

— ارافقك اذا سمحت حيث تكونين حتى في اطراف المعمور .

— اشكر لك عطفك ، لقد اخلصت لي في زوال نعمتي ، انت المسؤول عني امام زوجي ، تحاول اطلاق سراحي ، عرفاني لجميلك هذا ، كل ما استطيع اهبك اياه في هذه الدقيقة ، انا الملكة المسكينة المخلوعة عن عرشها ، المهملة ...

— آه سيدتي ! نظرة من عينيك وبسمة من شفتيك وكلمة من لسانك تجعلني اسعد الناس انا اليهودي الشقي .

وارتمى على قدميها وطبع قبلة نارية على يدها . لا ابالي بالموت اذا استطعت ان اضم اليّ هذا الصدر النابض بالحياة ولو قطعت بعده ارباً ارباً .

واندفع اليهودي نحو الملكة فاتحاً ذراعيه .

فصرخت فيه اجيلونا : يا لك من مجنون ماذا تصنع ؟ الى الوراء .

— اريد ان استنشق السعادة من فمك القاطر حباً .

ـ بحق السماء يا دانيال لقد فقدت صوابك ؟

ـ اجل ، لقد فقدت صوابي ، لقد جننت غير اني اريد ان اتذوّق السعادة القصوى التي القتها الصدف في يدي . اريد انقاذك ولو كلفني حياتي . سأنقذك واقسم بإله اسرائيل اني ارغب في امتلاك حبك وسأمتلكه .

ـ ايها الشقي ! تحسبني امرأة ضعيفة وتنتهزها فرصة لأرواء غليلك مني ؟ انسيت اني رغم كل هذه الامور ما زلت الملكة ؟ وقادرة على اطلاع الملك على وقاحتك ؟ اخرج حالاً والا ناديت عبدي لكي يطردك من حضرتي .

ـ عبثاً تحاولين يا سيدتي ، عبيدك لا يهرعون لندائك .

فانطلقت اجيالونا نحو الباب ونادت ، برمند ، ولم يجبها احد . ضاع نداؤها ولم تجد امامها سوى اشباح الليل في ذلك القصر الرهيب ، وصفير الريح في ذلك الصمت المظلم .

فاقترب منها دانيال وعيناه تقذفان الحمم ويلمع فيها بريق الشهوة والاجرام .

ـ لا تجهدي نفسك بالمناداة فلا ثالث بيننا . اني اعبدك بقدر ما يكرهك الملك الذي لا يتمنى سوى موتك . لن تموتي ما دام في عرق ينبض . كرّسي هذه الحياة التي انقذها من الموت للسعادة ، للحب ، للذات . اسكري عشيقك بفواتنك التي انتزعها من قبضة الموت و يداك العاجيتان وخصلات شعرك الفاحم تطوّق عبدك الى الابد .

ـ لم اكن اتوقع منك سماع هذه الكلمات . اذا كانت الملكة يا دانيال لا توحي اليك الاحترام ، فاشفق على شقائها وآلامها .

ـ لم يبقَ من تاجك سوى الاسم . لم يبقَ لك سوى جمال وجهك الساحر . ان فتنتك تجعلني اتحدى الوجود بكامله ولأجلها اسلّم رأسي للجلاد بدود تردد وبدون وجل .

ـ رباه ، من ينقذني من شبقه ؟

ـ خدمة كبرى تستحق مكافأة كبرى . الحياة هي اعزّ شيء على الانسان

واني معرضها بطيبة خاطر للهلاك لأنقذك من الأسر والموت ، ولكن قبل الموت يجب ان يستريح رأسي بين نهديك .

وشدّ بها اليه وهي تحاول الافلات وهددته قائلة : قبل ان تنال مني بغيتك القي بنفسي في هذه المياه المحيطة بنا .

فارتمى دانيال على اقدام اجيلونا طالباً العفو . لا أحاول سيدتي الانكار ان صدري يضطرم بجوى مقيم ولا اقوى على اخفائه ، وقد خانني في ساعة من الجنون . الويل لي ، استحق الاحتقار انا اليهودي الحقير والعبد الذليل ! اليس من سخرية القدر يا سيدتي ان يكون لرجل مثلي قلب يحب ؟ اليس من الجريمة ان يتجاسر يهودي مثلي على الشغف حتى الجنون بامرأة من صنع الالهة ؟ وجدتْ ذاتها وحيدة لا نصير لها ولا منقذ . واليهودي المسكين هو الوحيد الذي يسهر عليها ويعبدها وهو مستعد لان يضحي بآخر نقطة من دمه لكي يتجنب الا تذرّف دمعة واحدة من عينيها الجميلتين . ونضج الاخلاص في كلمات دانيال ، ولم ترَ اجيلونا الا الصفح عن جسارته .

• • •

٨

موسى ويوليان

ـ مولاي ، على الباب رسول يبغي مقابلتكم ، يقول انه قادم من قبل القند يوليان .

ودهش موسى بن نصير لمّا سمع الحاجب يذكر اسم يوليان ، عدو العرب الاكبر . فقد قاومهم ورفض تسليم سبتة لهم .

وخاطب موسى بن نصير جلساءه قائلاً : وما حاجة القند يوليان ؟ هل جاء يطلب هدنة ، ام يرغب في عقد صلح او ينوي تسليم القاعدة البحرية سبتة ؟

وقال للحاجب : دعه يدخل .

ودخل رجل مهيب الطلعة ، لوّحته شمس افريقية وقد تلثم كأنه لا يريد ان يعرف الناس من هو ؛ وسلّم بأدب واحترام وطلب الخلوة بموسى بن نصير لانه سيكلمه بأمور خطيرة للغاية .

فأمر موسى بان يغادر الحاضرون القاعة ، ولم يبقَ فيها سواهما ، كشف القند يوليان النقاب عن وجهه وخاطب موسى قائلاً :

ـ انا هو القند يوليان ، جئت بذاتي لمكاشفتك بقضايا هامة .

فازدادت دهشة موسى وخالجه الشك وداخله الريب في امر هذه الزيارة وهذه الشؤون الخطيرة التي يدعي القند انه سيكلمه بها ، فهل هناك من حيلة يدبرها القند للإيقاع بالعرب والقضاء عليهم ؟

ـ وما هي هذه الامور الخطيرة التي تريد البحث بها ؟

ـ القاعدة البحرية سبتة ، لقد عجزتم انتم العرب على فتحها ، وقد طال

حصاركم لها ولم تنالوا منها اربكم ، بينما امتدت سيطرتكم على جميع انحاء شمالي افريقية . فهذه سبتة جئت الآن لأضعها بين ايديكم سالمة واضع ذاتي تحت تصرفكم مع رجالي ايضاً .

فازدادت الحيرة عند موسى بن نصير وازداد ارتيابه .

ـ وما الداعي الى سلوك هذا المسلك الخطير ؟ وما رأي سيدك الملك لذريق ؟ هل هو راضٍ عن هذا التصرف ؟ وكيف تمّ هذا الانقلاب والتحوّل من قبلك انت الذي دافعت عن المدينة دفاع المستميت والآن تريد تسليمها الينا لقمة سائغة ؟ اتظن ان صاحبك الملك لذريق الموجود في طليطلة يكون راضياً عن تصرفك هذا ؟

وصرخ القند يوليان : لعنة الله عليه ، وقبّح الله وجهه . اذا قدّر لي ان اذبحه بسيفي فلن اتردد برهة .

فتهللت اسارير موسى بن نصير لمّا سمع القند يوليان ينطاق بهذه التجاديف .

ـ هل يحق لي ان اسألك عن سبب هذا التحوّل المفاجئ من الاندفاع المميت في صيانة ممتلكات لذريق الى الرغبة اللجوج في تسليم هذه الممتلكات الى اعدائك بالأمس واليوم .

ـ انتم لستم اعداء او بالأحرى لم تعودوا اعداء . انكم تتحولون الى سيف النقمة وشرارة الغضب التي ستنقض على لذريق فتخفي ذكره وتستولي على مملكته بكاملها .

ـ ماذا بك ؟ منذ هنيهة كنت تتحدث عن تسليم سبتة والآن تريد القضاء على مملكة القوط واجتثاث دابرهم عن بكرة ابيهم ؟ فهل لي ان الحف عليك بالسؤال مرة اخرى : ما هو السبب الذي يحرّك على بغضهم هذا البغض كله ؟

ـ هل لي ان اجيب على هذا السؤال ؟ وهل تحتاج للاجابة عليك حتى تقرر رأيك ؟ او انت ما زلت في ريبة من امري ولا تزول عنك هذه الريبة الا بعد معرفة الاسباب الداعية لبغضي للذريق لانه كما تقولون في لغتكم : متى ظهر السبب بطل العجب .

ـ قد يكون في ذلك شيء من الواقع .

ـ كنت افضّل ان يظلّ سري مكتوماً لانه يتعلق بشرفي وعرضي وانتم معشر

العرب ، تحافظون على الشرف وتقدرون قيمة العرض ، وما دمت مصراً على معرفة تحوّلي فها اني مورده لك مع ان التفكير به يقضّ مضجعي ويحرمني لذة العيش .

والياك قصّي :

ـ لي ابنة كساها الله جمالاً ما بعده من جمال ، دفعتني العادة الجارية على ان ارسلها الى بلاط الملك لتتأدب بأدبهم ، لعنة الله على ادبهم . وشاهدها لذريق ووقعت في عينيه فراودها عن نفسها وامتنعت عنه فكان فيها ذئباً خاطفاً .

واخبرتني قصتها ، وحاولت تكذيبها للوهلة الأولى ، ولكن ما تجهر به لا يقبل الشك ، ويا ليته كان كذباً .

وسقط في يدي ، وماذا انا صانع ويدي قصيرة عن ان تصل الى لذريق .

وكتمت سري وكظمت غيظي وعضضت جرحي مثل الحية التي تعض جرحها حتى يشفى ولكن جرحي لا شفاء له .

وفكرت بالانتقام من هذا الطاغية الهاتك اعراض العذارى ، واستعرضت في مخيلتي القضاة الذين يمكنهم ان يأخذوا لي حقي من هذا الرجل ، ولم اجد احداً اقوى منه الا انتم او على الاقل تساوونه في القدرة والجبروت ، فجئت استعين بكم على قضاء مأربي وعلى الثأر لشرفي الملوّث بالاقذار .

واستعظمت الخيانة ولكنها ليست خيانة ، الظلم بالظلم والبادئ اظلم ، صنت له ارضه بتعريض حياتي للخطر والموت في كل لحظة ، وكافأني بهتك عرضي ، انها جريمة لا تضاهيها جريمة يعاقب مرتكبها بالقتل واجتثاث دابر شأفته .

والآن وقد سمعت قصّي فما رأيك ؟

فصمت موسى بن نصير واستسلم لتفكير عميق :

ـ ان ما تطلبه مني يحتاج الى درس وتمحيص ومشورة واخذ رأي .

ـ ألستَ صاحب الامر ، وبيدك الحل والربط ؟

ـ هناك من هو اعلى مني ، انه المقيم في دمشق فلا بدّ من مشورته .

ـ ليكون ذلك في اقرب فرصة ممكنة ، فلا اطيق النوم على الضيم ، وانا مستعد ان اضع جميع امكاناتي تحت تصرفكم حتى تضربوا الطاغية الضربة التي لا قيامة له بعدها ؛ لقد وعدته اني مرسل له صقوراً لم يشاهد مثلهم في حياته ؛ لان الشقي لمّا قصدت طليطلة بناء على دعوة ابنتي ، بطريقة خفية ، طلب اليّ ان ازوّده ببعض الصقور لكي يصطاد بها ، والصقور الذين وعدته بهم هم انتم العرب .

فسرّ موسى من حماس الرجل واندفاعه في نصرة العرب ، حباً لا بالعرب بل للقضاء على صاحبه في طليطلة .

وقال موسى بن نصير : الأفضل ان يظلّ هذا الحديث سراً بيننا لا يصل الى اذن شخص ثالث ، فمن صالح الجميع اي من صالحنا وصالحكم ان يظل سرنا مكتوماً اذا شئنا ان تنجح خطتنا ، لانه اذا وصلت هذه الاخبار الى اسماع لذريق فقد يأخذ اهبته ويرتّب اموره ويعد عدته فلا نستطيع حينئذٍ ان نفاجئه بالضربة القاضية التي لا تبقى ولا تذرّ .

وكان موسى رجلاً عاقلاً اعجبته الفكرة ، واستشار الخليفة فأشار عليه بامتحان قوة القوط وسبر غورهم .

٩

فلورندا ولذريق

عندما العذراء ترمي الثوب الابيض وتتشح بثوب الأمومة ، ثورة كاملة تدب في كيانها ، فتصبح الأم اكثر عطفاً وايناساً مع الجميع ، محبة بابنها .

مرّت بضعة شهور على حادثة فلورندا مع لذريق ، وهناك في مسكن غير بعيد عن طليطلة ، امرأتان قعدتا القرفصاء حول مهد من العاج .

وفي المهد يرقد طفل وديع ناعم الاظفار ، طاري العود ، شعره ذهبي ، عنقه ابيض . من المستحيل تصور مشهد اشد رقة وحناناً . والأم الشابة ترنو اليه بحنو لا مثيل له .

وقرع الباب فجأةً فاضطربت الفتاتان ، وبعد فترة انتظار توجهت احداهن وفتحته . وبرزت صورة عبد اسود ، تجاذب اطراف الحديث مع الخادمة سميرة . فسألتها فلورندا ، فأجابت ان الملك يريد ان يزورك . وتساءلت : وما الداعي لهذه الزيارة بعد انقطاعها اشهراً ؟

ودخل عليهما غوديلا بكل احترام :

— تكرمي بمرافقتي ؟

— الى اين ؟ ولماذا ؟

— الملك يريد الكلام معك .

— على الاطلاق ، اني ارفض مرافقتك ، وقل للملك اني رفضت القدوم اليه .

ـ وفي هذه الحال يأتي اليك ، وكان صوت الملك لذريق . فأطلقت فلورندا صرخة داوية من الرعب ، انها في حضرة الملك لذريق ، يتأملها مكتوف اليدين . فاستيقظ الطفل على الصراخ ، صراخ صوت امه وابتسم لها ، فأخذته بين ذراعيها وضمته الى صدرها كأنها تفتش عن ملجأ لها في ولدها كما لو كان هذا المخلوق الضعيف قادراً على الدفاع عنها .

وكان الملك يتأمل ذلك المشهد الصامت : حنان أم وبراءة طفل .

ـ اليكَ عني لقد لطخت جبيني بالعار ونحرت حبي على مذبح شهوتك ، وقد تكون اهرقتَ دم ابي وتجسر على المثول امامي ؟ اليكَ عني ايها القاسي القلب الحقير ، احترم بلوتي !

ـ تقولين اني قاسي القلب . ما ذنبي اذا كان جمالك اوحى اليَّ بحب جارف مثل شقائك ومثل جريمتي . الا يستحق حبي الغفران ؟ لقد قاومت طويلاً حتى عيل صبري ولم اعد اقوى على احتمال البعاد عنك ومشاهدة هذا الطفل الذي تضمينه الى ذراعيك. عمّديه وأعطيه اسم شند سفنتو اسم جدي ، ويملك بعدي على بلاد القوط . هو ولي العهد ، انه ابن الملك .

ثم غمر الطفل بقبلاته وابتسم الطفل للمعان ثياب ابيه البراقة ، ومدَّ يديه الى الحلى التي تزين الثوب .

وداخل الأم بعض السرور . انها لا تحب الملك ، وفي الوقت نفسه لا تكره رجلاً يقبل ابنه بحنان الوالد ويقدم له الغنى والجاه والتاج .

اريد الكلام معك بأمر خطير وعزيز على قلبي .

وعادت الثقة الى الفتاة حيال هذا التصرف غير المتوقع من الملك ، واقترب منها قائلاً : الشعور الذي ايقظه جمالك في نفسي يحملني على عدم مغادرة هذا المكان قبل ان تأتي مصالحة تشذب الاشواك العالقة بأزهار حبنا . رأيتك يا فلورندا واحببتك وانت تعلمين كم كلفني هذا الحب من آلام ومرارة . اليوم يبتهج قلبي لما اراك تضمّين ولدك الى صدرك ، فهذا الولد هو شعار الوحدة بيننا ، اتوسل اليك ضارعاً ، لا تخيبي املي .

الملك لذريق وفلورندا

فدهشت فلورندا عند سماعها هذا الكلام العذب اللين الرقيق .

– لا انكر عليك سيدي كلامك النبيل الذي ادخل العزاء الى قلبي الكسير . اصفح عنك رغم الشقاء الذي اوقعتني فيه والمرارة التي حملتها الى ابي وبيلايو المسكين . الفرق شاسع بين حبك الاثيم والاناني وحب بيلايو السامي الجليل . بيلايو يحب كملاك ، وانت تحب كانسان . بيلايو يعبد قلب فلورندا ، امّا انت فقد اشتهيت جمالها .

– أليس حبك هو الذي جرّني الى الاثم ؟ انا احبك وانت تحبين بيلايو وانا غيور . انت احتقرتيني وانا الملك القادر ، في يده الحل والربط وأمارس حقي . اعترف بذنبي ، واذا لم تغفري لي وجدت من يشفع بي عندك .

– ومن هو ؟

– هذا الطفل البريء .

واخذ الطفل بين ذراعيه وقال له : اطلب من املك ان تصفح عني ، وقد تعمل بسمتك ما لا تعمل دموع والدك يا ولدي .

وامام هذا التوسل وجدت فلورندا ذاتها مستعدة للصفح فقالت : قد غفرت لك ، وكن على ثقة ان ذكرك لن يكون بغيضاً على قلبي . وبما اني حرمت من اطيب آمالي واسعد تمنياتي ، فلم يبقَ امامي سوى الدير ، وكرهت الحياة ، واليوم اخشى الموت ، لا بحد ذاته ، بل خوفاً من تيتم ولدي ، فانه هو حبي ومستقبلي ووجودي . والآن اتركني وارسلني الى ابي ونعيش الثلاثة سعداء ولو في قفر .

وظلّ الملك صامتاً .

– اما فكرتَ بابقائي اسيرة مدى الحياة ؟

– اسيرة ، لا ، بل ملكة وابنك امير .

فدهشت فلورندا من سماعها هذه الكلمات .

ثم اجابت : وابي وبيلايو ؟ هل يعيشان ؟ ام ضحيت بهما انتقاماً وغيرة ؟

– لقد نجا والدك ، ونجا بيلايو .

– واين هما الآن ؟

– اجهل مكانهما ، آسف لعدم حضور والدك حفلة الزواج ، فيرضى شرفه وشرفك .

– والملكة ؟ لقد علمت انك طلّقتها هل هذا صحيح ؟

– اجل ، لأجلك ولأجل ولدك صنعت اكثر من الطلاق .

– وماذا ؟

– لقد شقيت بالقرب من امرأة عاقر ، فاضطررت على هجرها . ثم شعرت بأني والد وانا احبك حتى العبادة ، ورأيت ان تقاسميني العرش ، غير ان وجودها على قيد الحياة يحول دون امنيتي فعمدت الى الخلاص منها .

فاضطربت فلورندا .

– ما هذا الحب الملطخ بالدماء الزكية . وارتمت على كرسيها خائرة القوى وأغمي عليها ، وسقط الطفل من يديها على الرخام الابيض وصرخ صرخة قوية ، وسال الدم من جبهته .

فأخذه الملك بين يديه ، رصفّر بصفارة ذهبية معلقة بعنقه ، فهرع العبد الزنجي وغوديلا ، وفحصا الجرح فوجداه طفيفاً .

فأمرهما الملك بحمل الطفل والخروج به قبل ان تفيق فلورندا من غيبوبتها .

ولمّا عادت الأم المسكينة الى رشدها ولم تجد فلذة كبدها ، صرخت بصوت يفتت الاكباد .

– ولدي ، اين ولدي ؟

– سوف لن تبصري له وجهاً بعد اليوم .

وتطلّعت حولها وعلاها الاصفرار ، لقد شهدت اثر الدماء على الارض .

– بحقكم اخبروني ؛ هل مات ولدي ؟ هل مات ولدنا ؟

وارتمت على اقدام لذريق ضارعة مرتسمة على وجهها صورة الألم الناهش ، فأجاب الملك بجفاء :

– لم يمت .

وهمست الأم المسكينة نحو الباب ووجدته موصداً ، فراحت تلطم جبينها الجميل على الجدار البارد بيأس يفتت الصخر ، والتفتت نحو الملك متواضعة :

– اين ولدي ؟ اريد رؤيته ومعانقته ومداواة جرحه بشفتي ، ايها المولى سأكون مدى الحياة خادمة لك . اقبّل الارض التي تطأها قدماك ، اني اجوب اقاصي البلاد حافية اطلب الصدقة اذا كان هذا مشتهاك . ولكن رد لي ولدي وابارك لك واستطيع حتى ان احبك .

– اصحيح ما تقولين ؟ اذا عاهدتني على الحب ، تصبحين سعيدة وتنعمين برؤية ولدك .

– أجل ! أجل ! ولدي . والباقي لا يهمني . ولكن هذه الدماء .

– لا شيء يا فلورندا . لمّا اصبتِ بالاغماء سقط ولدك من يدك وجرحه طفيف .

– بحقك يا مولاي ، دعني اشاهد ولدي والاّ دعوت الموت ولعنتك الى الابد .

– ستريه سيدتي ، ولكن من يضمن لي حبك ؟

فلم تنطق فلورندا بكلمة وراحت تجول في الغرفة قلقة غاضبة ، والشرر يتطاير من عينيها . انها اشبه بنمرة محبوسة في قفص يضايقها الجوع .

بيلايو عفواً وصفحاً ، انا بريئة ونفسي طاهرة وانت موضوع حبي .

– فلورندا ، فلورندا ! بحقكِ لا تحرميني هذه السعادة التي انتظرها بالقرب منكِ .

– أجل احبكَ ايها الفارس البطل !

– ما اشد سعادتي ، تعالي يا فلورندا لنجلس على اجمل عرش على الارض .

– ما اشد سعادتي ، سأصبح ملكة ، والجميع يهتفون لي ، وسأستطيع الانتقام واسعد جميع من أحبهم . أجل اني اريد عرشاً يا حبيبي ، اريد ان اصير ملكة .

– اذن لا تحتقرينني ؟

– احتقرك ؟ ولماذا ؟ ألست اصدق المحبين ؟ الم تتألم بسببي ؟ عفوكَ يا

حبيب القلب . لقد حان الوقت لان نتذوّق هذا الحب الى الابد . انت ستدافع عني ، وانت تنقذ ولدي ، لانه يجب ان تعلم ان لي ولداً جميلاً ناعماً حلواً . آه لو تراه لأحببته مثلما احبه ، ويريدون نزعه مني . قد يكون فارق الحياة ، انظر الى هذه الدماء ، انها دماء ولدي .

ـ فلورندا ، فلورندا ، بماذا تنطقين ؟

ـ لقد بحتُ لك بسري ، لا يضطرب قلبك ، لا تحتقرني ، اكرر القول : لستُ مجرمة ، اني بريئة .

وعلت الدهشة جبين الملك وساورته ثورة الغضب والحزن . وفلورندا تظن انها تخاطب حبيبها بيلايو ، وتكشف له عن سرها .

وبعد لحظات صمت ، واصلت كلامها :

ـ الا تسمع هذه الانغام التي ترنّ في الفضاء ؟ الا تفهم معناها ؟ انظر كيف تنفتح ابواب السماء ، وانظر تلك العساكر المشرقة المرفرفة بأجنحتها حول عرش الله . انها الملائكة من الساروفين والكاروبين تهلل بقدوم ملاك آخر رفيقهم . ان نفس ولدي المستحم بالنور لقد ارتفع الى السماك الاعلى . لقد مات ولدي .

ـ ارجوكِ ان تنزعي عنكِ هذه الافكار السوداء . ابنكِ حيّ ، انا هنا للسهر عليه وعلى امه . الا تعرفينني ؟ هذه النظارات الزجاجية تخيفني .

وواصلت فلورندا كلامها كأنها لم تسمع شيئاً .

ـ انظر الى عينيه السابحتين في الظلام ، ظلام الموت ، وشعره الاشقر المقشعر وخديه الصفراوين ، والبسمة جمدت على شفتيه ، وثيابه الملطخة بالدماء . ابني الجميل الظريف تحوّل الى هيكل ، الى جثة ، ربي والهي ، مهده اصبح نعشه . ناولوني الزهور لأنثرها على مهده . هذه الدماء قد خرجت من قلبه . لا بدّ لي من الانتقام . أمّ بدون ولدها هي لبؤة شرسة . فلنهوع ، فلنهرع لانقاذه ، تعال يا حبيبي اعطيك حبي لقاء ولدي .

ودنتْ من الملك واخذتْ بيده تجرّه نحو الباب .

وكان لذريق صامتاً جامداً مقطّب الجبين لا يدري كيف يتصرف تجاه هذا الموقف الجديد عليه .

– ماذا بك ؟ الا تريد اللحاق بي لاني بحتُ لك بسري ، لان لي ولداً . لا تحتقرني ، ولدي مات .

وقهقهت قهقهة جنونية . انها في حالة هذيان مخيفة .

وعند دخول الظلام ، كان رجلان يتحادثان هما الملك لذريق وكاتم سره غوديلا . وتكلم الملك :

– عليكم بالرحيل في نصف الليل اذا امكن ، ولا تنفصلوا عنها . وتتركونها في منزل عمي القند انيق في شريش واسهروا على الطفل ، واذا الحّت في طلب رؤيته سلموه لها .

فبدرتْ من غوديلا اشارة الطاعة ، ثم تابع الملك قوله :

– وانا عن قريب سأنضمّ اليكم لأن الحرب ستعمّ البلاد ، واني لملقّن هؤلاء الكفرة درساً لن ينسوه مدى الحياة .

– يظهر ان طريف قد عاد ادراجه الى افريقيا .

– علمت من الجواسيس ان القند يوليان على اتفاق مع القائد الربي ، وقد قفلا راجعين معاً الى طنجة .

– يا له من خائن .

– اجل يخون وطنه ويخون ملكه ، انّ له شركاء في الخيانة .

– بيلاي ؟

– لا اعتقد انه يبلغ درجة الخيانة .

– اذن من ؟ اليهود ؟

– اجل هم اتفقوا مع العرب وكاهنهم الاكبر صموئيل خزاه الله ، له الباع الطولى في طلب نصرة العرب .

– هل هذا ممكن ؟

ـ كتب اليّ دانيال يقول انه ضبط رسالة موجهة من الكاهن الاكبر الى اليهود يحثّهم فيها على خلع نير القوط .

وواصل الاثنان سيرهما يتحادثان ، والملك يعطي غوديلا الاوامر ، بينما قلب مكلوم يستحم بالحرقة . الليل ارخى سدوله . امرأة فتية بارعة الجمال علاها شحوب وشعرها الاسود المبعثر حول وجهها وخديها ، يدها ضارعة نحو تمثال العذراء مريم والزفرات تنطلق من حنجرتها حارة .

ولدي حبيبي ، ايتها العذراء القديسة مريم ، يا نجمة البحر ويا كوكب السماء ويا زهرة الارض و سلوى الحزانى ، بحق ابنك الذي مات على الصليب ، سكّني ألمي ! انت ايتها العذراء أم الحزانى تدركين مرارة الحزن ، حزن أم اضاعت طفلها . ولدي حيّ . تضرعي لكي يردوه اليّ لأقبّله واضمه الى صدري وأرضعه من ثديي . الا تترأفين بي ؟ الستِ أماً ؟ لا تهمليني ايتها العذراء القديسة . لقد نزعوا ولدي مني ، فلتحلّ عليّ النقمة والعقاب ولكن ردّي اليّ ولدي .

وقبّلتْ الارض خاشعة امام العذراء .

ودخل عليها الملك وغوديلا ، فصرخت في وجههما : اين ولدي ؟ ردّ اليّ ولدي .

ـ فأجابها الملك : ستريه عن قريب ؛ اتبعيني .

فلاحت بارقة امل على وجه المسكينة ولم ترَ بدّاً من اللحاق بهما دون مقاومة.

فقادها « غوديلا » الى « برج السلاسل » حيث القند اينيبغا وابنته « غوديوسا » التي كان يطمع « غوديلا» بيدها . وأوصى بفاورندا خيراً ، عملاً بارادة الملك الدريق .

فاقتربت منها « غوديوسا » مستفسرة :

ـ ما بك يا سيدتي فالشحوب يعلو وجهك ؟

ـ من انت ايتها الفتاة الساحرة التي تعرف ان تلفظ كلمات حلوة تبعث السلوى في القلوب الكسيرة ؟ فاذا كان قلبك يرشح بالحنان كما يبدو لي ، اخبريني بحقك اين ولدي ؟

– ولدك ؟ لا نعلم شيئاً عن ولدك .

فنفر الدمع من عيني فلورندا لمّا رأت انهم خدعوها ، وان هذه الصبية الماثلة امامها تجهل قصتها . فروتْ لها مصيبتها وتعانقت المرأتان كزهرتين حركتهما الريح . « غوديوسا » متوسطة القامة ، شقراء الشعر ، نقية الوجه ، زرقاء العينين يطفح منهما الحنان والبراءة ، لها جمال الوداعة ، وفلورندا هيفاء القامة ، شعرها اسود بلون الابنوس ، سوداء العينين ، بيضوية الوجه مع اصفرار . كانت ابنة انيقة شديدة الحساسية ، وابنة يوليان سوسنة قد وقعت عليها حشرة ناهشة في صدرها ممزقة عرضها بدون رحمة .

. . .

١٠

ـ من اين انت عائد ؟

ـ من افريقيا .

وكان المتكلم بيلاي مخاطباً سيسبوتو بن فافيلا .

ـ وما وراءك من الاخبار ؟

ـ اسوأها . فقد شاهدت هناك القند يوليان ورقيلا واوسمندو وغيرهم من الاشراف الراغبين في رؤية تاج لذريق مطروحاً على اقدام ابناء هاجر .

ـ وما سبب توجهك الى موريتانيا ؟

ـ وصل اليّ كتاب من يوليان الذي يجهل مصير ابنته ومكانك .

ـ اجل لم اره منذ محاولتنا انقاذ فلورندا ، وقد جرحت وحملت الى قصر كونسوغرا والقند سافر الى افريقية .

ـ يرغب الينا الانضمام الى صفوف المتذمرين ، اي ان نحارب الى جانب اعداء ديننا ووطننا .

ـ نحن متفقون حول هذه القضية ونشلّ على الحياد .

ـ ثم طلب مني ان اقابل الكاهن الاكبر لليهود وليكن على اهبة مع كل ما يقدر ان يجمعه من رجال .

ـ والقند يوليان ، هل يرغب في العودة الى اسبانيا ؟

ـ على جناح السرعة ، فالاعدادات على قدم وساق . اسطول ضخم وجيش لا يحصى يستعد للانقضاض على بلاد القوط .

ـ لا يا سيسبوتو اني أربأ بنفسي ان اقاتل القوط . الوطن اولاً . والوطن لا يعني التراب فقط ، انه الدين والمعتقدات والتقاليد والامجاد وروح الأمة

وحياتها والشعب والعرق . حيث يوجد قبر فهناك وطننا . لقد احتل اجدادنا قسماً من افريقية ، وماتوا فيها . ولكن اليست امجادهم امجادنا نحن الذين نعيش ما وراء مضيق هرقل ؟ العرب ينوون القضاء علينا بعد استيلائهم على ممتلكاتنا في افريقية ، فيدنسون معابدنا ويستبيحون نساءنا واعراضنا وينثرون رفات اجدادنا في مهب الرياح السافيات .

ـ انت على صواب ، وانا فخور بصداقتك . وما انت صانع الآن ؟

ـ اصغ يا سيسبوتو . ليس من احد وصلت اليه الاهانة من لذريق مثلي ، ومع ذلك فإني واضع سيفي في الدفاع عنه وعن الوطن .

ـ تدافع عن عدونا يا بيلاي ، عن قاتل ابي ؟

ـ دع عنك ذلك يا سيسبوتو . الوطن فوق الملك ومن واجبنا الزود عن وطننا والموت فداه .

فجمد سيسبوتو صامتاً . ان ما يطلبه منه بيلاي صديقه فوق قدرته . انه ابن غيطشة ، وقد اقسم بالانتقام لوالده الذي قتله لذريق . فكيف يطلب منه الدفاع عن عدوه . غير انه لا يجهل ان اباه الملك غيطشة ارتكب جرائم فظيعة . لقد نسي بيلاي ان سيسبوتو ابن قاتل فابيلا . ما ذنب الولد مما جنته يد والده ؟

ـ بيلاي ، كنت اعتقد انك تتكلم كانسان . فإذا بك تنطق كملاك ؟ انت اسمى مني ، انت فوق الناس جميعاً ، لم يدر قط في خلدي انك ستتبنى هذه القضية في الدفاع عن لذريق . اني احترمك واقدسك كإله .

ـ اذن تتبعني ؟

فتردد سيسبوتو ثم قال فجأة :

ـ اجل ايها الصديق النبيل : « الله ثم الوطن » .

ودخل الليل ، فأسرع سيسبوتو في طلب الكاهن الاكبر صموئيل لينقل اليه اقوال القند يوليان .

وكان الحاخام بالقرب من شريش ، اي على مسافة ضئيلة من «برج السلاسل» . وبقي بيلاي وحده يرشح قلبه بالاسى . ولم يشأ ان يغادر المكان دون ان يودعها ،

فاقترب من القلعة ودخلها بخطى وئيدة ، فشاهد امرأة متشحة بالسواد تصلي ، ولم تشعر بحضوره ، فدنا منها ببعض الحياء .

– عفواً ايتها الحسناء ...

وادارت المرأة وجهها وصرخت :

– انه رجل ، الفرار الفرار . من انت ؟

– الا تعرفينني ؟ انا بيلاي . ولكن ، ربي ماذا ارى ؟

– بيلاي !

– فلورندا ، حبيبتي ، خطيبتي .

غير ان الفتاة التي لم تقوَ في الوهلة الأولى على كبح جماح الحب ، وعادت اليها ذاكرتها وغيرتها ، والهوة العميقة التي تقف حائلاً بينها وبين حبيبها ، فاشتد بها الغضب ضد السماء وضد القدر وضد بيلاي ذاته .

– ايها المجرم ، جئت لتفتش عني ؟ اليك عني ، انت خائن .

– حبيبتي ، حبيبتي ، انك تهذين .

– اهرب من امامي يا اتعس خلق الله ، سل فؤادك ، تذكّر المي . اهرب مني يا بيلاي ، انك كاذب .

– فلورندا ، يا دماء قلبي ، لا تطرديني . اما من سبيل الى عودة الحب الى قلبينا ؟

– مستحيل ، مستحيل .

– نستطيع ان نكون سعداء يا فلورندا ؛ اني احبك .

– فات الاوان . ربي من جاء بي الى هذا المكان ؟ ما اشد يأسي وخجلي ، انا ماثلة في نظرك ، وانت مت في نظري . الموت الف مرة ، العار يقف بيننا ، انظر الى جبيني . العار وحده مكتوب فيه ، بل اللعنة والقدر يلاحقاني ، فلم يترك شوكة واحدة دون ان يغرسها في قلبي . انا مهملة ، ملعونة ، مستباحة . بعدتْ عنّا لذاذات الحب ، العار منتصب بيننا ، اني اشقى بنات القوط . اهرب مني ايها الرجل الفاسد . تريد ان تهزأ من امرأة جارت عليها الايام فجن جنونها من اليأس ومن الغيرة . القاني القدر في بحر من الويلات . تبكي يا بيلاي ،

عفوك عني ايها الشهم المفضّل ، عفوك اذا اسأت اليك بلساني . بيلاي حبيبي . بيلاي حبيبي ، الا تعلم انك تعانق امرأة ملطخة بالدنس ؟

ـ اعانق حبيبتي وخطيبتي وسمائي على الارض ، اعانق فلورندا .

ـ بيلاي ، لا تحتقرني ، بيلاي يحبني ، انا طاهرة مثل زرقة الجلد . وانت ايها المسمّر على خشبة الصليب ، تقبّل دموعي ، دموع عرفاني بالجميل والشكر والحمد لله لانك تركتني اعيش حتى هذه الساعة .

وجثت امام المذبح ، والدموع تنهمر من عينيها ، انها دموع الفرح .

ـ لقد عاد السلام الى قلبي ، وانتهت آلامي ، وتحوّل جحيمي الى نعيم .

ـ اجل يا فلورندا سنعيش سعداء .

ودنا منها وضمها بين ذراعيه يوسعها لثماً وتقبيلاً ، وغرق الحبيبان في موجة من اللذة الطافحة ، ودوى صراخ مزّق تلك الغبطة البعيدة القرار ، وهوى جسم على الحضيض ، واقترب الحبيبان منه . تلك « غوديوسا » ، عاينت وسمعت كل ما دار بينهما من حديث ، فنهشتها الغيرة الأكول لما رأت من تحب يضم اليه فلورندا صديقتها ومزاحمتها التي عاودتها مخاوفها وخابلتها ظنونها ببيلاي .

ـ تتنكر لي ؟ تجحدني ، ولم تعرف حقي ، ولم تخلص لي الود حينما كنت اتعذب في آلامي وبلوتي ، كنت تستسلم طائعاً لحب جديد .

وهمّت بالانتحار فاستلّت سيف بيلاي وحاولتْ غرزه في صدرها ، وظهر سيبوتو وحسب فلورندا شقيقة غوديوسا .

ـ جئت ؟ انت ملاكي الحارس ، ارسلك الله لي نجماً ينير طريقي وسط العاصفة المضطربة في جوانحي .

ثم انطلق الرجلان ، وابصرت فلورندا حبيبها يبتعد عنها ، فرفعت يديها ضارعة لافظة اسم بيلاي ، وارتمت على ذراعي غوديوسا الحنونة التي ذرفت ايضاً دمعة مبللة صدر صديقتها .

• • •

١١

– اخواني ، حان الوقت لنخلع عن اكتافنا نير العبودية ، دانيال يقودنا في طريق النصر . لا تضطرب قلوبكم ، ولا تخشوا العدوّ يا ابناء يعقوب ، الإله الصباؤوت يرفع المتواضعين وينزل الاعزاء عن الكراسي. ملك القوط يتجبر مثل الفرعون ، ولكن عن قريب ستهوى عظمته وتتفكك اخشاب عرشه . لقد دنسوا اعراضنا ، وشاهدنا نساءنا جواري، وشبابنا مقيّدين بالسلاسل ، وعذارى اسرائيل كئيبات ، فارقت شفاههنّ البسمة ، وتبدلت بهجتهنّ بالدموع ، دموع الذل والاهانة . ولكن لا يخالجهم الريب ، سنقلب صفاءهم كرباً ، سيتوسلون الينا ولن يجديهم توسلهم نفعاً ، وسيمرغون جباههم على اقدامنا في تراب انعالنا ولن يسمع لهم نداء . العرب قادمون لنصرتنا ، وابطالنا على اهبة ، والملك لذريق غافل . وكان الناطق رئيس الكهنة في مجلس ضم شيوخ اليهود ، فسأله احدهم :

– وما هي الوسائل التي نعتمد عليها في هذا المشروع الجبار ؟

فأجاب دانيال : الكاهن الاكبر يدرك ذلك ، فعلى كل عائلة اسرائيلية ان تقدم احد افرادها للقتال . وهذه مسألة مفروغ منها . والعرب قادمون لنجدتنا ، وستكون المفاجأة قاصمة ظهر القوط .

– ولماذا ؟ هل يجهل الملك نية العرب بفتح بلاده ؟

فقال دانيال : ادخلتُ في روع لذريق انها اشاعات كاذبة راجت حول غزو العرب بقوات كثيرة العدد .

– وهل لديكم برهان على اقتناع الملك بما بثثتم في روعه ؟

– اجل لقد سلمني الملك ابنه لرعايته .

– يظل الطفل رهينة حتى نطلق يدنا بالتصرف بحرية اكبر .

ودخل عليهم في مجلسهم اربعة رجال ، اكبرهم سناً يرتدي لباس الاحبار ، والثاني شاب جميل المنظر لا يزيد عمره على الثلاثين عاماً ، يلبس ثياب القوط ، وفي وسطه تدلّى سيف من طليطلة . والاثنان الآخران لفحتهما شمس افريقية . احدهم طويل القامة ذو لحية سوداء ، وصاحب دهاء . والآخر ضخم الجثة ، ظهرت عليه خفة الروح والكياسة . هما علقمة ومحمد ، اوفدهما موسى بن نصير ؛ فقال الكاهن الاكبر :

– هل عرضتما على موسى شروطنا ؟

– هذا هو العقد .

– ونحن منذ قرن نقاسي جور القوط ، طلبنا نجدة العرب ، واخيراً استجاب الله دعاء شعبه .

وقال علقمة : عن قريب ننقذكم من عبوديتكم .

وتقدم الآخران : « آبا » والاسقف « اوباس » ابنا « غيطشة » . فقال اوباس : الغرض الاساسي من مجيئي هو اعلامكم بان توعزوا لافرائيم لكي يحشد جميع المقاتلين اليهود تحت الراية الملكية .

وخرج ابنا غيطشة بعد توديع الحاضرين ، وهمس علقمة في اذن صموئيل : ان الاسقف اوباس يكتفي بخلع لذريق لبغض شخصي ، غير ان هذا البغض لا يصل به الى رغبته في ان يحتل العرب هذه البلاد . والآن وقد اصبحنا وحدنا يمكن الكلام عن المعاهدة .

وأخرج علقمة رقا ، وشرع في القراءة : باسم الله الرحمن الرحيم . اليك اتوجه ايها الشيخ الوقور صموئيل بن منسى من سبط لاوي . تهديك السلام نحن ، موسى بن نصير وآل المغرب من قبل امير المؤمنين الوليد بن عبد الملك الخليفة في دمشق . لقد وصل الى اسماعنا ما تعانون من ظلم وجور واستبداد من قبل القوط المسيطرين على هذه الاراضي الخصيبة ، ولمّا كنتم قد طلبتم مساعدتنا لخلع النير عن اكتافكم ، وترامت الينا انباء التذمر العام عند الاشراف ، ولا سيما القند يوليان المثلوم العرض ، قررنا بموافقة امير المؤمنين غزو مملكة القوط تأديباً للملك لذريق على آثامه وشروره . ولمّا كنّا نأمل وقوفكم الى جانبنا ، جئنا نفيدكم ان وقت الهجوم قد حان . فعن قريب تنزل قواتنا على السواحل

الجنوبية من البلاد ، وتشملكم حمايتنا ، وتمارسون شعائركم الدينية بحرية تامة ، وتشيدون معابدكم ، ونسلّمكم بلدة من كل خمسين بلدة نحتلها .

صدر عن مدينة طنجا في اول محرم سنة ٩٠ هـ.

التوقيع : موسى بن نصير

وبعد الانتهاء من قراءته ، اسلمه الى صموئيل ، فنهض الكاهن الاكبر مع بعض الكهان وتوجه الى قدس الاقداس وفتح تابوتاً ، ووضع المعاهدة فيه ، فهي تعني الحرية لشعب اسرائيل .

وقال علقمة : هذا سر يبقى بعيداً عن اسماع يوليان الذي تعاهد مع اخواننا على قهر القوط فقط وخلع لذريق .

وقال صموئيل : لقاء هذه الخدمة يسلّمونكم قاعدة سبتة .

— تلك هي الحقيقة .

وقال علقمة : آن الرحيل ، قائدنا طارق بن زياد قد عبر المضيق وانزل جنوده في هذه البلاد ، حفظكم الله واسبغ عليكم نعمه لكي تدركوا مبتغاكم .

— وإله اسرائيل يرافقكم .

وخرج علقمة ورفيقه بصحبة شيخ مسن يدلهما على الطريق الاقصر الذي يوصلهما الى الجنوب .

* * *

وادرك لذريق ان الخطر محدق به من كل جانب ، فدعا رجاله . فهرع اليه الزعماء مع عبيدهم والشعب اجمع انضم تحت لوائه الملكي . ففي ايـــام قلائل تجمّع في طليطلة ما يزيد على سبعين الف رجل ، وكان يرافق الملك عدد كبير من الاساقفة والقسوس ، وامام الجميع رئيس الاساقفة اوربانو . فسار الملك لذريق في هذا الجيش الضخم متوجهاً نحو شريش حيث كان يرابط الجيش العربي ، وتوقف في قرطبة يوماً واحداً ، وهناك انضمت قوات جديدة الى هذا الجيش الكثير العدد .

وعسكر الملك على مسيرة يوم عن قادش بالغرب . وكانت خيمته تختلف

عن بقية خيام الجيش ، ذات اللون القرمزي ، وقد ارتفعت فوق بقية خيام العسكر ، وانتصبت ايضاً خيام الاساقفة بالقرب من الملك واستسلم الجند الى الرقاد بعد السير الشاق ، وظل لذريق ساهراً لأن النوم لم يعرف جفنه ، وكان معه رئيس الاساقفة اوربانو :

— املي ضميل .

— الله لا يتخلى عن النصارى ، وعلى الانسان ان يبذل طاقته والله الموفق .

— العرب شديدو البأس ، ومما يزيد في المي ان القند يوليان واليهود هم الذين جلبوا هذا البلاء على وطننا .

— لم يبق امامنا سوى القتال .

— والله يعطي النصر من يشاء .

— اخشى ان تدور علينا الدوائر .

— ينضم الينا كل يوم ألوف من الجنود صمموا على سفك دمائهم لأجل الوطن والدين .

وعلى هذا النحو زحف الملك لذريق على رأس مائة الف مقاتل قاصداً سهول شريش .

— غداً اليوم العظيم ، يوم الحزن او يوم الابتهاج . ايها الإله الصباؤوت ورب الجنود ، هبنا النصر من عندك انت القوي الجبار !

وخاطبه حامل سلاحه : مولاي ، ان جنودك تنتظر بفارغ صبر ساعة الهجوم للقضاء على المعتدي .

اسبانيا لن تساق الى العبودية . انها تعرف كيف تحطم الحديد الذي يحاول تكبيلها واذلالها . ماذا ينقصك للظفر ؟ جيشك كثير العدد والعدد ، والقوط يدافعون عن بيوتهم وممتلكاتهم ، والعرب يهاجمون ويغزوننا ، فالحق والقوة هما في جانبنا ، فثق ايها الملك ، ان النصر لنا .

— اجل ان كلامك يبعث العزاء في قلبي ، غير اننا بحاجة الى القائد لكي ينتصر ، او بالأحرى الى بطل لكي يقود جيوشي ، ورجالي يضمرون له المهابة والاحترام وهو شرط اساسي لكي ينتصر الجيش .

– لا شك انك تقصد بيلاي .

– هو بالذات ، لقد جعلته شقياً ، وأثمي سدّ جميع طرق السعادة والهناء في وجهه . الآن ادرك فداحة اثمي الآن بعد ان سبق السيف العذل .

– وقد يبادر الى نصرتك في آخر دقيقة .

– لا ، لا ، لن يأتي . لو ادري اين هو لكنت طلبت منه الصفح ولدعوته اليّ راضياً .

وفي تلك اللحظة ، اطلّ فارس متشح بالبياض ، قادم من سفر طويل ، انه غوديلا جاء ليبث في روعه ان فلورندا وغوديوسا ووالدها قد اختفوا من برج السلاسل .

فصرخ الملك متألماً : اذاً لقد حرمت من رؤية فلورندا !

– وانا من رؤية غوديوسا .

ودخل عليهم الاسقف اوربانو معلناً ان ثلاثة آلاف فارس من اتباع اوباس قد انضموا الى صفوف القوط ، متناسين الاحقاد القديمة ، تجاه الخطر المحدق بالوطن . والمعركة قريبة جداً حتماً . فلا بد من اعداد الجنود بواسطة الصلاة لله ، إله الجنود . وفي الحال سمعت الموسيقى الحربية وصهيل الخيل ، وقرقعة السلاح الصاعدة من جيوش النصارى المستعدين لحضور القداس . ولمعت أسلحة الجنود أمام الشمس ؛ وتقدم الملك واعترف بجميع ذنوبه للمطران أوربانو .

وفي هذه الأثناء ، وصل بيلاي فعانقه المطران والدموع تطفر من عينيه .

– آه ، لقد لبيت نداء الوطن . لقد انقذ الوطن .

• • •

١٢

اجيلونا المنزوية في وحدتها لم تر بداً من الاستسلام إلى رغبات الطبيب اليهودي دانيال الذي انقذها من الموت ضد ارادة الملك . ولا حاجة الى الايضاح عما اصاب الملكة من الاستياء لما بدر من زوجها حيالها ، فولّد في صدرها بغض شديد لزوجها القاسي الفؤاد وولد الى جانب هذا البغض عرفان جميل نحو اليهودي الذي كان من حين الى آخر يغيب عن القلعة المهجورة ليأتي بالطعام والشرابِ لسجينته الجميلة ، وأشاع ان الملكة ماتت تلبية لأوامر الملك للذريق . ولم تستطع ان تظل صماء الى نداءات حب اليهودي ، فالمرأة بحاجة دائمة الى الحب لان فيه حياتها ، والوحدة هي صديقة الحب ، والسلوان يولد الحنان نحو الشخص الوحيد الذي يرعاها بعناية . ان المرأة قوية في تحمل الألم ، ولكنها ضعيفة عند نداء الحب . الالم يسمو بها ، واللذة تستعبدها ، انها قادرة على التمرغ في الاقذار اذا وجدت فيها الحب ، الكنز الوحيد الذي تريد ان تهبه ، ولكن ليس من السهل نزعه منها . قد تصدّ ملكاً اذا جاءها بالعنف ، ويستعبدها المتسوّل بالحنان والرقة . ان اطواق الحب ليست من حديد ، بل من زهور ، الحب هو مرفأ النجاة التي وصلت اليه بعد العاصفة .

— ٠ما تقصد في ان تصبح زعيماً لليهود ؟

— ١اريد ان اصبح ملكاً .

انك تهذي ، يظهر انك تجهل من هم القوط وما يعني وجود يهودي فيما بينهم .

— لا يهمني الامر ، النحل والصراصير لها ملوكها وتطيعها . فاني قادر ان اصبح مملكاً على شعبي واقوده الى القتال ، الى المجد والى الحرية . وعند ذلك تصبحين ملكة لان حبي لك ولّد فيّ جارفة توصلني الى النصر .

وكانت الملكة تستمع الى حماسه وهي معجبة به ، غير انها خشيت ان تفقده لانه الوحيد الذي يربطها الى الحياة والحب .

– الا تفهم ان للحب مكافأة هي الحب ذاته ؟

– اجل ايتها الحبيبة اجيلونا . افهم ذلك ، غير اني لا اصبر على ان اراك اسيرة الى الابد . ان الحب بدون حرية اشبه شيء بغناء الطير المقفوص ، انه زهرة حرمتْ من نور الشمس والهواء . اطيع شريعة الطبيعة ، مثل الحجر المقذوف الذي لا يستطيع الا السقوط ، او مثل العصفور فوق الشجر ، لا بد له ان يغرّد .

– وهذا التغريد هو الذي يدل الصياد على موضع العصفور ، فيصوّب اليه سهمه فيرديه . عندما نعلو يا دانيال ، يدوخ الرأس ونسقط . اني سعيدة في هذه الخلوة ، اليس بمقدورنا ان نمددها اكثر فأكثر ؟ الا يكفينا هذا القصر وخرير هذا الجدول ، وزهور هذه الحديقة وحبنا ؟ هل نحتاج الى اكثر من هذا لنكون سعداء ؟ ان امجاد الماضي تعذبني ، واذا فقدت ذاكرتي اصبح سعيدة . فلو لم اعل ، لم اسقط الى هذا الحد . اننا نعيش الآن سعداء ومطمئنين وغداً قد تجتاح العاصفة هذا المكان ، والقصبة قد تقاوم الريح ولكن السنديانة الجبارة تذهب ضحية تصديها لهبوب الاعاصير .

واخذت يد اليهودي بين راحتيها ، وظلّ صامتاً.

– وما يكون حالي اذا فشلت في مشروعك ؟

ويظهر ان هذه الملاحظة فعلت فعلها في نفس دانيال الذي كان يتأمل اجيلونا بلهفة العاشق ، ولم يكن في تلك اللحظة قادراً على ارتكاب الجريمة . ان الحب شمس تظهر عندما يكون متبادلاً ، والاّ فهو بحيرة عميقة القعر . ان الملاك اذا وجد ذاته منبوذاً يتحوّل الى شيطان . ودانيال غمرته هذه السعادة التي تتطلب نقاوة القلب .

– لا تدرين كم احبك يا اجيلونا .

– الا تخدعني ؟

فاقترب منها دانيال وطبع قبلة على عنقها العاجي . ونهضت اجيلونا من مكانها تاركة عودها وانحنت وقطفت وردة ووضعتها على نهدها الممتلئ بالحيوية . وتلك القامة الهيفاء كالغصن الأملد تتطلب يداً لتطوقها . واليهودي ظل مشدوهاً تجاه شعرها الأسود بلون الابنوس المسدول على كتفيها وظهرها . غير ان تلك النظرة المليئة بالشهوة والحب كانت تغلفها كآبة عميقة مكبوتة ، وانطلقت زفرة حارة من اعماق صدره .

— ولماذا تتنهد ؟ قل لي بماذا تفكر ؟

— ربما يوماً من الايام تسأمين حبي فأشتاق لمعانقة الموت . لست سوى شقي مسكين تخلى عنه والداه وجررت ورائي الخنوع والعار والذل لكي اشق طريقاً في حياتي . كنت قضيت جوعاً لو لم استفد من ذكائي ودهائي . وهبتني السماء بعض الحسنات تعويضاً لي عن شقائي . قد اكون سلكت طريق الخير لو لم اجد ذاتي محتقراً لا يعبأ بي احد . وكان قلبي ينكمش عندما اشاهد القوط في الساحات العامة يرفلون بالجاه ، وتحف بهم العظمة ، يحيون حبيبات قلوبهم . وترد لهم التحية بأحسن منها ، واستسلم الى الحزن الاليم ، فلا امرأة ولا صديق ولا انيس اشكو اليه بلواي . اجل ايتها المعبودة اجيلونا ، ليس اشد وقعاً على الانسان من ان يرى ذاته وحيداً كأنه في قفر في مدينة تغص بالناس .. طالما لم تكن في نظري سوى غابة من البشر ، واشجار الصنوبر اكثر رأفة بي من بني الانسان لانها على الاقل تقدم لي وارف ظلها ، ولا تصل الى اذني سوى كلمات الحقد والاحتقار . جحدت ديني لانهم لو دروا بأني يهودي لكانوا رجموني ولكانوا نبذوني كالنواة ، وانا صبي لا حول لي ولا قوة . صبي تخلى عنه الجميع . كم قاسيت من المرارة ، كم ذرفت عيناي الدمع حتى ادركت السن الذي استطيع ان ارد به الاهانة بالاهانة واللطمة باللطمة .

وكانت اجيلونا تصغي اليه والتأثر باد على محياها . وتابع اليهودي قصته .

جل ما كنت اصبو اليه ان اصير رجلاً قوياً ، لان رغم صغري وجهلي ، لم يغب عن بالي ان الناس يشمخون بأنفهم على الضعيف ويذلون امام القوي الأثيم . ولما صرت قادراً على الدفاع عن ذاتي ، كفوا عن احتقاري . ثم

ابصرتك واحببتك ، وتمنيت لو ملكت الف عرش لأضعها جميعها تحت قدميك . فاشتاقت نفسي الى اكاليل الغار لكي استحق حبك واحظى باعجابك .

اجل ايتها الجميلة اجيلونا . احبك اكثر من اي مخلوق آخر على الارض قادر على حبك . انت سيدة خطيرة وملكة ، وتستحقين ان تكوني ملكة على العالم اجمع . ولكن ما يهم هذا كله . اني اضمر لك في قلبي كنز محبة لا توازيها محبة . هل انا مسؤول عن مولدي الحامل الذكر ؟ ولكن ما بك ؟ بمـا تفكرين ايتها الحبيبة ؟

وبالواقع كانت اجيلونا غادرة في تأمل غامض .

ـ دانيال ، ارى انك لا تحبني .

واصفرّ لون اليهودي واحنى رأسه على صدره ليخفي دمعتين انحدرتا من عينيه .

ـ انا لا احبك يا اجيلونا ! لم تصغ لكلمة واحدة من كلامي . اترين هذا التيار المنصب فوق الصخور ، اني مستعد ان القي بنفسي فيه اذا طلبت ذلك مني ، ثم تجسرين عـلى القول اني لا احبك . ما اقسى فؤادك ، لا تخالجك شفقة عليّ .

ـ اذا كان الامر كما تقول ، تخلّ عن مشاريعك .

ـ اذا كنت ارغب بتنفيذها ، فما ذاك الا لكي اصبح جديراً بحبك ولا تخجلين مني . فلتكن مشيئتك . انت السيدة المطاعة وانا العبد المطيع .

واضطرب صوت اليهودي لانه يعزّ عليه التخلي عن مشاريعه . واشرق جبين اجيلونا وعلت ثغرها ابتسامة ارتياح .

ـ مري ما شئت يا اجيلونا ، وانا رهين اشارتك .

فاقتربت الملكة وجلست قرب اليهودي وراحت تملي عليه رغباتها : عليك ان تقطع كل علاقة تربطك بالملك زوجي ، ولا تنفصل عني منذ الآن على الاطلاق . هنا تستطيع العيش بأمان . الا تلبي طلبي ؟ انه رجاء مني اليك .

ـ لك ما طلبت .

– لي امنية اخرى : ان تعتنق الديانة المسيحية .

– اني صانع جميع ما يرضيك . وآمل انه فيما بعد ... ولم يقوَ على الادلاء بما يجول في دماغه .

– تكلم .

– ولا ترفضين ان تقبليني زوجاً لك ؟

ولم تتمالك اجيلونا تجاه هذا التصريح الذي لم تتوقعه ان بدت منها بادرة احتقار ودهشة وامتعاض لم تخفَ على اليهودي العاشق ، وظلّ الاثنان معتصمين بالصمت الرهيب . فأجيلونا مهما جار عليها الزمان ، ومهما وجدت حبل حياتها مربوطاً بمصير هذا اليهودي ، فانها دائماً تنظر اليه من علُ . لا تكنّ له في اعماقها سوى الشعور بالجميل . ان حب اجيلونا اشبه بالأفيون الذي تحاول به تخفيف همومها .

– آه يا اجيلونا . احتقريني ، قولي لي ان غرامي المشؤوم جعلني انسى اصلي ومولدي . صبّي علي شتائمك ، اهزئي مني ، ابصقي في جبيني ، تصرفي بعبدك كما تشائين ، انا خاصتك ، مري وتطاعي ، انا احبكِ . الزواج منك ؟ انه جنون مطبّق ، انت سيدة خارقة الجمال ، ابنة احد اشراف القوط . انت تلك الملكة ، وانا مخلوق حقير ، يهودي ملعون احتقره الجميع ، الشكر لك اذا سمحتِ لي بالعيش قربك لأصونك وأدافع عنك . سأعتني بك كما تعتني ام بطفلها . غداً صباحاً سأتوجه الى قلعة شريش حيث خبأت اموالي ، لاني املك الكثير من الذهب ، وسآتي به كله ولن نعود نفترق . واذا لم احسن خدمتك تعاقبيني . وأوفّر لك اللذة ، واخدمك في ملذاتك . ادعو الفرسان الاشراف والعظماء ويتلون عليك اشعار حبهم في الليل تحت نافذتك ، وانتِ تصغين اليهم قريرة العين . وانا عبدك ، اخدمهم طائعاً اذا امرتني . ونظرة منكِ وبسمة من شفتيك اعتبرها اكبر مكافأة لي . ليس لي اكثر من هذا لأقدمه لك ايتها المرأة المعبودة . اهبكِ حياتي وحبي . هل تحتاجين الى المزيد ؟ اراضية عني ؟

وقبّل اليهودي العاشق يد اجيلونا بلهفة وضراعة وبللها بدموعه . امّا هي فكانت مصغية الى اقواله ، والتأثر باد على وجهها معجبة بذلك الحب العميق الهادر كالبركان ، وذلك التجرد الذي لا حد له ، وهي امور لا تستطيع حيالها المرأة ان تقف موقف اللامبالاة .

واضاف دانيال : لا تأخذي مني هذا التصريح مأخذ الاهانة . لقد بحت بكل ما يكنّه لك قلبي ، ولا تغضبي لانه اي اثم يرتكبه المريض اذا باح بما يشكو منه ؟

وكان القمر معلّقاً في كبد السماء الصافية ، والورود تحرّكها نسيمات رقاق ، وخرير المياه ، السحر والوحدة ، كله يدعو الى اللذة والحنان . واجيلونا في سماعها كلام اليهودي ، كانت تحدق فيه بعينيها الجميلتين ، الطريتين ، الراشحتين بالحب الذي يلج في خلايا الانسان . ونفس دانيال المغلفة بغمامة من الوهم ، واتقدت في عروقه نار خفيفة ناعمة ، وتسارعت نبضات قلبه مهددة بتفجيره في صدره . وعقد ذراعيه حول عنق حبيبته العاجي ، وبادلته العناق بذراعين بضتين ، ملساوين كالحرير . ثم طبع اليهودي قبلة سكرى على شفتيها الطريتين ، الندیتين ، وعيناها عالقتان في الفضاء الرحيب تناجيان النجوم الزهر ، وارتعش جسمها بكامله تحت تأثير القبلات المحمومة المتبادلة ...

* * *

١٣

– اخيراً لقد جئت يا افرام .

– سيدي ، نفذت اوامركم حرفياً ، وتكلمت مع الأسقف اوباس : وقال لي ان بيلاي سيقود عساكر القوط .

– لعنة الله . هل من المعقول ان يقاتل بيلاي الى جانب لذريق بعدما لحقه منه ما لحقه من الاهانة ؟

وكان المتحدث رئيس الكهنة صموئيل مع امين سره افرائيم . وسلمه المعاهدة لكي يدفعها الى مجلس الشيوخ ليعملوا بموجبها .

وبينما هما في الكلام ، اقبل دانيال ، فسأل الكاهن الاكبر عن مصير الطفل ابن فلورندا ، فقال صموئيل : لقد فكرت في تسليمه الى احدى المرضعات لتعتني به .

واقبل يوليان ، وكان الكاهن الاكبر قد دعاه باسم « شيلد برندو » رغبة منه في اخفائه عن دانيال لغرض في نفسه .

ومكان الاجتماع دير قديم فأطلّوا برؤوسهم من خلف الحائط الذي يحجبهم عن الانظار ، فشاهدوا امرأة عجوزاً ساجدة امام صليب محطّم بين تلك الانقاض ، وكانت على موعد مع صموئيل ،

– هل طال انتظارك ؟

– قضيت الليل بكامله اصلي بين هذه الانقاض الدارسة . فقال لها الكاهن الاكبر : ثلاثة اشخاص سيحضرون قريباً وبينهم ابنك .

فانكبّت المسكينة على اقدام الكاهن الاكبر ، ساكبة عليها الدموع . اشكرك الى الابد لانك اتحت لي تقبيل ابني قبل مماتي . ما لي اراك تضطرب ايها العزيز صموئيل ؟

– انا ايضاً افكر بابني الذي مات، بينما ابنك حي يرزق . شقيت سنوات طويلة ، وجعلتني اقاسي الأمرين ولكن ...

– صموئيل ، اصفح عني . سامحني عن جميع ما سببته لك من الآلام . اسأت اليك بصرامة . والآن تعيد لي ولدي ثمرة حب اثيم ملأ نفسي حزناً وغماً . منذ الآن سأقبّل الارض التي تطأها قدماك ، حياتي وقلبي ملك لك . لو ملكت العالم ، لعجزت عن مكافأتك .

واقبل القند يوليان يسأل عن ابنه الذي وعده الكاهن الاكبر برؤيته . ومن هذا الفتى الذي يرافقك ؟

– انه الصديق الذي حدثتك عنه . مقرّب من الملك ، وقد اخذ على عهدته تسهيل مقابلتك معه ، لان نفوذه قوي عنده .

– وما سبب هذا النفوذ ؟

– اجهله . ولكن اكثر له من العطاء ، تصل الى بغيتك .

– على رسلك ، انها وسيلة فعّالة لكشف الاسرار .

– عليك ان تسمّي ذاتك القند شلد برندو. فمن المناسب اغفال اسمك . فالملك مستعد لمقابلة فارس يجهل اسمه ، ولكن اذا درى انك انت الفارس فقد يرفض الكلام معك .

– صدقت والله صدقت .

وقصد الاثنان مقام دانيال ، والناسكة بقربه . فحيا القند يوليان الطبيب برقّة ونظر بتطفل الى العجوز الخافضة انظارها ، والعاقدة يديها على صدرها ، انها اشبه شيء بتمثال الألم .

فقال شلد برندو : « اني مشتاق لمعرفة سبب هذا التأثير العظيم على لذريك الذي ليس بالرجل السلس القيادة » .

فقال صموئيل : هذا هو حفيد القند يوليان ، ولا يعقل انكم تجهلون مأساته .

واقترب القند من الطفل وحاول ضمه الى صدره لو لم تبدر اشارة من دانيال تلهمه الفطنة والسيطرة على اعصابه .

– كيف وصلت الى الدالة التي لك على الملك ؟

ـ اسراري تكلّف الكثير من المال . تعرفوني اني طبيب ، والطبيب قادر على تأدية خدمات جلّى للملك ، والملك سخي اذا كان لقلبه صلة في القضية . لا شك قد وصل الى اسماعكم ان الملك يضمر حباً عميقاً لابنة يوليان .

فأجاب القند شلدبرندو ، اعرف ذلك .

ـ فلا حاجة اذاً للقول اني انا الذي سهّلت للملك بغيته فكافأني بسخاء، وسلمني ثمرة حبه للسهر عليها ، وقد وضعتها في يد صموئيل لاسباب اذا احب يذكرها لكم .

وفي تلك الاثناء كانت المرأة العجوز قد اقتربت من صموئيل وقالت له : طال انتظاري .

ـ لا تخشي شراً ، عن قريب تتحقق آمالك .

ـ باركك الله .

وقال القند مخاطباً الطبيب : وكيف تصرفت لكي لا تهرب فلورندا من ذراعي الملك ؟

ـ امر بسيط . سهّلت لها شراباً منوّماً ، وفي نومها العميق قضى لذريق منها وطره .

فصرخ القند : صواعق السماء تسقط عليك . واستلّ سيفه بسرعة البرق ، واغمده في صدر دانيال الذي حاول الهجوم على القند وخنجره مشهور في يده ، غير ان قواه خارت اذ بدأ الدم يتدفق بغزارة من صدره ، وانطفأت عيناه ، وغطى اصفرار الموت جبينه ، وخر صريعاً يتخبط بدمائه .

وانطلقت قهقهة شيطانية من فم الكاهن الاكبر نمّت عن قساوة قلبه ، والمرأة المسكينة تأملت المشهد ، واهلع قـد تملّكها ، وتراجع صموئيل بضع خطوات ، وصرخ كدوي الرعد .

ـ ايها القند يوليان هوذا ولدك . راحيل هذا هو ثمرة فجورك . انتما سببتما لي الحزي والعار . لقد انتقمت ، انتقمت .

فوثبت المسكينة المفجوعة بولدها ، وضمته الى صدرها وقبّلت عينيه ووجهه وفمه كما لو انها تريد اعادة الحياة اليه . مشهد مفجع .

وظلّ يوليان مشدوهاً بضع دقائق ، واستعاد رباطة جأشه ، واقترب من جثة الطبيب ، وجذب منه الخنجر ، وانطلقتْ صيحة داوية من فمه : انه خنجري .

قرأ عليه اسم راحيل . ولم يبقَ ريب لدى يوليان ان تلك المرأة الحبيسة هي عشيقته ، والطبيب ابنها ، وقد قتله بيده . ونفرتْ دمعتان من عيني يوليان .

ودانيال المغمى عليه استفاق من اغمائه ورفع يداً نحو ابيه القند ، ويداً نحو امه قائلاً في حشرجة الموت : امي ، امي ، ابي ، ابي غفرت لكما . فلورندا شقيقتي ، كنت فضّلت الف مرة ...

ولم يتمم كلمته ، وانطلقت حشرجة من فمه ، وذهبت معها روحه .

فصرخ القند يوليان : لقد صفح عني ، صفح عني . وجثا قرب الجثة والألم يتآكل فؤاده .

وهتف صموئيل الكاهن الاكبر : نفذت وعدي . هذا هو ولدك من الجارية اليهودية الحسناء عشيقتك في الماضي ، العاهرة راحيل . زوجتي . لقد احتفظت بولدك عندي زمناً طويلاً لكي اسلمه اليك قتيلاً بيدك . يا لك من ابله . خدعتك كطفل . الآن تعرف ما هو الم الوالد ؟ اردت ان اعلّمك التألم . الآن تلعن الساعة التي ولدت فيها .

وخرج القند من ذهوله ولوعته ، وانقضّ كالنمر على اليهودي منتضياً سيفه .

— اتظنني اخشى الموت بعد انتقامي ما حاجتي الى الحياة ؟ ظننت انك تكون بمأمن من انتقامي لاني يهودي . ما اشد غباوتك وحماقتك . ستلعنك الاجيال الى الابد . سلّمت بلدك للعدو ، وقتلت ولدك بيدك .

وعلت من حنجرته قهقهة جهنمية ، وابتعد عن يوليان ، ولحقه هذا حتى صار على شفير الهاوية التي تؤدي به من علو الى اسفل ، وصرخ به يوليان :

— ايها اليهودي الملعون ؛ لقد قذفتك الجحيم لتعذيبي . ولكن اقسم بالله ان موتك سيكون رهيباً . سأحرقك ، ثم اداوي حروقك ، ثم احرقك من جديد : وأعيد لك الحياة الف مرة لأنزعها منك الف مرة . لا تهرب ، اريدك حياً ايها العجوز الملعون .

فخرجت من فم اليهودي ولولة الموت وقال :

– ايها الاحمق لن تدرك مأربك مني . انا ادركت منك مأربي . لقد انتقمت ، انتقمت .

والقى بنفسه من علو الى اللجج ، فتحطم جسمه على الصخور وجرفه التيار.

ودنا يوليان من العجوز واخذها بيدها محاولاً ابعادها عن ذلك المكان ، فهوت من يده بلا حراك . فهتف من اعماق قلبه :

– انا قتلت ولدي بيدي . وفلورندا البسها ولدي العار . يا للفظاعة . كانا شقيقين هو ضحاها ، وانا ضحيته . يا لظالم القدر . لعنك الله ايها الملك . انك السبب في كل ما جرى . مسكينة راحيل .

وهم بمغادرة المكان واذا به يسمع بكاء طفل ، انه شند سفنتو الذي استيقظ . فأخذه بين ذراعيه ، واسرع نحو فرسه ، وسمع من بعيد الاصوات ترتفع من معسكر العرب ، فعلم ان المعركة الحاسمة اصبحت وشيكة الوقوع .

• • •

١٤

معركة وادي بكة

ولمّا ركب طارق البحر ، رأى وهو نائم النبي صلى الله عليه وسلّم ، وحوله الانصار ، وقد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسي ، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا طارق تقدم لشأنك » . ونظر اليه والى اصحابه قد دخلوا الاندلس قدامه ، فهبّ من نومه متبشراً ، وبشّر اصحابه ، ولم يشك في الظفر . فخرج من الجبل ، واقتحم بسيط البلد ، شاناً للغارة ، وأصاب عجوزاً من اهل الجزيرة ، فقالت له في بعض قولها : انه كان لها زوج عالم بالحدثان ، فكان يحدثهم عن امير يدخل الى بلدهم فيغلب عليه ، ويصف من نعته انه ضخم الهامة ، فأنت كذلك . ومنها ان في كتفه الايسر شامة عليها شعر ، فان كانت فيك ، فانت هو . فكشف ثوبه ، فاذا بالشامة في كتفه على ما ذكر واستبشر بذلك ، ومن معه . وكان جيش طارق بن زياد يضم زهاء عشرة آلاف رجل من البربر ، وثلاثمائة من العرب . فصيرهما عسكرين . احدهما على نفسه ، ونزل جبل الفتح ، فسمي بجبل طارق ، والآخر على طريف بن مالك ، ونزل بمكان مدينة طريف ، فسمي به . واداروا الاسوار على انفسهم للتحصن .

ونهض عليهم لذريق يجرّ امم الاعاجم واهل ملّة النصرانية في زهاء اربعين الف ، وكان يومئذ غاز في جهة البشكنس . وكتب طارق الى موسى بانه قد زحف عليه لذريق بما لا طاقة لديه ، وكان عمل من السفن عدة ، فجهّز له فيها خمسة آلاف من المسلمين . ولمّا اكتمل العدد ، جمع طارق قوّاد جنده والقى فيهم هذه الخطبة :

ايها الناس : اين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو من امامكم ، وليس لكم

والله الا الصدق والصبر . واعلموا انكم في هذه الجزيرة اضيع من الايتام على مأدبة اللئام . وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه واسلحته ، واقواته موفورة ، وانتم لا وزر لكم الا سيوفكم ولا اقوات لكم الا ما تستخلصونه من ايدي عدوكم . وان امتدت بكم الايام على افتقاركم ، ولم تنجزوا لكم امراً ، ذهبت ريحكم ، وتعوضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن انفسكم خذلان هذه العاقبة ، من امركم بمناجزة هذا الطاغية فقد القت به اليكم مدينته الحصينة ، وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لأنفسكم بالموت . واني لم احذركم امراً انا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة ارخص متاعاً فيها للنفوس ، أبدأ بنفسي ، واعلموا انكم ان صبرتم على الأشق طويلاً ، استمتعتم بالارفه الألذ طويلاً ، فلا ترغبوا بانفسكم عن نفسي ، فما حفاكم فيه بأوفر من حظي . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان : وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك امير المؤمنين من الابطال عرباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهاراً واختاناً ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الابطال والفرسان ليكون حفاه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه في هذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم والله تعالى ولي انجادكم على ما يكون لكم ذكر في الدارين .

ايها الناس ، ما فعلت من شيء فافعلوا مثله . ان حملت فاحملوا ، وان وقفت فقفوا ، ثم كونوا كهيبة رجل واحد في القتال ، واني عامد الى طاغيتكم بحيث لا انهيه حتى اخالطه وامثل دونه ، فان قتلت فلا تحزنوا ولا تتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل واسير ، واياكم اياكم ان ترضوا بالدنية ولا تعطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة والراحة من المهنة والذلة وما قد رحل لكم من ثواب الشهادة ، فانكم ان تفعلوا والله معكم ومفيدكم تبؤوا بالخسران المبين وسوء الحديث غداً بين من عرفكم من المسلمين ، وهانذا حامل حتى اغشاه فاحملوا بحملتي .

ودار القتال شديداً ، وصال الفرسان وجالوا بالطول والعرض ، واستبسل الطرفان واقبل الليل ولم ينل الفريق اربه من الفريق الآخر . الحديد ضد الحديد . وادرك الطرفان ان الشجاعة من صفات الطرفين .

ولما طلع الصباح ، واشرق النور ولاح ، عاد الفريقان الى القتال والحرب

بينهما ، سجال طيلة سبعة ايام . وفي اليوم السابع عادوا من جديد الى ساحة القتال ، ولا بدّ ان يكون هذا اليوم حاسماً بين المقاتلين . وخرج اوربانو الأسقف وجميع من معه من الكهان الى رابية حيث اقيم المذبح ، وصلّوا الى الله الجيوش ان يمنحهم النصر . والملك لذريق في ذلك اليوم انطلق على رأس قواته رغم اعتراض الجميع طالباً الظفر او الموت . وكانت عادة القوط عندما يدخل ملكهم في المعركة ، يلبس فوق درعه وشاحاً غالي الثمن مذهباً . وتكلم من عجلته العاجية حاثاً جنوده لخوض الموت في هذه الحرب السجال . وبيلاي من جهته اظهر عن شجاعة نادرة في القتال ، وكان يجول بين صفوف الرجال ، محرّضاً الفرسان على الثبات ، وشاهد بين المقاتلين العرب فارساً اسود اللون يقود الرماة ، وسيفه الطويل مشهور في يده . وعندما يدخل المعركة ، يفرّق كل من حوله . فلا تعود ترى سوى اشلاء تتناثر ، وأنين يتصاعد من هنا وهناك . فبادر اليه بيلاي ودار بين الاثنين صراع مميت بين القوطي والعربي ، اظهر فيه الاثنان بطولة نادرة ، تمكن بعدها بيلاي من ان يوجّه الى خصمه ضربة قاضية اردته يتخبط بدمائه . ولكن ما نفع هذه البطولة ، فما كاد ينتصف النهار حتى وجد القوط انفسهم يقاتلون زملاءهم . فالأسقف اوباس اعطى الاشارة الى الاسرائيليين الذين انضموا الى صفوف العرب يقاتلون القوط . وصاح هؤلاء : خيانة خيانة ! ولذريق ترك مركبته ، واعتلى صهوة فرسه « اوريليا » وتسلّح برمح طويل ، وراح يطعن فيه يميناً وشمالاً مثل نمر جريح .

وما الفائدة من اعمال البطولة هذه ؟ آبا واوباس تحوّلا الى صفوف العدو برجالهما الكثيري العدد ، ولم يبقَ سوى نفر قليل من المخلصين للذريق ، لم يلبثوا ان سقطوا قتلى وجرحى . واطلق الملك صيحة يائسة ملقياً بذاته في عجاج المعركة طالباً الموت .

امّا الخائنون فقد غادروا المعركة برفقة طارق بن زياد الذي ترك قوة بقيادة طريف لتقضي على البقية الباقية من جنود القوط الذين ولّوا الادبار ما وجدوا لذلك سبيلاً . وبيلاي ادرك ان كل شيء قد ضاع ، امر بعض رجاله ان يقودوا الأسقف اوربانو والقساوسة الذين معه الى مكان امين .

ما افجع المشهد . الموت في كل مكان . اسلحة مبعثرة هنا وهناك ، اشلاء واجسام اخرى ما زال فيها بعض الحياة تئن وتتوجع . جميع هؤلاء الذين كانوا الى وقت قريب يرفلون باللباس الفاخر والزينة الفاخرة العامرو الثقة بالنصر ،

اصبحوا مضرجين بالدماء ، تدوسهم اعراف الخيول . الخادم قرب سيده ، والرفيق قرب رفيقه . ذلك يردد في آخر لحظة من حياته اسم حبيبته او اولاده ، وذلك يتنهد للقاء زوجته الحبيبة . وخارت القوى ، ولجأ القادرون من القوط الى الهرب معتمدين على سرعة خيولهم . وتبعهم العرب يقتلون منهم ويأسرون ، ومات الكثيرون منهم هرباً لانهم لم يموتوا في ساحة القتال ، وغيرهم سلكوا طريق الخلاص بينهم بيلاي الذي اطلق لجواده العنان حتى يدرك الأسقف اوربانو . وبينما كان يجتاز معبراً ، لاح له فارس منفوش الشعر ، اصفر الوجه مدمى ، فحدق بعينين تجلى فيهما الذعر قائلاً له :

– لا تتوقف برهة ؛ عجّل بالفرار .

فصرخ بيلاي : الملك لذريق ...

– الفرار ، الفرار يا ابن فايبلا ؛ اهرب . اصبح العربي سيّد هذه البلاد . حسبك ما قاتلت لعرشي وللوطن . الوطن يضع ذمامه بين يديك ، حافظ على حياتك . اجمع رجالنا وارجع يوماً ما الى هذه الاراضي التي شهدت عارنا ، لتغسل عنها هذا العار . عاقبني الله على جرائمي . عفوك عني . استودعك الله . وانطلقت به فرسه على غير هدى . وجمع بيلاي بعض الهاربين الذين عثر عليهما محاولاً النجاة بهم وبنفسه . ولذريق او بالأحرى فرسه ، توغل في الجبل القريب ، فيصعد الوهاد ، ويهبط الى الغور ، والفارس جاحظ العينين ، والعرق والدم يتصببان منه خفاق الصدر . وميّز الملك او ظنّ انه يميّز امرأة فتية مبعثرة الشعر ، وصرخت به : لذريق ، سكين تخرق صدرك وتنفذ الى قلبك والسم يحرق احشاءك ، احشاء النمر ، يا مجرم يا قاتل .

وظنّ انها لعنة ودعاء يصب عليه من الجحيم . لقد شاهد الملك الشقي اجيلونا زوجته لانها لمّا تركت في عزلتها ، وانتظرت طويلاً وصول دانيال ولم يصل ، ونفذ الطعام والشراب ، خرجت من محبسها وتاهت في البراري جائعة يائسة ، فالتقت بلذريق ، فلم يلو عليها . واذا بها تجد ذاتها بين بعض الفرسان العرب الجادين في مطاردة فلول القوط ، ادركوها والعياء قد ذهب بها ، فقادوها الى طارق . ولذريق غاب في اعماق الليل ، وانقطعت اخباره .

وفي صباح اليوم التالي ، ركب طارق فرسه ، وجال به في ساحة القتال المغطاة بالجثث . شهدت حطام جيش القوط .

والنهر ما زال يجري دماً ، والجثث ملقاة فيه ، زهرة جيش القوط وطأتها حوافر الخيل .

وبعد ان تفقد ساحة القتال ، امر طارق ان تحمل الغنائم الى حضرته . غنائم لا تحصى . سلاسل ذهبية وحلى وجواهر وحجار كريمة ، وحرير مزركش ، ناهيك عن الثياب الفاخرة التي كان يلبسها اشراف القوط في آخر عهد انحطاطهم. وعثر ايضاً على مبالغ كبيرة من المال جاء بها لذريق للانفاق على الحملة العسكرية.

وأمر طارق بان تجمع جثث المسلمين وتدفن، امّا جثث القوط، فجعلت منها اكوام وأحرقت . فشوهدت النيران عن مسافات بعيدة في الليل . وافسدت القتلى الجوّ طيلة شهرين . وبقيت العظام اكثر من اربعين سنة ، وحتى بعد مرور اجيال عديدة كان المزارع عندما يقلب ارضه ، يجد بقايا من درع او سيف أو نبل .

وطارد العرب فلول المنهزمين طيلة ثلاثة ايام ، يقتلون منهم ويأسرون ، بنوع انه لم ينجُ من ذلك الجيش العظيم سوى طويل العمر . وعثروا على اوريليا فرس لذريق قرب النهر تعلك اللجام بالقرب من نعله ووشاحه وقضيب الملك . وفي ذلك المكان يتّسع النهر ، وتعمق مياهه ، وقد ألقيتْ فيه جثث الكثيرين ، ومن المعقول ان تكون جثة لذريق بين تلك الجثث .

وقال الرازي : وكانت الملاقاة يوم الاحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحرب بينهم الى يوم الاحد لخمس خلون من شوال ، بعده تتمة ثمانية ايام ، وحاز العرب من عسكرهم ما يجل قدره ، فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب يجدونها في اصابعهم ، ويعرفون من دونهم بخواتم الفضة ، ويميّزون عبيدهم بخواتم النحاس . فجمع طارق الفي وخمسة ، ثم اقتسمه على تسعة آلاف من المسلمين سوى العبيد والاتباع .

وتسامع الناس من اهل بر العدوة بالفتح على طارق بالاندلس ، وسعة الغنائم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر فلحقوا بطارق .

١٥

اولاد غيطشة

لما صاروا الى طارق بالامان وكانوا سبب الفتح ، قالوا لطارق : انت امير نفسك ام فوقك امير ؟ فقال : بل على رأسي امير ، وفوق ذلك الامير امير عظيم . فاستأذنوه باللحاق بموسى بن نصير بافريقية ليؤكدوا سببهم به . وسألوه الكتاب بشأنهم معه وما اعطاهم من عهده ، ففعل ، وساروا نحو موسى ، فتلقوه في انحداره الى الاندلس بالقرب من بلاد البربر وعرفوه بشأنهم ، ووقف على ما خاطبه به طارق في ذمتهم وسابقتهم ، فأنفذهم الى امير المؤمنين الوليد بالشام بدمشق ، وكتب اليه بما عرّفه به طارق من جميل اثرهم . فلما وصلوا الى الوليد ، اكرمهم وانفذ لهم عهد طارق في ضياع والدهم وعقد لكل واحد منهم سجلاً ، وجعل لهم ان لا يقوموا الداخل عليهم . فقدموا الاندلس وجازوا ضياع والدهم اجمع ، واقتسموها على موافقة منهم . فصار منهم لكبيرهم « المند » الف ضيعة في غرب الاندلس . فسكن من اجلها اشبيلية مقترباً منها ، وصار لارطباش الف ضيعة وهو تلوه في السن ، وضياعه في موسطة الاندلس ، فسكن من اجلها قرطبة . وصار لثالثهم « ءقلة » الف ضيعة في شرقي الاندلس ، وجهة الثغر ، فسكن من اجلها مدينة طايطلة . فكانوا على هذه الحال صدر الدولة العربية الى ان هلك « المند » كبيرهم ، وخلف ابنته ساره المعروفة بالقوطية ، وابنين صغيرين ، فبسط يده ارطباش على ضياعها ، وضمها الى ضياعه ، وذلك في خلافة امير المؤمنين هشام بن عبد الملك .

فأنشأت سارة بنت « المند » مركباً باشبيلية حصيناً كامل العدة ، وركبت فيه مع اخويها الصغيرين تريد الشام حتى نزلت بعسقلان من ساحلها ، ثم قصدت باب الخليفة هشام بداره دمشق ، فأنهت خبرها . وشكت ظلامتها من عمها ،

وتعديه عليها ، واحتجت بالعقد المنعقد لأبيها واخوته على الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فأوصلها هشام الى نفسه ، واعجبته صورتها وحزمها ، وكتب الى حنظلة بن صفوان عامله بافريقية بانصافها من عمها ارطباش ، وامضائها واخويها على سنة الميراث فيما كان في يد والدها مما قاسم فيه اخوته . فأنفذ لها الكتاب بذلك الى عامله بالاندلس ابي الخطار ابن عمه ، فتمّ لها ذلك . وانكحها الخليفة هشام بن عيسى بن مزاحم ، فابتنى بها باشام ، ثم قدم بها الى الاندلس ، وقام لها في دفاع عمها ارطباش عن ضياعها ، فنال بها نعمة عظيمة ، وولد له منها ولداه ابراهيم واسحق ، فأدركا الشرف المؤثل والرياسة باشبيلية ، وشهرا نسلهما بالنسبة الى امهما سارة القوطية . وكانت ايام وفادتها على الخليفة هشام ، رأت عنده حفيده عبد الرحمن بن معاوية الداخل الى الاندلس ووفدت اليه فاعترف بذمامها واكرمها ، وأذن لها في الدخول الى قصره متى جاءت الى قرطبة ، فيجدد تكرمتها ولا يحجب عياله منها .

وتوفي زوجها في السنة التي ملك فيها عبد الرحمن الاندلس ، فزوّجها عبد الرحمن من عمير بن سعيد ، وكان لها ولأبيها « المند » وعمها « ارطباش » في صدر الدولة العربية بالاندلس اخبار ملوكية منها ما حكاه الفقيه محمد بن عمر ابن لبابة المالكي : انه قصد ارطباش يوماً الى منزله عشرة من رؤساء رجال الشاميين فيهم الصميل وابن الطفيل ، وابو عبدة وغيرهم ، فأجلسهم على الكراسي وبالغ في تكريمهم ، ودخل على اثرهم ميمون العابد جد بني حزم . وكان في عداد الشاميين ، الا انه كان شديد الانقباض عنهم لزهده وورعه . فلما بصر به ارطباش ، قام اليه دونهم اعظاماً ، ورقاه الى كرسيه الذي كان يجلس عليه ، وكان ملبساً صفائح الذهب ، وجذبه ليجلسه مكانه ، فامتنع عليه ميمون ، وقعد على الارض ، فقعد ارطباش معه عليها واقبل عليهم قبلهم فقال له : يا سيدي ، ما الذي جاء بك الى مثلي ؟ فقال له : ما تسمعه انّا قدمنا الى هذا البلد غزاة نحسب ان مقامنا فيه لا يطول ، فلم نستعد للمقام ولا اكثرنا من العدة . ثم حدثت بعدنا على مواليتنا ، وفي اجنادنا ما قد ايسنا معه من الرجوع الى اوطاننا ، وقد وسّع الله عليك ، فأحب ان تدفع اليّ ضياعاً من ضياعك اعتمرها بيدي ، واؤدي اليك الحق منها ، وآخذ الفضل لي طيباً اتعيّش منه . فقال : لا ارضى لك بالمساهمة ، بل اهب لك هبة مسوّغة . ثم دعا بوكيل له وقال : سلّم اليه المجشر الذي لنا على وادي شوش بما لنا فيه من العبيد

والدواب والبقر وغير ذلك ، وادفع اليه الضيعة التي بجيان . فتسلّم ميمون الضيعتين وورثهما ولده ، واليهم نسبت قلعة حرم . فشكره ميمون ، واثنى عليه ، وقام عنده . وقد انف الصميل من قيامه ، فأقبل على ارطباش وقال له : « كنت اظنك ارجح وزناً . ادخل عليك وانا سيّد العرب بالاندلس في اصحابي هؤلاء وهم سادة الموالي ، فلا تزيدنا من الكرامة على الاقعاد على اعوادك هذه ، ويدخل هذا الصعلوك ، فتصير من اكرامه الى حيث صرت » . فقال له : يا ابا جوشن ، ان اهل دينك يخبروننا ان أديبهم لم يرهفك ولو كان ، لم تنكر عليّ ما فعلته . انكم ، اكرمكم الله ، انما تكرمون لدينياكم وسلطانكم ، وهذا انما اكرمه الله تعالى ، لقد روينا عن المسيح عليه السلام انه قال : من اكرمه الله تعالى من عباده بالطاعة له وجبت كرامته على خلقه .

فكأنما ألقمه حجراً . وكان الصميل أميّاً فلذلك عرّض به . فقال له القوم : دعنا من هذا وانظر فيما قصدنا له ، فحاجتنا حاجة الرجل الذي قصدك فأكرمته فانظر في شأننا . فقال له: « انتم ملوك الناس وليس يرضيكم الا الكثير ، وها انا اهب لكم مائة ضيعة تقتسمونها عشرا عشرا » . وكتب لهم بها وامر وكلاءه بتسليمها اليهم ، فكان القوم يرونها من اطيب املاكهم .

١٦

افتتاح قرطبة

وفرّق طارق جيوشه ، فبعث مغيثاً الرومي مولى الوليد بن عبد الملك الى قرطبة ، وكانت من اعظم مدائنهم ، في سبعمائة فارس لان المسلمين ركبوا جميعاً خيل الاعاجم ، ولم يبقَ فيهم راجل ، وفضلت عنهم الخيل . فكمن مغيث بعدوة نهر شقنده في غضة ارزة شامخة . وارسلت الادلاء فأمسكوا راعي غنم فسئل عن قرطبة فقال : رحل عنها عظماء اهلها الى طليطلة ، وبقي فيها اميرها في اربعمائة فارس من حماتهم مع ضعفاء اهلها . وسئل عن سورها فأخبر انه حصين ، عال فوق ارضها الا انه فيه ثغرة ، ووصفها لهم . فلما اجنهم الليل ، اقبلوا نحو المدينة ، ووطأ الله لهم اسباب الفتح بان ارسل السماء رذاذاً اخفى دقدقة حوافر الخيل ، واقبل المسلمون رويداً حتى عبروا نهر قرطبة ليلاً وقد اغفل حرس المدينة احتراس السور فلم يظهروا عليه ضيقاً باللذي نالهم من المطر والبرد . فترجل القوم حتى عبروا النهر ، وليس بين النهر والسور الا مقدار ثلاثين ذراعاً او اقل . وراموا التعلق بالسور فلم يجدوا متعلقاً ، فرجعوا الى الراعي لدلالتهم على الثغرة التي ذكرها ، فأراهم اياها ، فاذا بها غير متسهلة التسنم . الا انه كانت في اسفلها شجرة تين مكنت افنانها من التعلق بها . فصعد رجل من اشداء المسلمين في اعلاها . ونزع مغيث عمامته فناوله طرفها ، وأعان بعض الناس بعضاً حتى كثروا على السور ، وركب مغيث ، ووقف من الخارج ، وامر اصحابه المرتقين للسور بالهجوم على الحرس ، ففعلوا ، وقتلوا نفراً منهم ، وكسروا اقفال الباب وفتحوه . فدخل مغيث ومن معه وملكوا المدينة عنوة .

فصعد الى البلاط منزل الملك ومعه ادلاؤه وقد بلغ الملك دخولهم المدينة ، فبادر بالفرار عن البلاد في اصحابه ، وهم زهاء اربعمائة .

وخرج الى كنيسة بغربي المدينة وتحصّن بها ، وكان الماء يأتيها تحت الارض من عين في سفح جبل ، ودافعوا عن انفسهم ، وملك مغيث المدينة وما حولها . واقام على محاصرة العجم بالكنيسة ثلاثة اشهر ، حتى ضاق من ذلك ، فتقدم الى اسود من عبيده اسمه رباح وكان ذا بأس وغيرة بالكمون في جنان الى جانب الكنيسة ملفة الاشجار لعله ان يظفر له بعلج يقف به على خبر القوم ففعل . ودعاه ضعف عقله الى ان صعد في بعض تلك الاشجار وذلك ايام الثمر يجني ما يأكله ، فبصر به اهل الكنيسة وشدوا عليه فأخذوه وهم في ذلك هائبون له ، متكرون لخلقه اذ لم يكونوا عاينوا اسود قبله ، فاجتمعوا عليه وكثر لغطهم وتعجبهم من خلقه وحسبوا انه مصبوغ ، فجردوه وسط جماعتهم وأدنوه الى القناة التي منها كان يأتيهم الماء واخذوا في غسله وتدليكه بالحبل حتى ادموه. فاستغاثهم وأشار الى ان الذي به خلقة من بارئهم عز وجل . ففهموا اشارته وكفوا عنه وعن غسله ، واشتدّ فزعهم منه ، ومكث في اسرهم سبعة ايام لا يتركون التجمع عليه والنظر اليه الى ان يسّر له الله الخلاص ليلاً ففرّ وأتى الامير مغيثاً فخبره شأنه ، وعرفه بالذي اطلع عليه من شأنهم ، وموضع الماء الذي ينتابونه . ومن اي ناحية يأتيهم .

فأمر اهل المعرفة بطلب تلك القناة في الجهة التي اشار اليها الاسود حتى اصابوها ، فقطعوها عن جرّتها الى الكنيسة ، وسدوا منافذها فأيقنوا بالهلاك حينئذ. فدعاهم مغيث الى الاستسلام او الجزية ، فأبوا عليه ، فأوقد النار عليهم حتى احرقهم ، فسميت كنيسة الحرقى . والنصارى تعظمها لصبر من كان فيها على دينهم مع شدة البلاء .

غير ان العلج اميرهم رغب بنفسه عن بليتهم عند ايقان الهلاك ، ففرّ عنهم وحده ، وقد استغفلهم ورام اللحاق بطليطلة ، فبلغ خبره الى مغيث ، فبادر الركض خلفه وحده فلحقه بقرب مدينة طلبيرة هارباً وحده وتحته فرس اصغر ذريع الخطو . وحرّك مغيث خلفه فالتفت العلج ودهش لمّا رأى مغيثاً قد رهقه وزاد في حث فرسه ، فقصّر به ، فسقط عن فرسه واندق عنقه فقبض عليه مغيث ، وسلبه سلاحه وحبسه عنده ليقدم به على امير المؤمنين . ولم يأسر من ملوك الاندلس غيره لان بعضهم استأمن وبعضهم هرب الى جليقية . وجمع مغيث يهود قرطبة ، فضمهم الى مدينتها استنامة اليهم دون النصارى للعداوة بينهم . وانه اختار القصر لنفسه والمدينة لاصحابه .

* * *

١٧

وكان سقوط لذريق وجيشه على ضفاف وادي بكة قد فتح جنوبي اسبانيا امام المسلمين . فالبلاد بأجمعها هربت من امامهم . ضياع وقرى هجرهـا اصحابها على عجلة . فالسكان وضعوا المرضى والشيوخ والنساء على ظهور البغال والدواب مبتعدين بهم الى اقاصي البلاد الى الجبال الشامخة ، الى المدن ذات الاسوار . وكثيرون منهم اعياهم سير الطريق فتوقفوا وسقطوا بيد العدو ، وغيرهم عند مشاهدتهم حمامة او نفيرا ، كانوا يتخلون من بغالهم ودوابهم ومواشيهم ويقنعون من الغنيمة بالنجاة بأنفسهم . فالطرق كانت تذخر بالمواشي والقطعان المهملة .

غير ان العرب لم يستسلموا الى السبي والنهب والتقتيل . على خلاف ذلك ، تصرفوا بالعدل . وطارق بن زياد الذي كان رجل حرب دلّ على فطنة وشهامة ، فضرب بيد من حديد على من تسوّل له نفسه من رجاله التعدي على الشعب الآمن المسالم . فمنع النهب والسبي الاّ في حالة الحرب او اذا وجد مقاومة .

ولم يكن طارق بحاجة الى استعمال الشدة والعنف مع رجاله الذين كانوا يطيعونه طاعة عمياء معجبين ببطولته .

وفي حين كان طارق يتقدم في سهول الاندلس ، بعث الى موسى بن نصير يعلمه بالنصر المبين . فوصلت الى معسكر موسى البعثات والوفود اثر الوفود مبشرة بالفتح ، مشيدة بشجاعة قائدها وحنكته ودرايته . فكانوا يقولون :

طارق اباد قوات العدو في معركة حاسمة . فملك الاعداء قتل الى جانب عشرات الألوف من رجاله لاقت حتفها في ساحات الوغى ، والبلاد تحت رحمتنا . فالمدن والحصون تتساقط الواحدة تلو الأخرى. لا شيء يقف امام جيشنا المظفر .

فشقّ على موسى بن نصير هذا النبأ ، وعزّ عليه ان تنتصر جيوش طارق ، وداخله بعض الحسد ، لان هذه الانتصارات تكسف من انتصاراته التي حققها في شمالي افريقية .

وفي الحال وجه البريد الى الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي في الشام يطلعه على ما جرى في الاندلس ، ناسباً هذه الانتصارات له دون طارق . فكتب يقول : المعارك كانت ضارية مثل يوم القيامة ، ولكن بعون الله حققنا الظفر .

ثم استعد بسرعة في الابحار الى الاندلس واستلام قيادة القوات العربية فيها ، بعد ان بعث رسالة الى طارق ينهاه فيها عن مواصلة الزحف والتوغل في اراضي العدو ، فيقول له : حال استلامك رسالتي هذه ، تتوقف عن زحفك اين كنت . وانتظر وصولي . فقواتك غير قادرة على السيطرة التامة على البلاد ، وقد يكون من عدم الفطنة التوغل في اراضي العدو . قريباً اصل اليك بجيوش طرية .

استلم طارق الكتاب من موسى وهو في اوج انتصاره . فبعد ان سيطر على قسم كبير من الاندلس، واستولى على مدينة استيجة ، وبقدر ما يواصل قراءة كتاب موسى ، كان الاحمرار يعلو جبينه ، والشرر يقدح من عينيه لانه عرف نوايا موسى . فتوجه الى جنوده قائلاً : ترجّلوا عن خيولكم ، وارموا رماحكم الى الحضيض ، وانصبوا خيامكم واستريحوا لاننا علينا ان ننتظر وصول الوالي بجيش عظيم لمساعدتنا في الاحتلال .

فصرخ المقاتلون العرب عند سماعهم هذه الكلمات : وما حاجتنا الى المساعدة والاعداء يهربون امامنا كالغنم ، ومن افضل من طارق يسير بنا في طريق النصر؟

والقند يوليان الذي كان حاضراً ابدى رأيه في الامر فقال : « ولماذا التردد في هذه الساعة الثمينة ؟ فجيش القوط قد قهر وقواده قتلوا او تشتتوا . واصلوا مسيرتكم الظافرة قبل ان تسترد البلاد انفاسها . اجتاحوا المدن وأغزوا المقاطعات . احتلوا العاصمة ، ويكون انتصاركم شاملاً .

فصفّق الحاضرون طويلاً للقند يوليان لانه تكلم بلسانهم جميعاً ، وطارق لم يكن بحاجة الى الكثير من الاقناع لمواصلة الزحف ، ضارباً بكتاب موسى عرض الحائط . فهيّأ مواصلة الزحف الظافر .

واستعرض طارق قواته في سهول استيجه ، والبعض من جنوده كانوا يمتطون الجياد التي جاؤوا بها من افريقية ، وغيرهم يركبون الخيول التي استولوا عليها من القوط في ساحة القتال . وتلا طارق الاوامر على الجنود : لا تمثّلوا ولا تقتلوا ولا تنهبوا الاماكن التي لا تبدي مقاومة . اكتفوا بالغنائم والزاد والقوت .

ومسيرة طارق يسبقها الرعب الذي كان يثيره جنوده في نفوس الناس . وفي كثير من الاماكن التي وصل اليها ، كان يهرع اليه السكان عارضين الطاعة وطالبين الامان على حياتهم واموالهم وممتلكاتهم ، لان لا قلاع تحميهم ولا جند تدافع عنهم ، فرسانهم سقطوا في ساحة الوغى . فقبل عنهم طارق ، واستجاب لطلبهم ، وصان اموالهم وحياتهم ، وتقبّلهم كرعايا لامير المؤمنين المالك في الشام .

وبعد ان توغل في البلاد ، وصل الى سهل فسيح مزروع بالقرى والضياع في غوطة جميلة ، تلك كانت مدينة غرناطة التي كتب لها ان تكون مسكن العرب زمناً طويلاً . ولمّا شاهد العرب تلك الغوطة ، وقفوا مدهوشين امام جمالها ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم ، اعطاهم هذه المكافأة لخدماتهم الجلى في القضية الاسلامية .

فاقترب طارق من المدينة الجاثمة على قمة جبل ، محصنة بالاسوار والابراج القوطية ، وقلعتها الحمراء ، وأعجبه موقعها ، فنصب خيامه امام الاسوار استعداداً لمهاجمتها بكل قواه .

غير ان المدينة لم يكن لها من القوة سوى المظهر الخارجي ، اذ ان زهرة شبابها قصفتْ في معركة وادي بكة ، والكثيرون من سكانها هربوا الى الجبال ، ولم يبقَ فيها سوى الشيوخ والاطفال والنساء ، وقسم من اليهود ، مستعد لمساعدة الفاتح . فاستسلمتْ المدينة بسهولة ، ونالت الامان ، واحترمت معابدها وكهانها ، ولم يطلبوا منهم جزية اكثر مما كانوا يدفعونه لملوك القوط .

ولمّا استولى طارق على غرناطة ، حصن ابراجها وقلاعها ، وترك عليها قائداً اسمه باديس بن حبوس ، وكان قد تميّز بشجاعته ومقدرته في الحكم . واصبح هذا فيما بعد ملكاً على غرناطة .

غير ان سحر هذه المدينة لم يسيطر على عقل طارق ، فيمنعه عن مواصلة الزحف . فشاهد باتجاه المشرق جبالاً شاهقة تكسوها الثلوج . فرأى ان لا بد من الاستيلاء عليها ، فقصدها تاركاً ابن حبوس في غرناطة ، وسار بجيشه في غوطة غرناطة ، فهرب السكان جزعاً لمّا سمعوا النفير العربي يدق . والخيالة ذوو العمائم تقترب منهم . وواصلوا السير ، ولم يزعجهم احد ، ودخلوا في ممر ضيّق بين جبلين ، وتساقطت عليهم السهام والحجارة من المعتصمين في تلك المغاور فقتلتْ بعض الفرسان ، فأعلن طارق الانسحاب . وعاود الكرة ، وصبّت عليه السهام والحجارة مرة اخرى . ورأى ان يعدل عن احتلال تلك المضايق الوعرة لو لم يتقدم اليه نصراني طالباً الامان والحماية من الانتقام منه وهو يقودهم في طريق جبلية تؤدي بهم الى قلب الجبل والسيطرة عليه .

ووجد الريفيون انفسهم مطوّقين ، قوات تزيدهم اضعاف الاضعاف . فلم يروا بدأ من الاستسلام . فهبط اسقفهم من الجبال الى خيمة طارق للمفاوضة بشروط التسليم . فسمح لهم بابقاء بيوتهم واملاكهم وامتعتهم الخاصة ، ولا احد يعترضهم في ممارسة دينهم ، وتحترم معابدهم وكهنتهم ، ولا يمسّهم انسان بأذى . وأقام عليهم والياً اسمه ابراهيم البشرات .

ثم قرر طارق مواصلة الزحف في السهل القريب من المدينة ، ظانين ان المقاومة فيها ستكون شديدة ، فاستعدوا لحصار طويل .

ولمّا كان طارق يعد خطة الهجوم على المدينة ، الا وصل بعض رجاله بصحبة حاخام يهودي كان تدلى من الاسوار ، واقترب منهم ، فسأله طارق : ما جئت تصنع هنا ؟ — مر ان يخرج هؤلاء .

ولمّا اصبح طارق وحيداً مع اليهودي ، خاطب طارقاً باللغة العربية : اعلم يا قائد جند المسلمين اني قادم اليك من قبل اليهود المقيمين في طليطلة ، ولقد اضطهدنا ونزعتْ منّا اقواتنا لمّا وجد سكان المدينة ان الحصار سيضيّق عليهم ، وأرغموا على العمل كالعبيد في اعادة بناء الاسوار وترميمها . اننا نكرههم ، ونحن مستعدون لتسليم الابراج التي اوكلت الينا حراستها اذا قبلتنا من رعاياك ، وسمحت لنا بممارسة شعائرنا الدينية ، واعطيتنا الامان على اموالنا وارواحنا .

فسرّ طارق كل السرور لهذا الاقتراح ، واكرم الحاخام ، وخلع عليه الخلع السنية وقال له : نفّذ ما تعهدت به ، وانا اعطيك اكثر ممّا طلبت .

وأعدا الخطة معاً .

وفي ليلة مظلمة ، اقتربت شلّة من جنود المسلمين الى الجهة التي يحرسها اليهود فأدخلوهم وخبأوهم في برج ، وتخفّى ثلاثة آلاف من العرب بين الصخور في مكان يشرف على المدينة . وفي اليوم التالي ، بعد سلب القرى ونهبها ، رفعوا خيامهم ، ورحلوا موهمين سكان طليطلة انهم قد فكّوا عنهم الحصار ، واقتنعوا بالغنيمة والاسلاب دون احتلال المدينة .

فدهش الطليطليون ، وشاهدوا من اعالي اسوارهم رحيل الجيوش العربية . وقبل حلول الليل ، كان قد اختفى كل فارس عربي ، ولم يعودوا يشاهدون عمامة واحدة . فنسب النصارى هذا الانسحاب الى القديسة « لوقادية » شفيعة المدينة .

وفي اليوم التالي كان عيد الشعانين ، خرجوا في تطوافاتهم ، حاملين سعف النخل والزيتون ، رجالاً ونساءً واطفالاً ، متوجهين الى الكاتدرائية ، يشكرون القديسة على حمايتها لهم وكانت الكنيسة خارج الاسوار .

فهجم عليهم العرب الكامنون ، وجرت مذبحة بايعاز من الأسقف اوباس .

والتجأ بعض النصارى الى الكنيسة ، غير ان الاسقف اوباس ، امر باحراق الابواب ، مهدداً بقتل الجميع . وأقبل طارق في وقته ليوقف الثورة ، ثورة ذلك المطران ، فدقّ النفير معلناً انسحاب القوات العربية ، وايقاف المذابح ، وشمل عفوه الجميع ، وترك لهم حرية ممارسة طقوسهم الدينية في كنائسهم السبع ، غير انه حرم عليهم بناء كنائس جديدة ، وبعضهم فضل مغادرة المدينة ، فسمح له بذلك دون ان ينقل معه شيئاً .

ووجد طارق غنيمة لا تقدّر في القصر الملكي . منها خمسة وعشرون تاجاً من الذهب الخالص مرصّعة بالجواهر والالماس والحجارة الكريمة . تيجان الملوك القوط الذين حكموا في اسبانيا ، وعند وفاة الملك ، يوضع تاجه في الكنز ، ويكتب على التاج اسم الملك وعمره .

وعندما استولى طارق على المدينة ، هرع اليهود اليه في صفوف طويلة ،

يرقصون ويهللون ويزوون هاتفين بحياته ، فأكرمهم ووهبهم قسماً من الغنائم .

ثم وجه طارق حملة ضد وادي الحجارة ، فاستسلمتْ اليه بدون مقاومة . واستولى فيما بعد على مدينة سالم حيث وجد طاولة ذات قيمة لا تقدَّر ، وكانت قسماً من الغنيمة التي استولى عليها « الاريقو» Alarico في روما لما احتلها القوط .

ويقول التقليد انها كانت طاولة من صنع الجان للملك سليمان الحكيم بن داود . فحافظ عليها طارق كأنها احسن ما وصلت اليه يده من غنائم ، وقرر ارسالها الى الخليفة الوليد بن عبد الملك . وسمّى العرب المدينة ، مدينة المائدة .

وقام بغارات عديدة ، وبعد ان جمع كميات كبيرة من الذهب والفضة والحجارة الكريمة رجع بهذه الغنيمة الى مدينة طليطلة .

• • •

١٨

ولمّا بلغ موسى بن نصير ما صنعه طارق وما اتيح له من الفتوح حسده وتهيأ للمسير الى الاندلس ، فأقبل نحوها بثمانية عشر الف رجل ، وكان دخوله الى الاندلس في شهر رمضان سنة ٩٣ هـ. وتنكب الجبل الذي احتله طارق ودخل على الموضع المعروف الآن بجبل موسى . فلما احتلّ الجزيرة الخضراء قال : « ما كنت لأسلك طريق طارق ولا اقفو اثره » . فقال له الادلاء اصحاب يوليان : « نحن نسلك طريقاً هو اشرف من طريقه وندلك على مدائن هي اعظم خطراً ، واشد خطباً ، واوسع غنماً من مدائنه ، لم تفتح بعد ، يفتحها الله عليك ان شاء الله تعالى مملّ سروراً .

وكان شغوف طارق قد غمه ، فساروا به في جانب ساحل شذونه ، فافتتحها عنوةً ، وألقوا بأيديهم اليه . ثم سار الى مدينة كرمونه ، وليس بالاندلس احصن منها ولا ابعد على من يرومها بحصار او قتال ، فدخلها بحيلة توجهت باصحاب يوليان . دخلوا اليهم كأنهم فلال ، وطرقهم موسى بخيله ليلاً ، ففتحوا لهم الباب ، واوقعوا بالحراس ، فملكتْ المدينة .

ومضى موسى الى اشبيلية جارتها فحاصرها ، وهي اعظم مدائن الاندلس شأناً ، واعجبها بياناً ، واكثرها آثاراً ، وكانت دار الملك قبل القوطيين . فلما غلب القوطيون على ملك الاندلس ، حوّلوا الساطان الى طليطلة ، وبقي رؤساء الدين فيها ، اعني اشبيلية ، فامتنعت اشهراً على موسى ، ثم فتحها الله عليه ، فهرب سكانها الى مدينة باجه ، فضمّ موسى يهودها الى القصبة ، وخلّف بها رجالاً ، ومضى من اشبيلية الى مدينة ماردة ، وكانت ايضاً دار مملكة لبعض ملوك الاندلس في سالف الدهر ، وهي ذات عز ومتعة ، وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر ، فائقة الوصف ، فحاصرها ايضاً ، وكان في اهلها منعة شديدة وبأس عظيم ، فنالوا من المسلمين دفعات وآذوهم . وعمل موسى دبابة ، دب المسلمون تحتها الى برج من ابراج سورها جعلوا ينقبونه .

فلما قلعوا الصخر ، وثار بهم العدو على غفلة ، فاستشهد بأيديهم قوم من المسلمين تحت تلك الدبابة ، فسمي ذلك الموضع برج الشهداء .

ثم دعا القوم الى السلم ، فترسل اليه في تقريره قوم من اماثلهم ، واعطاهم الامان ، واحتال في توهيمهم في نفسه ، فدخلوا عليه اول يوم ، فاذا هو ابيض الرأس واللحية ، فلم يتفق لهم معه امر ، وعادوه قبل الشهر بيوم ، فاذا هو قد قنى لحيته بالحناء ، فجاءت كغراب عرفج فعجبوا من ذلك . وعاودوه يوم الفطر ، فاذا هو قد سوّد لحيته ، فازداد تعجبهم منه ، وكانوا لا يعرفون الخضاب ولا استعماله ، فقالوا لقومهم : انّا نقاتل انبياء الله! يتخلّقون كيف شاؤوا ، ويتصورون في كل صورة احبوا . كان ملكهم شيخاً ، فقد صار شاباً ، والرأي ان نقاربه ونعطيه ما يسأله ، فما لنا به طاقة . فأذعنوا عند ذلك ، وأكملوا صلحهم مع موسى على ان اموال القتلى يوم الكمين ، واموال الهاربين الى خليفته ، واموال الكنائس وحليها للمسلمين ، ثم فتحوا له المدينة يوم الفطر سنة اربع وتسعين فملكها .

ثم ان عجم اشبيلية انقضوا على المسلمين ، واجتمعوا من مدينتي باجه ولبله اليهم ، فأوقعوا بالمسلمين وقتلوا منهم نحو ثمانين رجلاً ، وأتى فلّهم الامين موسى وهو بماردة .

وبعد سقوط ماردة ، جمع موسى قواده في وليمة عظيمة ، وصاروا يتحدثون عن مغامراتهم وانتصاراتهم ، وعبد العزيز بن موسى صامت حزين ، واغتنم فرصة صمت ، فتوجه الى ابيه وقال له بحشمة ورصانة : ابي وسيدي ، « يعزّ عليّ ان اسمع روايات البطولة من جنودك ، والاخطار التي تجشموها ، بينما لم آت امراً يجيز لي الجلوس معهم . فعندما ارجع الى مصر ومنها الى دمشق للمثول امام الخليفة ، ولا شك انه سائلني عن خدماتي في الاندلس والمعارك التي كسبتها ، والحصون والمدن التي اخضعتها . فما يكون جوابي ؟ فاذا كنت تحبني كابن لك ، سلّمني قيادة حملة ، وافسح لي المجال لشهرة يتحدث عنها الناس » .

فلمعت عينا موسى بالبهجة لما اكتشف في عبد العزيز هذه الروح العسكرية فهتف : تبارك الله سبحانه وتعالى ، صدقت يا ابني ، الشباب طموح ، ومن حقه الطموح . ستتحقق آمالك يا عبد العزيز !

وسنحتْ الفرصة ليبرهن الفتى عن جرأته واقدامه . وبالواقع فان النصارى الذين التجأوا الى باجه طيلة حصار ماردة ، وتوصلوا فيما بعد الى التمركز في بنيفلور ، ظهروا فجأةً امام ابواب اشبيلية ، ودكّ بعض المسيحيين في اشبيلية ابواب المدينة وساعدوا تلك القوات على دخولها ، واحتلوا القصر ، وذبحوا الكثير من الحامية العربية ، واستطاع القليلون منهم النجاة تاركين اشبيلية للمسيحيين .

فأعمل موسى الفكرة في استرداد اشبيلية ومعاقبتها .

« امامك يا ابني مشروع يرضي طموحك . خذ معك القوات التي رافقتك من افريقية واحتلّ من جديد اشبيلية ، وارفع علمك على القصر . ولكن لا تتوقف فيها ، بل تابع زحفك نحو المناطق الجنوبية من الاندلس حيث تحصد المجد » .

فلما سمع عبد العزيز هذا الكلام من ابيه ، تحرك للعمل في الحال ، وصحب معه القند يوليان ، ومغيثاً الرومي ، والأسقف اوباس لمساعدته في مهمه ، لأنهم يعرفون احوال البلاد . وعند وصوله الى تلك المدينة الاندلسية الجميلة ، كأنها ملكة جالسة بين وصيفاتها ، حدائقها وبساتينها والنهر يجري عند اسوارها . فتأملها الفتى معجباً بها اعجاب عاشق ، وأسف من اعماق قلبه ان يزورها غازياً ، منتقماً . بينما جنوده لم يروا فيها سوى المدينة الثائرة التي ذبحت اخوانهم .

وعامة الشعب الذي لم يشترك في تلك المذبحة الغريبة عنه ، لمّا رأى جيش عبد العزيز قد ضرب اطنابه على ضفاف النهر ، قرر الخروج والمثول بين يديه لايضاح ما جرى ، ولطلب الصفح والرحمة . غير ان رعاع القوم ، منعوهم من الخروج ، وغلقوا الابواب ، وقرروا الدفاع حتى النهاية .

فهوجمت المدينة بعنف زائد ، وتكسرت الابواب ، واندفعت منها القوات العربية الى الداخل مصممة على الانتقام . ولم تقتصر المذبحة على المدافعين عن القصر ، فان العرب جابوا الشوارع واخذوا البريء بجريرة المذنب ، واعملوا التقتيل ، حتى توصل عبد العزيز الى ايقاف تلك المذبحة الرهيبة .

وبرهن عن تسامحه بالظفر ، كما برهن عن جرأته في القتال ، مما اعاد الاطمئنان الى نفوس المغلوبين ، وترك حامية كبيرة العدد تحسباً لأي ثورة جديدة ، وانتقل الى مكان آخر ورافقه النصر في جميع حروبه ، وجعل الشهامة والتسامح

ديدنه . حتى وصل الى مرسية بجبالها العالية وسهولها الخصيبة . وكان يشرف عليها تدمير الذي بفضل لباقته تمكن من انقاذ منطقة تدمير .

وكان تدمير فارساً شجاعاً ورجلاً فطناً داهية ، كان يدرك انه من الحماقة الوقوف في وجه العرب ومحاربتهم وجهاً لوجه ، اذ لا طاقة له ولا لغيره في قهر الخيالة العربية ولا المشاة المدرّعة . وعند اقترابها ، جمع كل قادر على حمل السلاح ، ووزعهم في المغاور والمرتفعات وقال : كل راع قادر ان يقلب الصخور والحجارة الى اسفل ، لا يقل عمله عن المقاتل المدرّب . واخذ يناوش جيوش المسلمين في تحركاتهم ، ناصباً لهم الكمائن في الممرات الضيقة ، وممطرهم وابلاً من الحجارة والصخور من مرتفعات الجبال ، علّهم يملون من هذه الحرب التي لا يشاهدون فيها وجه العدو ، فيضطرون للخروج من تلك البلاد .

تلك خطة تدمير : لا قتال وجهاً لوجه . ولكن لسوء الحظ ، كان له ابنان طائشان متهوران ، يرون في خطة والدهما شيئاً من الجبن ، ورأيا ان يجابها العرب في ساحة الوغى . وقالا : اي مجد ينتظرنا اذا دمرنا العدو على هذا الشكل ، تحمينا الصخور والادغال ؟ فقال لهم والدهم تدمير : انكما تنطقان كفرين ، المجد جزاء لمن يحارب في ارض غريبة ولكن اذا كان العدو على الابواب ، فهدفنا ان نكون بمأمن منه . ومع ذلك فقد توصلا الى اقناع والدهما في النزول الى السهل . واغتنم عبد العزيز الفرصة في الحال للدفع بقواته الى اماكن تفصل القوط عن الجبال . وادرك تدمير الخطة العربية ولكن بعد فوات الاوان ، وقال : كيف تحارب قواتنا التي لا خبرة لها في القتال ضد هذه الفيالق من الخيالة التي تتقدم كالقلاع ؟ فلنسرع باللجوء الى اورهويلا ، ولنحتم بأسوارها .

فقال له ابنـــه الاكبر : لا سبيل الى الانسحاب . امكث هنا مع جنود الاحتياط ، ونتقدم انا واخي . لا تخش شراً ، ألستُ انا ولدك الذي يموت في الدفاع عنك ؟

فأجابه تدمير : بالحقيقة ارتاب في انكما ولداي . ولكن اذا بقيت هنا ومتماً ، من يستطيع عندئذٍ الدفاع عني ؟

ونادى ابنه الاصغر قائلاً : تعال انت يا ابني ، عجّل ولنتراجع قبل فوات الاوان .

فقال الاصغر : لا يخالجني ريب في أني ولدك واحترمك واكرمك ، غير ان لي واجبات اخرى مقدسة تجاه والدتي التي وعدتها بالقتال بشجاعة ، فباركني . واعتني اذا تصرّفت كجبان وهربت من ساحة القتال . فلا تخشَ شراً يا ابي ، سأدافع عنك ما مدّ الله بحياتي. واذا مت ، فستدفن مع آبائك واجدادك .

فصرخ فيه تدمير : طاعون يصيبك انت واخويك . لستما الاّ نغلين فاقدي العقل . اتظنان انه يهمني بعد موتي ان تضما جثماني في اجمل مدفن ؟ ان حياة يوم في كوخ توازي ابدية مدفون في قبر من الرخام .

وخاطب فرسانه قائلاً : فلنترك هذين المغرورين ، وننسحب . لاننا اذا تأخرنا فالعدو لا شك منقضّ علينا .

وعندما سمع الولدان المتكبران هذا الكلام ، جمعا صفوفهما وقالا لوالدهما : هل تحسبوننا جبناء لكي نولي الادبار ؟ إلى الامام ! هذا كان دائماً شعار القوط ، وعليه نموت .

وبينما كان هذا النقاش يدور ، كانت جيوش المسلمين قد تقدمت ، وأحكمت الحصار بنوع ان الانسحاب بات مستحيلاً ، ودارت معركة عنيفة : قاتل فيها تدمير قتال المستميت ، وشاهد ولديه يخران صريعين الى جانب القسم الاكبر من القوات التي انضمت اليهما ، والباقي لاذ بالفرار من كل ناحية .

ولمّا رأى ان لا امل يرجى ، دنا من حامل سلاحه وقال له : لا تبتعد عني ، على الاقل اسمع نصيحتي يا ولدي ، لاني اعتقد انك ولدي من جارية كانت عزيزة على قلبي . وكان صادقاً ، لان الفتى كان شديد الشبه به .

وابتعد تدمير عن ساحة القتال يرافقه خادمه دون توقف حتى وصلا الى اسوار اورهويلا وامر بأن توصد الابواب ، وتوضع الاقفال ، واستعد لاستقبال العدو .

وكان عدد الرجال ضئيلاً في المدينة ، لأن اكثر الفتيان سقط في القتال ، فأمر ان تلبس النساء زي الرجال ، ويعقدن شعورهن على ذقونهن ، حتى يبيّن وكأنهن لحى ، وأطلّ بهذه القوات المرتجلة على الاسوار .

واقترب عبد العزيز عند الغسق من المدينة ، وتوقف لمّا رأى قوة حاميتها . ورفع تدمير علم الهدنة ، وخرج من المدينة برفقة خادمه للاستسلام . فاستقبله عبد العزيز بحفاوة . فقال تدمير : جئت باسم حاكم المدينة للمفاوضة . وآمل

ان شهامتك تقضي بما تتطلبه الكرامة . لاحظت ان المدينة قادرة على المقاومة الى ما شاء الله . غير ان الحاكم يرغب في صيانة ارواح الجنود . عدني ان المدنيين يستطيعون الخروج ، دون مضايقة ، حاملين معهم ممتلكاتهم ، والمدينة تسلّم اليك غداً صباحاً . والا فاننا مستعدون للقتال حتى آخر رجل .

فسرّ عبد العزيز من الاستيلاء على مدينة بشروط سهلة القبول . ولكن طلب من الحامية تسليم السلاح ، فرضي تدمير بكل طيبة خاطر على شرط ان يعفى الحاكم وحاشيته نظراً لكرامتهم وكتبوا صك التسليم على هذا النحو :

صك واتفاق التسليم بين عبد العزيز موسى بن نصير ، وتدمير بن غبدوس ملك ارض تدمير . باسم الله الرحمان الرحيم . عبد العزيز وتدمير يوقعان هذا الاتفاق السلمي ثبّته الله وصانه . تدمير يحكم بلاده دون سواهم من النصارى ، ولا يكون بين الاثنين حرب ، ولا تسبي نساؤهم واولادهم ، ولا اعتراض عليهم في دينهم ، ولا تحرق كنائسهم . وهذا الاتفاق يجري على سبع مدن ، هي : اورهويلا ، وبلنتيلا ، وليقنت ، ومولة ، وبوكساره ، واوتا ، ولورقة ، ولا يستقبل اعداءنا ، ولا ينقض امانتنا ، ويدفع هو واشرافه ، ديناراً في السنة ، واربعة امداد من الحنطة ، واربعة اخرى من الشعير ، واربعة من الخل ، واربعة من العسل ، واربعة من الزيت ، والعبيد يدفعون نصف هذه الكمية .

كتب في ٤ رجب سنة ٩٤ هجرية

وشهد على ذلك عثمان بن ابي عبده ، وحبيب بن ابي عبيدة ، وادريس ابن ميسرة ، وابو القاسم المزالي .

وبعد توقيع الاتفاق ، اعلن الرسول انه هو حاكم النصارى ، وسرّ عبد العزيز كل السرور واشاد بشهامته وحسن تصرفه . وتناولوا الطعام معاً كما لو كانوا اصدقاء منذ زمن بعيد . وعاد تدمير الى المدينة في ذلك الليل ، وامر عند طلوع الفجر ان تفتح الابواب ، واسرع هو واعوانه لاستقبال عبد العزيز ، ودخل حبيب وبقية الاشراف المسلمين الى المدينة من راجل وفارس . ودهشوا لما رأوا القليل من الرجال ، وسأل عبد العزيز تدمير : ماذا فعلت بجنودك الذين كانوا يكللون الاسوار ؟

فأطلعه تدمير على حيلته التي اعجبت الجميع(١) ، وحلّ ضيفاً عنده ثلاثة ايام ، ثم سافر عبد العزيز دون ان يلحقه اذى او ضرر في الاراضي ، فاجتاز وادي سقورة ودجل في بسطة وجيان والبيرة وغرناطة التي كانت بيد اليهود ، وانتفيرة ومالقة ، ومدناً اخرى على الشاطئ بدون مقاومة ، وكان يرافقهم في هذه الغزوة عثمان بن ابي عبيدة القرشي الذي كان دائماً رفيق موسى بن نصير ابيه وكان اول من اثبت معاهدة الصلح مع تدمير بن غبدوس النصراني ملك الناحية الشرقية من الاندلس ، وكان يرافقه ايضاً عبد الله بن ميسرة الفهامي وكان رفيقاً لموسى بن نصير ايضاً .

ثم اشاد بالقواد الآخرين الذين اسهموا في مجد الاسلام ، غير انهم لم ينبسوا ببنت شفة ، وظهر على سيمائهم الاستياء والتذمر من سوء المعاملة التي تعرّض لها قائدهم المحبوب طارق . امّا هذا وان كان الشرر يتطاير من عينيه ، فقد كبح جماح غضبه عند حده .

ـ بذلتُ كل ما في وسعي في خدمة الله والخليفة والاسلام . وضميري لا يوبخني .

ـ هل يستطيع الخليفة ان يلومك ؟ كلا غير اني لا اقدر ان اسلم زمام مصالحه الى رجل يائس لا يطيع اوامري ، ويرمي كل شيء في كف القدر . ان قائداً كهذا ليس جديراً بان يعهد اليه امر جيشنا . ثم خلع طارقاً عن القيادة وسلّمها الى مغيث الرومي . وتجاه هذا الوضع اكتفى طارق بالقول : الخليفة ينصفني .

ولمّا سمع موسى هذا التحدي ، تملّكه الغضب ، وامر بالقاء طارق في السجن مهدداً اياه بالموت .

وامّا مغيث الرومي الذي ترقّى على حساب طارق كما يقول المثل « مصائب قوم عند قوم فوائد » ، لم يسعه الا الكلام لصالحه ، وفي الدفاع عنه . فقال لموسى :

---

(١) ـ الا الأسقف أباس والقند يوليان ، فقد اعترضا قائلين : ان في التسليم غشاً ولا يجب ان تنفذ شروط المعاهدة . ولكن عبد العزيز امر بتنفيذها بحذافيرها .

تأمّل كيف تكون عاقبة هذا التصرف الجائر . طارق له انصار كثيرون في الجيش الى جانب ان اعماله العسكرية بارزة وموفقة تؤهله الى اسمى المراتب ، واثنى المكافأة بدل الاهانة والسجن الذي سقته اليه .

غير ان ثورة موسى لم تخمد لانه كان عازماً على تبرير مسلكه ، فكتب رسالة الى الخليفة يطلعه فيها على عدم انضباط طارق ، وعدم فطنته وتدهوره .

وما طال الامر حتى استلم موسى كتاباً من الخليفة يؤنّبه فيه على تصرفه تجاه طارق ، ويأمره باعادته الى مركزه في قيادة الجيش الذي سار به من نصر الى نصر ، وانه من الزلل ان نترك سيفاً مهملاً من احسن سيوف الاسلام . وعلى هذا الشكل ، ان الانسان الحسود ، يجرّ على نفسه الذل واللوم عندما يريد افساد او تحقير او تقليل عمل جليل حققه غريمه .

وسرّ الجيش لمّا علم بجواب الخليفة ، واعادة الحق الى نصابه . وقرأ موسى في وجوه الحاضرين لوماً صارماً على تصرفه تجاه طارق . غير انه اخفى ما به وتظاهر بالرضوخ لاوامر الخليفة بطيبة نفس .

ثم اطلق سراح طارق ، واكرمه وادناه ، وقلّده من جديد قيادة عساكره ، فاستقبلت القوات قائدها بالسرور وبطيبة النفس ، وتصرفهم وقع اسوأ الوقع في اذني موسى بن نصير .

ولمّا هدأت النفوس ، وطابت القلوب ، واخمدت نار الغضب ، وتصالح القواد فيما بينهم عمد موسى الى اتباع الخطة ذاتها التي سار عليها طارق في احتلال الجزيرة الإيبرية فسلّح جنوده باسلحة خفيفة محرراً اياها من جميع الاثقال التي ليسوا بحاجة اليها . فالفارس يحمل الى جانب سلاحه كيساً صغيراً لمؤونته وآنية من النحاس لطهي الطعام ، وجلداً يستخدم في الوقت ذاته لباساً وغطاء في النوم. والمشاة لا تنقل سوى سلاحها . ويحق لكل كتيبة اصطحاب عدد معيّن من الخدم والزميلة التي لا غنى عنها لحمل الاثقال والذخيرة . وأعطيت الاوامر بتحريم النهب والسبر تحت طائلة العقاب بالموت الا مخيمات العدو او المدن المعدة للنهب . واتخذ كل جيش طريقه فتوجه طارق نحو الشمال الشرقي لينقضّ على المنطقة حيث ينبع نهر التاجه مجتازاً سلسلة جبال ارغون حازياً خوطة نهر الإبره . انه لمن العجب العجاب السيطرة على بلاد واسعة في مدة قصيرة .

وبينما كان طارق يكنّس تلك المناطق ، اتخذ موسى وجهة سير تختلف . غير انهما اتفقا على اللقاء في الشمال ، فقصد سلمنقة فاستسلمت بدون مقاومة . ومن هناك واصل السير الى استرقة واخضعها بسهولة . ثم عاد نحو وادي الدويرة سائراً والنهر باتجاه المشرق فقطع جبال مونكايو ووصل الى حدود نهر الإبره ، وسار على ضفافه حتى ادرك مدينة سرقسطة ؛ وشرب موسى بن نصير من ماء « جلق » بسرقسطة ، فاستعذبه وحكم انه لم يشرب بالاندلس اعذب منه ، وسأل عن اسمه فقيل « جلق » ، ونظر الى ما عليه من اليساتين فشبهها بغوطة جلق الشام . وكان قد التجأ الى سرقسطة عدد كبير من فرسان القوط الاشداء هاربين امام القوات العربية . هذه المدينة هي آخر معقل في البلاد .

ولمّا وصل اليها موسى ، كان طارق قد سبقه ووضع عليها الحصار ، وجاع اهلها نظراً لما قاسوه من شدة الحصار ، غير انهم تصلبوا في عنادهم بالدفاع عنهـــا .

فاستلم موسى قيادة الجيوش العربية كاملة ، وامر بمهاجمتها من جميـــع النواحي . ورموا السلالم على الاسوار بجرأة غريبة كعادتهم غير انهم صدوا بعنف شديد ، ولم يتمكنوا من تثبيت اقدامهم على الاسوار .

عند ذلك امر القند يوليان بجمع الحطب امام ابوابها ، واشعل فيها النار . وعبثاً حاولوا من الداخل اخماد النيران المتأججة ، فاحترق الباب بسرعة ، وتقدم القند الى الداخل ممتطياً حصاناً شرساً مغطى بالزرد ، وتبعه ثلاثمائة فارس من انصاره بما فيهم مغيث ومعه فرقة من الخيالة .

فنازعهم السكان المدينة شبراً شبراً ، فأقاموا المتاريس والحواجز من جثث موتاهم . حتى النساء والاطفال انضموا الى المقاتلين من المنازل والشرفات والنوافذ والشرفات والسطوح . صراع مميت يائس ، قاذفين المهاجمين بالحجارة ، وجميع ما وصلت اليه ايديهم ، حتى المياه الساخنة ، صبوها على العدو .

وطال القتال حتى قدوم الليل ، عندئذ طلب السكان التفاوض للاستسلام . واشتد غيظ موسى من تلك المقاومة اليائسة التي كلّفته حياة الكثيرين من جنوده . وكان يعلم ان المدينة تحتوي على ثروات متجمعة من الشرق الاسباني ، فطلب دفع غرامة كبيرة سماها ضريبة الدم ، اذ بها ينجون من الذبح . ورأى الناس ان لا بد من الخضوع فجمعوا جواهر وحلى عائلاتهم ، ونفائس معابدهم لكي

بضعوها عند قدمي موسى الى جانب عدد كبير من الرهائن من الشبان والشابات. وهكذا خضعت سرقسطة لنير الفاتح .

وواصل القواد العرب طريقهم الى الجبال المسماة « البرتات » ، ثم انحدر طارق نحو الجنوب متبعاً سير الإبره على شاطئ البحر المتوسط ، فأخضع مدينة بلنسية الشهيرة ببساتينها ، وواصل الزحف حتى ادرك دانية .

وموسى من جهته ، سار بجيشه الى نقاط بعيدة ، فأخضع مدينتي برسلونه وجرونده وغيرهما . ثم دخل في بلاد الافرنج ، فاحتل مدينة اربونه ، ووجد في احد معابدها سبعة تماثيل من الفضة ، فاستولى عليها ، ثم عاد الى اسبانيا متجولاً في بلاد اشتوريس وجليقية ، وهبط الى البرتغال حتى وصل الى الاندلس الجنوبية مكللاً بالغار ، وجارا غنائم لا تأكلها النيران .

• • •

١٩

نهاية موسى بن نصير

كان مولد موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن يزيد سنة تسع عشرة من خلافة عمر بن الخطاب ، وكان معاوية بن ابي سفيان قد ولى نصيراً والرموس على حرسه ، فلم يقاتل معه . فقال له معاوية : ما منعك من الخروج معي على عليّ ويد لي عايك لم تكافئني عليها ؟ فقال له : لم يمكنني ان اشكرك بكفر من هو اولى بشكري منك . قال : ومن ؟ فقال : الله عز وجل . قال : وكيف لا ام لك ؟ قال : وكيف ما اعلمك بها فأغضي وامضي . فأطرق معاوية ملياً ثم قال : استغفر الله ، ورضي عن نصير .

لمّا قدم موسى بن نصير الى افريقية قبل فتحه الاندلس ومعه جماعة من الناس ، اخرج ابناً له يسمى عبد الله الى بعض نواحيها ، فأتاه بمائة الف راس . ثم وجّه ابناً آخر له يسمى مروان الى ناحية اخرى ، فأتاه بمائة الف راس . ثم توجه بنفسه الى ناحية اخرى فأتى بمائة الف راس . فبلغ الخمس يومئذٍ ستين الف فارس .

وقال الليث بن سعد : فلم يسمع بمثل سبايا موسى في الاسلام .

قدم مروان بن موسى بن نصير من السوس الاقصى وهو يجرّ الدنيا جرّاً بالسبي . فلما قدم رسوله على موسى ، خرج معه وجوه الناس تتلقاه ، فلما التقيا قال مروان بن موسى : مروا لكل من يلقاني مع ابي بوصيفة وصيفة . قال موسى : مروا لهم من عندي بوصيف وصيف . فانصرف الناس كلهم ، ومع كل واحد منهم وصيف ووصيفة .

ان موسى بن نصير لما افتتح الاندلس ، مضى وجهه يفتح المدن يميناً وشمالاً

حتى اتى طليطلة وهي مدينة الملوك . فوجد بها بيتاً يقال له بيت الملوك ، ففتحه ، فوجد فيه خمسة وعشرين تاجاً مكللة بالدر والياقوت ، وهي على عدد الملوك الذين ولوا الاندلس . كلما هلك منهم ملك جعل تاجه في ذلك البيت ، وكتب على التاج اسم صاحبه ، وكم اتى عليه من الدهر الى يوم مات ، وكم لبث في ملكه . ويقال ان عدة ولاة الاندلس من المسلمين من يوم افتتحتْ الى يوم تخرَّب ، تكون على عدد ملوك العجم الذين كانوا فيها ، خمسة وعشرين ملكاً .

وكان الى جانب هذا البيت الذي وجد فيه التيجان بيت آخر عليه اربعة وعشرون قفلاً ، كلما ولّى ملك ، ضرب عليه قفلاً كما فعل من كان قبله ، حتى كانت ولاية لذريق ، فقال قبل فتح الاندلس بقليل : والله لا اموت بغم هذا البيت ، ولا بد من ان افتحه حتى اعرف ما في داخله . فاجتمعت اليه النصرانية والشمامسة والاساقفة فقالوا له : ما تريد بفتح هذا البيت ؟ انشر ما ظننت ان فيه وخطر على قلبك فخذه منّا ولا تحدث علينا حدثاً لم يحدثه احد قبلك ممن كان من الملوك . فانهم كانوا اهل معرفة وعلم بما صنعوا ، فأبى الا فتحه للقدر المقدر ، فوجد فيه تابوتاً من خشب ، ووجد فيه تصاوير العرب وشكلهم ، معممين معهم القسي العربية وقد تقلدوا السيوف المحلاة ، ووجدوا في البيت كتاباً فيه : اذا فتح هذا البيت ، ودخل هؤلاء فيـــه الذين صفتهم ونعتهم هكذا هذه البلاد ، فملكوها وغلبوا عليها ، فكان دخول المسلمين عليهم في عامهم ذلك . وكان موسى قد امر بضرب الاوتاد لخيله تحت جدار البيت فنبت الاوتاد ، فلم تدخل عند الضرب ، واذا بصفائح الفضة والذهب حول البيت .

وقال ابو شبيبة الصدفي : لقد نشرت الى رجلين يحملان طنفسة مشوّجـــة بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت . فلما ثقلتْ عليهما ، انزلاها ، وحملا عليها الفأس ، فقطعاها بنصفين فأخذا نصفاً ، وتركا نصفاً . ولقد رأيت الناس يمرون عليها ، لا يلتفتون اليها ، اشتغالاً بما في ايديهم مما هو ارفع منها .

ان موسى بن نصير نصره الله ما عليه من فريد ، واجفلت ملوك النصارى بين يديه حتى خرج على باب الاندلس الذي في الجبل الحاجز بينهما وبين الارض الكبيرة ، فاجتمعت ــ الافرنج الى ملكها قرله فقالت له : كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى اتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد الاندلس بجمعهم القليل ، وقلة عددهم وعدتهم ، وكونهم لا درع لهم .

فقال لهم ما معناه : الرأي عندي ان لا تعترضوهم في خرجتهم هذه فانهم كالسيل يحمل من يصادره ، وهم في اقبال امرهم ، ولهم نيات تغني عن كثرة العدد ، وقلوب تغني عن حصانة الدروع ، ولكن امهلوهم حتى تمتلئ ايديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن ويتنافسوا في الرئاسة ، ويستعين بعضهم ببعض ، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر امر . فكان والله كذلك بالفتنة التي طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمضرية واليمانية ، وصار بعض المسلمين يستعين على بعض ممن يجاورهم من الاعداء .

وكانت نفس موسى في ذلك كله تنزعج الى دخول دار الكفر جليقية ، فبينما هو يعمل في ذلك ويعدل له ، اذ اتاه مغيث الرومي رسول الوليد بن عبد الملك ومولاه يأمره بالخروج من الاندلس ، والاضراب عن الوغول فيها ، ويأخذه بالقفول اليه ، فساءه ذلك وقطع به عن ارادته ، اذ لم يكن في الاندلس بدراً لم يدخله العرب الى وقته ذلك غير جليقية ، فكان شديد الحرص على اقتحامها . فلاطف موسى مغيثاً رسول الخليفة وسأله انظاره الى ان ينفذ عزمه في الدخول اليها والمسير معه في البلاد اياماً ، ويكون شريكه في الأجر والغنيمة ، ففعل ومشى معه حتى بلغ المفازة ، فافتتح حصن « يارو » وحصن « لك » ، فأقام هناك وبثّ السرايا حتى بلغوا صخرة بيلاي على البحر الاخضر . وطاعت الاعاجم ، فلاذوا بالسلم ، وبذل الجزية وسكنتْ العرب المفاوز . وكان العرب كلما مرّ قوم منهم بموضع استحسنوه ، حطّوا به ونزلوه قاطنين ، فاتسع نطاق الاسلام بارض الاندلس . وبينما موسى كذلك في اشتداد الظهور وقوة الامل اذ قدم عليه رسول آخر من الخليفة يكن ابا نصر ، اردف به الوليد مغيثاً لمّا استبطأ موسى في القفول ، وكتب اليه يوبخه ويأمره بالخروج ، وألزم رسوله ازعاجه ، فانقلع عندئذ من مدينة « لك » بجليقية ، وخرج على الفج المعروف بفج موسى . روافاه طارقٌ في الطريق منصرفاً من الثغر الاعلى ، فأقفله مع نفسه ، ومضيا جميعاً ومعهما من الناس من اختار القفول وأقام من آثر السكن في مواطنهم التي كانوا قد اختطوها واستوطنوها . وقفل معهم الرسولان مغيث وابو نصر حتى احتلوا باشبيلية ، فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على امارة الاندلس وأقر بمدينة اشبيلية لاتصالها بالبحر ، نظراً لقربه من مكارة المجاز . وركب موسى البحر الى الشرق بذي الحجة سنة خمس وتسعين وطارق معه. وكان مقام طارق قبل دخول موسى سنة وبعد دخوله سنتين واربعة اشهر .

وحمل موسى الغنائم والسبي وهو ثلاثون الف راس والمائدة منوّهاً بها ، ومعها من الذخائر والجواهر ونفيس الامتعة ما لا يقدر قدره . وهو مع ذلك متلهف على الجهاد ، فانه اسف على ما لحقه من الازعاج . وكان يأمل ان يخترق ما بقي عليه من بلاد فرنجة ، ويقتحم الارض الكبيرة حتى يصل بالناس الى الشام ، مؤملاً ان يتخذ مخترقه بتلك الارض طريقاً مهيماً يسلكه اهل الاندلس في مسيرهم ومجيئهم من المشرق واليه على البر لا يركبون بحراً . وقيل انه اوغل في ارض الفرنجة حتى انتهى الى مفازة كبيرة وارض سهلة ذات آثار ، فأصاب فيها صنماً عشيماً قائماً كالسارية ، ومكتوباً فيه بالنقر كتابة عربية قرئت ، فاذا هي : يا بني اسماعيل انتهيتم فارجعوا . فهاله ذلك وقال : ما كتب هذا الا لمعنى كبير ، فشاور اصحابه في الاعراض عنه ، وجوازه الى ما وراءه ، فاختلفوا عليه ، فأخذ برأي جمهورهم ، وانصرف بالناس وقد اشرفوا على قطع البلاد وتقصي الغاية .

وقال ابن ربيعة : قلّ الناس كلهم يومئذ الا اربعة نفر فقط كانوا من التابعين : ابو عبد الرحمن الحبلي ، وابن شماسة ، وحنش الصنفاني ، وضياعه بن عقبة الفهري . قال : وبلغني عن رجل انه غلّ يومئذ ذهباً وجوهراً فوضعه في زفت وذوبه فنزل به الموت ، فجعل يصيح وهو في الموت : الزفت الزفت .

وقصدت الاندلس امرأة عطارة ، فخرجت بخمسمائة راس ، فأما ما خرجت به من الذهب والفضة والجوهر والآنية ، فذلك لا يحصى عدده ولا يحاط علماً .

وكان الرجل يباع بحبات فلفل اقل من القبضة .

ثم ان موسى خرج غازياً بنفسه بعد افتتاحه مدينة طنجة والخضراء وغيرها ، فمضى حتى انتهى الى ارض تميد بأهلها ، وذلك عند البحر الأصم ، فساير البحر حتى انتهى الى قنطرة عليها صنم من نحاس ، في يده قوس ونشاب ، فلما دنا منه الناس ، رمى بنشابه فقتل انساناً ثم وقع ، فتقدم الناس فاذا هو صنم من نحاس .

ثم قيل لموسى : ان هذه الرمال قلعة فيها اعاجيب ، فسار اليها فحاولها فلم يقدر عليها ، فأمر ببنيان ، فبني ، حتى اشرفوا عليها ، فلما اطال الناس الذين كانوا يبنون ، النظر اليها والى ما كان فيها ، استضحكوا ، ورموا بأنفسهم :

فوقعوا موتى . ثم نادى موسى : من صعد فله مائة دينار . فصعد رجل ، فلما اشرف عليها ، استضحك ، ثم رمى بنفسه . فلما رأى ذلك موسى قال : هذا من بعض عجائب الشياطين . فانصرف عنها .

قال جعفر بن الاشتر : سمعت ابي يقول : كنت مع موسى بن نصير ، فحاصرنا حصناً عشيماً نحواً من عشرين يوماً لم نقدر عليه . فلما طال ذلك علينا ، نادى موسى فينا : اصبحوا على تعبئة . فقام محمد الله واثنى عليه ثم قال : اني متقدم امام الصفوف فاذا رأيتموني كبّرت ، وحملوا وكبّروا ، واحملوا. فقال الناس : سبحان الله . غاب عن موسى عقله . يأمرنا ان نحمل على الحجارة ولا نرى احداً الا على الحيطان ، وما لا سبيل اليه . ثم تقدم بين الصفوف . ثم اقبل على الدعاء والرغبة والبكاء ، ونحن وقوف ننتشر تكبيره حتى كبّر ، فكبّر الناس معه ، ثم حمل ، وحملنا ، فانهزمت ناحية من الحصن الذي يلينا ، فدخل الناس ، فأخرجوا من السبي والمتاع والجوهر ما لا يحصى .

وانتهى موسى بن نصير الى نهر في الشق الاول عليه اصنام ذكور ، في الجانب الأيسر منه ، وفي الجانب الأيمن اصنام اناث . ثم مضى حتى انتهى الى ارض تميد بأهلها ففزع الناس ، وصاروا عنها .

ثم مضى حتى غشي الناس ظلمة شديدة فعجب الناس منها . ثم انتهى الى مدينة عليها حصن من نحاس ، فاقام عليها ، وطاف بها ، فلم يقدر على دخولها ، فنادى : من يصعد هذا الحصن ، له خمسمائة دينار . فصعد رجل ، فلما استوى على سورها ، تردى فيها . ثم نادى ثانية : من يصعد وله الف دينار. وصعد آخر ، ففعل مثل ذلك . ثم نادى الثالثة ، من يصعد وله الف وخمسمائة دينار . فصعد الثالث ، فأصابه مثل الذي اصاب صاحبيه . فقال موسى : هذا امر عظيم . ففكّر ثم قال : على رسلكم سيأتيكم الخبر على ما تحبون ان شاء الله . ثم امر بالمنجنيق ، فوضع على ذلك الحصن ، ثم قال: ارموا . فلما وقعت الحجارة في الحصن ، صاحوا وضجوا وقالوا : ايها الملك لسنا بغيتك ، ولا نحن ممن تريد ، نحن قوم من الجنّ ، فانصرف عنّا . قال لهم موسى : فما فعل اصحابي ؟ قالوا : هم عندنا على حالهم . فقال لهم : اخرجوهم الينا . قالوا نعم . فأخرجوهم اليهم . فسألهم موسى عن امرهم وما صنع بهم ، فقالوا : ما درينا ما كنا فيه ، وما اصابتنا شوكة . فقال موسى الحمد لله رب العالمين .

ثم تقدم بالناس، ففتح كل ما مرّ به، حتى انتهى الى البحر المحيط الذي لم يركبه احد قط ولا امعن فيه. وامرهم ان يحملوا نسوراً ثلاثة. فاذا امعنوا جداً فليرساوا نسراً واحداً ثم يمعنوا ويرساوا نسراً ثانياً. فاذا امعنوا، فليرسلوا نسراً ثالثاً. ففعلوا ما امرهم به. فأرساوا النسر الاول، فمضى ما شاء الله، فلم يرجع. ثم ارسلوا الثاني، فمضى على وجهه ولم يرجع. ثم ارساوا الثالث، فمضى ثم رجع فوقع في السفينة، فعلموا انه ليس وراءهم ولا امامهم احد.

ولما دخل موسى افريقية، وجدها قد اقحطت قحطاً شديداً. فأمر الناس بالصيام والخروج. الرجال على حدة، والنساء على حدة، والصبيان على حدة، والبقر على حدة، والعجول على حدة، والغنم على حدة، واهل الذمة على حدة واجتمعوا في مجمع واحد، فدعا الى الله عز وجل، ودعا الناس معه. وسكن الناس، وسكن النساء والصبيان، وصاحت البقر والعجول والغنم والخرفان واهل الذمة حتى كانت السموات انطبقت على الارض، فأقام حتى انتصف النهار: وخطب الناس، ولم يذكر امير المؤمنين في خطبته فقيل له: الا تدعو لأمير المؤمنين؟ فقال: ليس في هذا مقام يدعى امير المؤمنين انما يدعى فيه الى الله عز وجل. فسقوا سقياً راوياً.

ثم خرج موسى بن نصير من افريقية، واستخلف عليها ابنه عبد الله: وأخرج موسى مع نفسه من وجوه البربر ماية رجل وعشرين ملكاً من ملوك الروم، ومائة من ملوك الاندلس وخرجوا معه باصناف ما كان في بلد من طرائفها وذهبها وفضتها وجوهرها وزبرجدها ورقيقها وما لا يحصى ولا سمع بمثله، حتى انتهى الى مصر، فلم يبقَ بها شريف ولا فقيه، ولا عظيم الا وصله، فدفع الى ولد سليمان بن مالك عشرة آلاف دينار. ثم خرج من مصر متوجهاً الى فلسطين، فتلقاه آل روح بن زنباع، فنزل بهم، فبلغني انهم نحروا له خمسين جملاً. ثم خرج من عندهم، وتخلّف بعض اصحابه وصغار ولده عندهم، وأفرغ على آل روح بن زنباع الدنيا من الوصائف والوصفاء وغير ذلك.

فمرض الوليد مرضته التي مات فيها، وكتب الى موسى يأمره السير بسرعة ليدركه قبل الموت، وكتب اليه سليمان اخو الوليد ان يبطئ في سيره، فان الوليد في آخر نفسه.

وكان الوليد قد بلغه عن اخيه سليمان تمنٍّ لموته لما له حتى العهد بعده، فكتب اليه الوليد يعتب عليه الذي بلغه، وكتب في آخر كتابه:

تمنّي رجال ان اموت وان امت فتلك سبيل لست فيهـا بأوحدِ
لعلّ الذي يرجو فنائي ويدعي به قبل موتي ان يكون هو الردي
فما موت من قد مات قبلي بضائري ولا عيش من قد عاش بعدي بمخلدي
وقل للذي يرجو خلاف الذي مضى تزوّد لأخرى غيرهـا فكأن قد
منيته تجـري لوقت وحتفه سيلحقه يوماً على غـير موعد

فأجابه سليمان : « فهمت ما كتب به امير المؤمنين ، والله لئن كنت تمنيت ذلك لم يخطر بالبال ، اني لاول لاحق به ، ومنعيّ الى اهله ، فعلام اتمنى زوال مدة لا يلبث متمنيها الا بقدر ما يحلّ السفر بمنزل ، ثم يطعنون عنه ، ولقد بلغ امير المؤمنين ما لم يظهر من لفظي ، ولا يتبين من لحظي ، ومتى سمع امير المؤمنين من اهل النميمة ، وممن ليست له رؤية او شك ان يسرع في فساد النيات ، ويقطع بين ذوي الارحام والقرابات . وكتب في اسفل الكتاب :

ومن لم يغمض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب
ومن يتتبّع جاهداً كل عثرة يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب

فكتب اليه الوليد : ما احسن ما اعتذرت به ، وحذرت عليه ، وانت الصادق في المقال الكامل في الفعال ، ولا شيء اشبه بك من اعتذارك ، وما ابعد مما قيل فيك والسلام .

وكان الوليد متحنناً على اخوته ، مراعياً ما اوصاه به عبد الملك ، وكان كثير الانشاد لأبيات قالها عبد الملك حين كتب اليه بوصيته :

انفوا الضغائن عنكم وعليكم عند المغيب وفي حضور المشهد
فصلاح ذات البين طول بقائكم ان مدّ في عمري وان لم يمدد
فلمثل ريب الدهر الّف بينكم بتواصـل وتراحـم وتـودد
حتى تلـين جلودكم وقلوبكم لمسوّد منكم وغـير مسوّد
ان القداح اذا اجتمعنّ فرامها بالكسر ذو حنق و بطش باليد
عزّت فلم تكسر وان هي بدّدت فالوهـن والتكسير للمتبدد (١)

(١) مروج الذهب للمسعودي . الجزء الثالث . بيروت ١٩٧٠ .

فعمل موسى بكتاب الوليد ، وترك العمل بكتاب سليمان ، وجدّ في سيره ، فآلى سليمان لئن ظفر بموسى ليصلبنه ، وامر الوليد موسى بالعجلة ليحرم سليمان ما جاء به ، واراد سليمان ليبطئ ، فيحرم ولد الوليد ما جاء به .

فهكذا يجرّ الناس الدنيا الى انفسهم ، وتجرّهم الدنيا الى نفسها ، فتأخذ منهم ما اعطتهم ، ولا يأخذون منها ما اعطوها .

فقدم موسى قبل موت الوليد ، فأتاه بالطرائف من الدرر والياقوت والزبرجد والوصفاء والوصائف ومائدة سليمان . الحكم والتيجان المكللة بالدرر والياقوت ، فقبض الوليد ذلك كله ، وامر بمائدة سليمان ، فكسرت . وعمد الى ارفع ما كان فيها من الجوهر ، وكل ما كان في التيجان من الجزع ، فجعله في بيت المال .

ثم لم يلبث الوليد ان مات ، وافضت الخلافة الى سليمان . فبعث الى موسى فعنفه بلسانه ، وقال : لأفلنّ غربك ، ولأفرقنّ جمعك ، ولأضعنّ من قدرك .

فقال له موسى : اما قولك تفل من غربي ، وتخفض من حالي ، فان ذلك بيد الله ، والى الله لا اليك ، وبه استعين عليك . فأمر به سليمان ، فوقف في يوم صائف شديد الحر ، وكان موسى رجلاً عشيماً ، بادناً ، لحيماً ، فوقف حتى سقط مغشياً عليه ، وعمر بن عبد العزيز حاضراً .

قال عمر : فما مرّ عليّ يوم كان اغمّ عليّ منه لما كان من صلاحه وبعد أثره في سبيل الله ، وما افتتح الله على يده . فنظر سليمان الى موسى حين سقط مغشياً عليه ، فقال : يا ابا حفص ، ما اطئ الا وقد خرجت من يميني . قال : اجل يا امير المؤمنين . فقال سليمان : من يضمه ؟ فقام يزيد بن الملهب فقال : انا يا امير المؤمنين اضمه اليّ . قال : فضمه اليك ولا تضيق عليه . فانصرف به يزيد ، وقدم اليه دابة يركبها ، فأقام عنده اياماً ، فحسن ما بين موسى وبين سليمان وافتدى منه بألف الف دينار .

ثم ان يزيد سهر ليلة عند موسى فقال له : يا ابا عبد الرحمن : في كم تعتقد في مواليك واهل بيتك ؟ فقال له موسى : في كثير . فقال له يزيد : يكونون الفاً ؟ قال موسى : والفاً والفاً الى منقطع النفس .

قال يزيد : فانت على ما وصفت ، وتلقي بيدك الى التهلكة ؟ افلا اقمت في قرار عزك وموضع سلطانك وامتنعت بما قدمت به ، فان اعطيت الرضى الا كنت على عزك وموضع سلطانك؟ قال موسى : والله لو اردت ذلك لما نالوا من طرفي طرفاً الى ان تقوم الساعة . ولكني آثرت الله عز وجل ، ولم ارَ الخروج عن الطاعة والجماعة .

... وقال سليمان لموسى : ما الذي كنت تفزع اليه في حروبك ومباشرة عدوّك ؟

قال : الى الدعاء والصبر عند اللقاء . قال : فأي خيل رأيتها في تلك البلاد اسبق ؟ قال : الشقر . قال : فأي الأمم اشدّ قتالاً ؟ قال : هم أكثر من ان اصفهم . قال : اخبرني عن الروم . قال : اسد في حصونهم ، عقبان على خيولهم ، نساء في مواكبهم ، ان رأوا فرصة افترصوها ، وان رأوا غلبة ، اوغلوا في الجبال لا يريدون الهزيمة عاراً .

فأخبرني عن البربر . قال : هم اشبه الامم بالعرب لقاء ، ونجدة ، وصبراً ، وفروسية ، وسماحة . غير انهم اغدر الناس . لا وفاء لهم ولا عهد . قال ، فاخبرني عن اهل الاندلس . قال : ملوك مترفون ، وفرسان لا يجبنون . قال : فاخبرني عن الافرنج . قال : هناك العدد والعدة والجلد والشدة ، والبأس والنجدة . قال : اخبرني كيف كانت الحرب بينكم وبينهم ؟ اكانت لك ام عليك ؟ قال : اما هذا فوالله ما هزمت لي راية قط . ولا بردّ جمعي ، ولا نكب المسلمون معي منذ اقتحمت الاربعين الى ان بلغت الثمانين . فضحك سليمان وعجب من قوله .

ثم دعا سليمان بطست عظيم ، فجعل يردد بصره فيه . فقال له موسى : انك تعجب من غير عجب ، والله ما احسب ان فيه عشرة آلاف دينار ، والله قد بعثت الى اخيك الوليد بتنور من زبرجد اخضر كان يصب فيه اللبن فيخضر ، وترى فيه الشعرة البيضاء . ولقد قوّم بمائة الف دينار ، وانه لمن ادنى ما بعثت به اليه . ولقد اصبت كذا ، واصبت كذا ، فجعل يعد ما اصاب من الجوهر والدر والياقوت والزمرد حتى بهت سليمان .

وقيل ، خرج سليمان الى بعض امواله متنزهاً ، وخرج معه موسى بن نصير ،

فمرّ في منية له قدروا فيها الغنم بألف شاة او مقارباً . فأعجب سليمان كثرتها ، فالتفت الى موسى وقال له : هل لك مثل هذا الغنم ؟ فضحك موسى وقال له : والله لقد رأيت لأدنى موالي اضعاف هذه . فقال سليمان : لأدنى مواليك ؟ قال : نعم والله ، ورددها مراراً . ثم قال : وما هذه فيما افاء الله عليّ وعلى يديّ ، لقد كانت الألف شاة تباع بعشرة دراهم ، وكل مائة بدرهم ، ولقد كان الناس يمرون بالبقر والغنم فما يلتفتون اليها ، ولقد رأيت الزود من الابل بدرهم ، ولقد رأيت العلج القارة وامرأته واولاده بخمسين درهماً .

ثم حج سليمان ، وخرج موسى معه ، وكان موسى من اعلم الناس بعلم النجوم . فلما حلّ بالمدينة ، قال موسى لبعض من يعز عليه : ليموتنّ بعد غد رجل قد بلغ ذكره المشرق والمغرب . فمات موسى في اليوم التالي ، وصلى عليه مسلمة .

يحكى ان موسى بن نصير القى بنفسه على يزيد بن المهلب بمكانه من امير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ، وطلب منه ان يكلمه في ان يخفف عنه . فقال له يزيد : اريد ان اسألك ، فاصغ اليّ . فقال : سل عما بدا لك . فقال له : لم ازل اسمع عنك من اعقل الناس واعرفهم بمكايد الحروب ومداراة الدنيا ، فقل لي كيف حصلت في يد هذا الرجل بعدما ملكت الاندلس ، وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار ، وتيقنت بعد المرام واستصعابه ، واستخلصت بلاداً انت اخترقتها ، واستملكت رجالاً لا يعرفون غير خيرك وشرّك ، وحصل في يدك من الذخائر والاموال والمعاقل والرجال ، ما لو اظهرت به الامتناع ، ما ألقيت عنقك في يد من لا يرحمك . ثم انك علمت ان سليمان ولي عهد ، وانه المولى بعد اخيه ، وقد اشرف على الهلاك لا محالة ، وبعد ذلك مخالفته وألقيت بيدك الى التهلكة ، واحقدت مالكك ومملوكك . قال : يعني سليمان وطارقاً . وما رضا هذا الرجل عنك الا بعيد ، ولكن لا آلوا جهداً .

فقال موسى : يا ابن الكرام ، ليس هذا وقت تعديد ، اما سمعت ، اذا جاء الحين غطى على العين . قال : ما قصدت بما قلت لك تعديداً ولا تبكيتاً ، وانما قصدت تلقيح العقل وتنبيه الرأي ، وان ارى ما عندك . فقال موسى : اما رأيت الهدهد يرى الماء تحت الارض على بعد ، ويقع في الفخ وهو بمرأى عينه ؟

ثم كلّم فيه سليمان . فكان جوابه انه قد اشتمل رأسه بما تمكن له من الشهور

وانقياد الجمهور ، والتحكّم في الاموال . ولكن قد وهبت لك دمه ، وانا بعد ذلك غير رافع عنه العذاب حتى يرد ما غلّ من مال الله . قال وآلت حاله الى ان كان يطاف به ليسأل من احياء العرب ما يفتكّ به نفسه . وفي تلك الحال مات وهو من افقر الناس وأذلهم بوادي القرى سائلاً من كان نازلاً به . وقال احد علمائه ممن وفى له في حال الفقر والخمول : لقد رأيتنا نطوف مع الامير موسى بن نصير على احياء العرب ، فواحد يجيبنا وآخر يحتجب عنّا ، ولربما دفع الينا على جهة الرحمة الدرهم والدرهمين ، فيفرح بذلك الامير ليدفعه الى الموكلين به فيخففون عنه من العذاب . ولقد رأيتنا ايام الفتوح العشام بالاندلس نأخذ السلوب من قصور النصارى ، فنفضل منها ما يكون من الذهب وغير ذلك ، ونرمي به ولا نأخذ الا الدرّ الفاخر ، فسبحان الله الذي بيده العز والذل والغنى والفقر . وكان له مولى قد وفى له وصبر عليه الى ان ضاق ذرعه بامتداد الحال ، فعزم على ان يسلمه وهو بوادي القرى في اسوأ حال ، وشعر بذلك موسى . فخضع للمولى المذكور وقال له : يا فلان ، تسلمني في هذه الحالة ؟ فقال له المولى بشدة ما كان به من الضجر : قد اسلمك خالقك ومالكك الذي هو ارحم الراحمين . فدمعت عيناه ، وجعل يرفعهما الى السماء خاضعاً مهيتماً بشفتيه .

فما اسفرت تلك الليلة الا عن قبض روحه . كان له من الاثر ما يوجب ان يترحم عليه .

مات موسى بن نصير بوادي القرى سنة سبع وتسعين هجرية .

* * *

القسم الثاني

١

الانتفاضة

اسبانيا الجريح تزف دماً . البلاء بسط عليها جناحيه الاسحمين ، ويتردد صدى حشرجة هذا الشعب المحتضر من اقصى الجزيرة الى اقصاها . ارامل لا تريد ان تتعزى وعذارى تيتمن وآباء يجرحون صدر الليل بتنهدات حارّة ويمسحون الدموع السواجم .

اسبانيا تحوّلت الى مدافن لا نهاية لها . واقفرت المدن ، وتهدمت المنازل ، وهجرت المعاقل ، واتت النيران على الدساكر والضياع . وخيّم الصمت الرهيب على الحقول والمدائن ، ومن حين الى آخر يخرق الصمت دوي حوافر الخيول العربية على الحصباء تجتاز السهول ، ظافرة غانمة ، ضيوف جدد ارسلتهم العناية الإلهية وألقتهم على اسبانيا ، بينما سكانها القوط يتخذون الهرب وسيلة للنجاة من الفناء المحتوم ، مفتشين عن ملجأ يقيهم الموت . والعذارى المتبتلات هجرن اديرتهن ، والرهبان المنصرفون الى عبادة ربهم في صوامعهم تاهوا في الجبال والوديان ، يضمون الى صدورهم الكتب المقدسة والآنية الكنسية . تساوى السيد والعبد ، والست والجارية في المصيبة والكارثة ، فحملوا على دوابهم ما وصلت اليه ايديهم ، وما استطاعوا انقاذه من اشداق الداهية العصور ، ويتعثرون في خطوهم ، والدموع تبلل نحورهم ، والجهد اعياهم في طريقهم الى الشمال النائي ، الى الجبال الموحشة فقد تكون ارفق من بني الانسان .

وارتفع صوت اقرب الى الحشرجة منه الى النطق : علينا ان نحمد الله لانه قادنا الى هذه الاماكن الآمنة .

وكان المتكلم الأسقف اوربانو ، يرافقه بيلاي وبعض القوط ، فاقتربوا من

راع يسوق قطيعه من الماعز في تلك المغاور : اين اصبحنا من دير القديسة اولاليا ؟

– انتم منه على قيد ميل يا سيدي الأسقف .

وجدّوا في السير علّهم يجدوا في ذلك المعقل الراحة والنجاة .

ولمّا وصلوا ، هرع لاستقبالهم صاحب القلعة القند انيقه : انهم الأسقف بيلاي وغوديلا وعدد لا يستهان به من الرجال الذين حلّوا في البيوت المجاورة للدير والمعقل . وسرّ انيقه لانه استضاف هؤلاء الأشراف من القوط . وبعد الأكل ابتدأوا في التداول حول الموقف الذي قادهم اليه الغزو الافريقي ، ثم انصرفوا جميعهم الى مرقدهم ، واستسلموا الى الرقاد الا ثلاث فتيات جميلات ، ساهرات في احدى حجرات دير سانتا اولاليا .

– بمَ تفكرين يا عزيزتي ؟ سألت فتاة شقراء ساحرة الجمال اسمها غوديوسا.

فأجابت الاخرى : باني وبولدي وبلاي . ربي والهي ما اشقاني .

لمّا رأيته عند المساء من نافذتي ، لم ارَ ابي معه ، انكمش صدري ، كما ان حجر المقبرة رزح عليه .

– ثقي بالله يا فلورندا ، فانه لا يهمل عبيده .

– صدقت يا غوديوسا ، ثقتي بالله كبيرة .

وتقدم الليل ، ولا واحدة من الثلاث نساء مستعدة للنوم . ولمّا اطلّ الصباح ، دقّ الجرس يدعو الناس الى سماع القداس الاحتفالي الذي يقيمه الأسقف اوربانو . وكان بيلاي غائباً عما يجري حوله . واذا بقيّم الدير يقترب منه ، ويسلّمه كتاباً ، فقرأه فاذا به :

« الحب بدون امل وجد له مكان في الدير » ! انت بمقدورك ان تسعد . وانت تعلم ان غوديوسا تعبدك . انها صديقتي وجديرة بك ، لا تكن ناكر الجميل نحوها . فاذا كنت قد احببتني مرة في حياتك ، برهن لي عن حبك برضوخك لآخر رجاء لمن ماتت عن العالم . استودعك الله الى الابد ، فلورندا .

ملاحظة : سلامي الى شقيقتك هورمسندا .

فما تمالك بيلاي الا ان انحدرت دمعة من عينه ، وتذكّر شقيقته ، فهو لا يعرف عنها شيئاً .

واذا اصوات ترتفع من كل جانب ، فاقترب من احدهم وسأله ما هذا الغوغاء ؟

فقال : سيدي ، وصل فوج جديد من الهاربين من الجنوب يؤكدون ان العرب وصلتهم امدادات جديدة من افريقية ، وانهم قبل ثلاثة ايام سيغزون هذه الجبال .

فلما سمع الناس هذه الانباء ، ضجّوا وتذمروا : الى اين نهرب ؟ فصرخ فيهم بيلاي .

ايها القوط الابطال : كفى ، كفى ، تنازلنا عن الكثير من الاراضي للعرب الغزاة . ان من يفكّر بالتخلي عن المزيد لا يستحق الحياة ، اني لواثق من انهزام الغزاة في هذه الجبال ، واذا كتب لهم ان ينتصروا مرة اخرى ، فالأجدر بنا الموت ابطالاً ، مدافعين عن آخر بقعة من ارضنا ، ولا الحياة جبناء هاربين كالغنم امام العدو .

— هل العرب اناس يختلفون عن بقية الناس ؟

املنا الوحيد في الغلبة او الموت .

فهتف جميعهم : اجل ، اجل ، الغلبة او الموت ، مر ونحن طائعون . عاش بيلاي العظيم !

— اذا كان الامر كذلك ، ولا تخشون الموت ولا الخطر ، انا من جهتي اني افضّل الموت في ساحة الوغى قبل ان اغادر هذه الجبال .

واقبل الظلام ينشر اذياله على قلعة القديسة اولاليا ، وأعدّ بيلاي رجاله ووضعهم في الكمين . وقرب طلوع الفجر ، لاحت طلائع العرب ، فانقضّ عليهم القوط يرمونهم بالحجارة والسهام ، ففوجئوا لأول وهلة غير انهم استعادوا رباطة جأشهم ، ودارت المعركة حامية والقائد العربي « منوسة » يحثّ جنوده ويحرّضهم على الثبات . وظن العرب للوهلة الاولى ان اعداءهم كثر ولكن عند انبلاج الصباح ، شاهدوا العدد ضئيل الذي انزل فيهم تلك الخسائر ، خجلوا من انفسهم واشتدّ غضبهم ، وارتدوا على العدو بعنف لا مزيد عليه : واعملوا فيه القتل من كل جانب لا سيما بعد القتال الشديد الطويل في الليل ، وبعد العناء والجهد ، وتغلّب العدد على الشجاعة ، والعدد كان بجانب العرب : فأعملوا سيوفهم في رقاب اعدائهم ، فسقط اكثر القوط قتلى ، والآخرون اسرى ،

والباقون فروا في الجبال والوهاد ، وادركتهم خيول العرب وقضت عليهم ، وامر منوسة بتكبيل الأسرى بالسلاسل والقيود .

وضجّ العرب وهاجوا على رائحة النصر .

اسبانيا جمعاء خرّت على اقدامهم . وزاد في بهجتهم ان احدهم القى أمام منوسة رأساً مدمى وقال له : هذا رأس عدوك بيلاي !

فصمت منوسة حيناً ، وعاد القاتل الى القول : جئت طالباً المكافأة لهذا الراس.

فقال منوسة : انت نصراني ؟

— اجل سيدي .

فأمر منوسة بان يشنق في اعلى شجرة دلب .

وكان هناك رجل مختبئ وراء الأكمة يشاهد ما يجري . ولم يكن سوى بيلاي نفسه ، وهم يعتقدونه قد قتل .

ووصل منوسة امام خيخون ، وحاول سكانها الدفاع عن المدينة ، فأرسل منوسة الأسرى الى قرطبة .

وبرّح الجوع بالمحاصرين ، وأودت المعارك بالقسم الاكبر منهم ، وشدد عليهم العرب الحصار ولم يبقَ امام اهالي خيخون سوى الموت او العبودية . وكان يحكم المدينة دوق قنطابريا المسمى برموندو ، وهو من الزعماء القوط الذين اشتهروا بالجرأة والفطنة ، وكان خال بيلاي ، ونشأت في اكنافه هرمسنده الجميلة شقيقة بيلاي .

وكان الدوق لمّا علم بكارثة وادي بكة جمع بعض الجنود واحتمى في خيخون المدينة الوحيدة التي لم تكن قد وطأتها اقدام العرب ، وبذل الدوق ما في وسعه للدفاع عن المدينة .

وكان منوسة قد شعر بان العناء استحوذ على نفوس اعدائه ، اغتنم سدول الليل ، فوضع السلالم على الاسوار ، وتسلّقها ، واعمل السيف في رقاب اهلها دون شفقة او رحمة نظراً للحصار الطويل ، والمقاومة الشديدة ، فاستولى الخوف والهلع على نفوس السكان ، وعمّت الفوضى . فبين الدخان والغبار لم تشاهد سوى وجوه صفراء ، وشيوخ ترتجف ، ومرضى وجرحى غادروا اسرّتهم كأنهم

الاشباح قامت من قبورها . والزوجة تفتش عن حماية زوجها لها ، والشقيقة تنتحب على فراق شقيقتها ، والابن يطلب والده ، والأم تحنو على طفلها محاولة انقاذه من الحديد والنار والصراخ والعويل والأنين والتجديف والسباب وصايل السلاح واصوات الشفر وانّات النزاع .

وفجأةً اطلّت فتاة فارعة القوام ، بارعة الجمال ، انسدل شعرها على ظهرها ، اغرورقت عيناها بالدموع ، خطت بين الجثث عازمة على التضحية في سبيل شعبها المسكين ، فتوقف العرب عن التقتيل تجاه هذا الحسن النضيد ، والتوت انشارهم نحوها. واقتربت منهم بدون وجل متشحة بالبياض كأنها ظهرت في رؤيا .

وكان منوسة بين جنوده ، وقد تميّز عنهم بطول قامته وحسن طلعته وانفته وبشموخه . لمّا مثلت الفتاة امامه ، شده من هذه الروعة الناطقة فيها وقالت له : كفى ، كفى اراقة دماء ، الق نظرة حولك ، فلا ترى سوى الموت والدمار والخراب . ايها الفارس الشجاع ، انا فتاة هدّني الحزن ورؤية مواطني واصدقائي موتى وجرحى ، جئت اليك ضارعة طالبة رحمتك . فاذا كان في صدرك بعض الشفقة ، فمر ان يكفوا عن حصد الارواح . كفى حريقاً وهدماً وتقتيلاً . انقذنا يا سيدي من الانتقام والقساوة ، واذا قلب لنا الدهر ظهر المجن ، فليسدل علينا كرمك الرحمة ، سيدي ، الرحمة !

وارتمت على اقدام القائد العربي تقبّلها .

فلما رأى منوسة هذا المشهد ، اضطربت نفسه ، وغلّفها حنان غطى صورة الانتقام ، وحدق في الفتاة وسألها : من انت ايتها العذراء الساحرة الجمال ، الوديعة كالحمل والطاهرة كالملاك ؟ لا شك انك جئت من جنة الخلد لكي تفرشي الزهور على دربي . انهضي . انا اسجد امامك لأني اصبحت عبدك . مري وتطاعي . من انتِ ؟ الا تبوحين باسمك ؟ ايتها النصرانية الفاتنة ؟

ـ اسمي « هرمسنده » ، وانا شقيقة بيلاي افرس الفرسان في ساحة الوغى .

فدهش منوسة لمّا سمع باسم غريمه ، وقال : انت بطلة مثل اخيك البطل .

ـ وهو كذلك ، وسيكون دائماً بطلاً .

فصدرت عن منوسة حركة ذات معنى لم تخفَ عند هرمسنده . وعبثاً حاول

القائد العربي اخفاء اضطرابه . فقالت الفتاة : ولماذا تقول عنه انه كان بطلاً ؟ هل اتى امراً فرياً ؟ او هل قتل ؟

ايتها النصرانية الحسناء ، توسطك اوقف الحرب في هذه المدينة . وسيتحول صليل الاسلحة الى اهازيج الفرح واغاني الحب . ماذا لا اصنع حتى ارضيك ايتها النصرانية ؟ هامي وطيري واخبري أناسك ان جمالك واندفاعك قد انقذهم من ثورة الموت .

فاستمعت هرمسنده بانبساط الى مديح القائد العربي واطرائه حسنها وجمالها . فانه اعطى جنوده الاوامر بسرعة لإيقاف القتال الذي ما زال محتدماً في بعض الاماكن من المدينة . غير ان الفتاة ساورتها الهواجس حول مصير شقيقها .

— قل لي بحقك ، هل مات اخي ؟ ازل عني هذا الشك الذي يقتلني اكثر من الحقيقة ذاتها . املك القوة على تحمل هذه الصدمة الجديدة . صدقني ايها الفارس النبيل !

« ومنوسة » الرهيب فكّر كيف تتألم هذه الفتاة ، وما عساها تصنع عندما تطّلع على مقتل اخيها بيد اثيمة . لا الافضل لها أن تظل جاهلة مصير شقيقها .

والحسناء هرمسندا ظلّت جامدة امام الفارس البطل مضطربة وجلة بدافع من شعور جديد نبت في صدرها البريء كما تنبت الشرارة من ملامسة الحديد لحجر الصوان ، والسحر كان متبادلاً ، فالحب اطلق في الوقت ذاته سهمين اصابا القلبين . واقترب في تلك اللحظة الدوق عم هرمسندا القلق على تغيبها خشية ان يكون المّ بها شر ، وفتش عنها طويلاً محاولاً انقاذها ولو كلّفه دمـــه .

— ابنتي العزيزة هرمسندا ، لماذا انت في هذا المكان ؟

ووجّه الى منوسة نظرة قلقة ، وفيها شيء من التهديد .

فأطلعته هرمسندا باختصار على موقفها من منوسة ، وكيف انه استمع الى ندائها ، فأنقذ الناس من القتل . فنظر اليه الدوق نظرة يشتم منها عرفان الجميل وقال : سيدي باسم هذا الشعب المسكين اشكرك على حلمك وعفوك واستماعك

الى تضرعات هرمسندا . لقد ادركت ما عجزنا نحن عن ادراكه . هلمي بنا الى القصر .

وقال منوسة : اين تسكنين ؟

– في قصر دوق قنطبرية .

– اني مرافقك اليه .

ومشى الى جانب الدوق وهرمسندا ، وعليه سيماء الوداعة واللطف .

وخشي بيلاي ، ان يفضح امره لما عرض الرأس على منوسة . وكان بيلاي بين الاسرى ، وخشي ان يفضحه احدهم . ومضى زمن على اسرهم وزجهم في سجن مظلم لا يرون منه الشمس ، وكان رفيقه معه ، واذا بالباب ينفتح ، وتطل منه جارية لم يرَ اجمل منها وجهاً ، هي « مريمة » اخت منوسة التي ظلت جامدة خرساء محمرة الوجه مثل الكرزة .

فاقترب منها بيلاي بعد ان زالت دهشته وقال لها :

حفظتك السماء ايتها الفتاة الفاتنة ! كيف استطاع هذان السجينان المسكينان ان يستحقا زيارة اجمل نساء الدنيا ؟ الم تخشَي على صدرك من استنشاء هذا الهواء النتن ؟

فتأملته « مريمة » بحنان لا مزيد عليه ، وانطلقت زفرة من صدرها ، وعادت الى احناء رأسها .

وبيلاي تجاه هذا الجمال الفتان ، وذلك الاضطراب المستولي على الفتاة ، لم يجد له ما يبرره ، وتبادل نظرة مع رفيقه اتاناخيلد الذي ظن ان ساعته دنت وان الموت في انتظارهما .

– هل جئتِ لتبشرينا بدنوّ ساعتنا ؟ نحن سعداء اذا انطلق الحكم علينا بالموت من فم جميل مثل فمك .

ثم حاول ابن فافيلا الاقتراب منها . فصرخت صرخة تردد صداها في ذلك المكان ، وما قدر بيلاي ان يتحرك تحت ثقل الحديد .

وتأملته مريمه ، وتأملت رفيقه بشفقة عميقة ، واشارت الى وصيفتها «شريفة» التي كانت تتبعها وفي يدها مشعل ، وفي اليد الاخرى سلة مأكولات ، وأومأت لها ، وفهمت الايماءة ، وقالت مريمه : اليكما بهذه الثياب فتدثرا بها ، وهذه الاطعمة سداً بها رمقكما ، وقالت شريفة لاتناخيلدوا :

— تعالَ ايها النصراني ، ورافقني لنراقب معاً ، فقد يأتي احد ويداهم مولاتي.

ومدت له يدها وظلاً قرب الباب .

ولمّا اصبحت مريمه وحدها مع بيلاي ، كانت تسمع دقات قلبها نشراً للتأثير الذي احدثه في صدرها حب بيلاي . وتأملها هذا بادئة واعجاب ودهشة دون ان يدري كيف يفسّر هذا الانقلاب الغريب ، وقد بهره ذلك الجمال الصارخ ، وقطعت الصمت المخيّم عليها قائلة :

— لا تخف ايها النصراني ! لست منذرتك بأي حدث مشؤوم ، على العكس ، جئت الى هذا المكان المظلم للترفيه عنك ، ما كادت تقع عيني عليك حتى شعرت بشفقة كبيرة عليك وعلى رفيقك .

— انت مريمه . شهرة جمالك تسبقك الى كل مكان ، وطيبة قلبك ، ورقة اخلاقك . شكري لك يفوق كل وصف . رقّ قلبك على شقيين على وشك الفناء في هذا السجن المظلم . باركت السماء جبينك الطاهر ، واطالت بأيامك لتكوني عزاء للحزانى .

— هل ادهشك تصرفي ايها النصرانى الفتى ؟

— فقط الله يعلم كم تمزّق احشائي مشاهد الدماء المسفوكة .

— اهربي من ارض اللعنة هذه ، وعودي الى وطنك الجميل . هناك تعيشين سعيدة . فان منظر الدماء والخراب والدمار سيرافقك . اهربي ايتها الحسناء مريمه الى وطنك الحر .

ولمّا سمعت مريمه هـذه الكلمات ، سمّرت لحاظها السود في الفتى ، وتصاعدت تنهدة من صدرها وقالت برنة الألم :

— الله يعلم ، اني لا استحق النصح على هذا النحو . الانفصال عنك

بعدما تعرفت عليك . ربما قبل ذلك كان بودي مغادرة الأندلس لأدفن نفسي في احدى زوايا بلادي . ولكن قوة خفية متينة تسمّرني للبقاء في هذه البلاد . آه ما اشقاني ! وثاق متين يكبّل قلبي . قد يكون هذياناً او خيالاً او وهماً . ولكنه جميل ويسحرني . آه ايها النصراني . احب ولست محبوبة .

– هل هذا ممكن ؟ هل وجد هذا المخلوق الذي يظلّ خالي الذهن والفؤاد تجاه فواتنك وطهارة قلبك ؟ اتكلي عليّ ، تصرفي بي كما شئت ، اعربي لي عن آلامك واشجانك ، فاني مستعد ان امد لك يد المعونة بقدر ما تسمح طاقتي ، فانا سأحبك بكل ما ملك قلبي من عطف صاف ومتجرد .

– اصدقك ايها النصراني لاني لو لم اصدقك لمت من الألم .

واخذت يده ورفعتها الى شفتيها قائلة : اني استحق الشفقة ، وانت قدمت لي حبك ما اسعدني !

فوقعت هذه الكلمات في اذن بيلاي كانها آتية من بعيد عالم ، فأيقظته من غفلته ، وادرك قوة هذا الحب الذي اخذ يتكوّن في صدر تلك العربية الحسناء .

– ولكن ما اسمك ايها النصراني الأنوف؟

وكان بيلاي في حيرة امام هذا المسلك الذي لم يدخله في حسابه ، وازداد قلقه لمّا سمعها تسأله عن اسمه ولا يقدر على الجهر بغير الصدق ، وأقلّ منه خداع فتاة اظهرت له كل عطف ومحبة لدرجة انها وعدته بالحرية .

وألحّت بالسؤال : الا ترغب في اجابتي ؟

– بيلاي هو اسمي .

فصرخت مريمه : بيلاي ، وكيف انقذت نفسك ، والاشاعة الكاذبة حول مقتلك ؟ قلبي لم يخدعني . ان الرجل الذي استحق حبي الاول ليس رجلاً عادياً . انه امير وانه بطل وانه شقي . ثلاثة تيجان تجلل هامته ، وأضيف اليها تاجاً جديداً ، حبي الاول . غداً تغادر هذا المطبق ، وانا سأتبعك ، والكوخ الذي يشهد حبنا ، احب اليّ من قصور دمشق وجنائنها . اني اعبدك ايها النصراني ، اعبدك بكل ما في قلبي من عبادة . مريمه عبدتكَ وجاريتكَ .

ولمع في عينيها بريق من الحنان ، وخفق صدرها بالحب ، وطبعت شفتاها

القرمزيتان قبلات ملتهبة على يد الاسير ، الذي علا وجهه الاصفرار ، وارتعشت اعضاؤه ، وذهل عقله ، وخارت قواه واصغى الى مريمه الداركة اسراره والأمينة على حياته .

وحار بيلاي في امره دون ان يدري ما ألمّ به ، غير قادر على الادلاء ، مرتعشاً خائفاً على نفسه من عاقبة هذا الحادث الغريب ، ومريمه تراقب حركاته وتصرفاته . خرق هـذا الصمت الطويل الشاق ، وقال : معاذ الله ارضى ان تصبحي شقية يا انبل واطهر واكرم النساء ! لو كتب لي ان اظل في هـذا المطبق ما بقي لي من حياة ، لا اوافق على خداع قلبك الطاهر . قد اجرّ نفسي الى تهلكة . وان كنت لا اخشى شيئاً من قلبك الملائكي . ان مصيري ومصير صديقي في يدك . اني ملقى بين يديك ايتها الحسناء « مريمه » ! اذا اعطيتنا الحرية والحياة ، باركنا اسمك الى الابد ، واذا وهبتنا العبودية والموت ، فأقبل يد الجمال القاسي الذي يكبّل عنقي بالسلاسل او يفصله عن بدني بالفأس . يا ملاك الانقاذ او يا ملاك الفناء ! نفسي حافظة ذكراك الى الابد . قلبي يخفق لك .

وتوقف بيلاي برهة خشية ان يجرح صدر العذراء الحسناء التي كانت تسمع هذه الكلمات صفراء الوجه بصفرة الموت وباردة مثل جدار ذلك المطبق .

ثم استأنف الاسير كلامه بصوت يرنو عليه التأثر . ادرك موقفي . غير ان شرفي يأبى عليك ان اجهر بغير الصدق . اصغي يا مريمه : لا اريد ولا يجب ان اخدعك ، انا لا أستطيع التصرّف بقلبي .

فغطّت الفتاة وجهها بكلتا يديها وعلا شجوها ونحيبها .

الفشل في الحب هو مدفن آمالنا الحلوة . ولكن على المدافن ينبت الزهر ايضاً . ان شجرة الامل لا تجف تماماً ، فجذعها يظل ينتدي من قلبنا وترويه دموعنا فينبت الزهر . وقد لا يكون زهراً عطراً ، ولكنه زهر جميل وحزين مثل ليالي الخريف . الزمن هو بلسم النفس . وعندما تندمل جروحك ، يعود الحب يخفق بجناحيه الذهبيتين حول جبينك الجميل . اتحسب انه بعد خسارتك فاورندا الى الابد قد اغلق الحب فردوسه الى الابد ؟

– كلا يا مريمه . انا ما زلت قادراً على الحب . الحب هو الحياة . انا اعبد

امرأة ، انها غوديوسا صديقة فلورندا ؛ واني بمحبتي لغوديوسا ، اعيد نفس فلورندا .

ولمّا ادركت مريمه ان الذي يفصله عنها هو حبه لامرأة اخرى ، صرخت صرخة داوية ، وسمّرت عيناها السوداوان في الأسير ، وقالت بصوت مخنوق مبحوح :

ايها الرب القدير ! بشفاعة نبيك ، صلى الله عليه وسلم ؛ هبني سيف غضبك لاسحق ناكر الجميل . سأنتقم ، سأنتقم .

وتوارت بسرعة البرق جارّة معها وصيفتها شريفة ، واغلقت الباب بعنف بعد ان دفعت الى الداخل اتنخلد الذاهل . العاصفة قريبة الانفجار على الاسيرين التاعسين .

• • •

٢

جاء صباح اليوم التالي ، وانفتحت زنزانة الاسيرين ، فظنّا انها النهاية . غير ان الحارس اخبرهما بالمثول في حضرة مولاتهما « مريمه » .

ومثلا امام مريمه ، وطال الصمت الى ان خرقه بيلاي : ايتها الحسناء مريمه ، نحن في قبضة يدك ، وحياتنا رهن كلمة من فمك الجميل .

— تخفيف شقائكما . فمنذ الآن تعملان في الحديقة حتى لا يكون لكما سبب للتذمر من شقيقة منوسة .

— الشكر من صميم الفؤاد . لا أنتظر اقل من هذا من كرم اخلاقك . ثم دنا وقبّل يد مريمه .

وشعرت مريمه بدمها كله يلتهب عند ملامسته يدها ، ورفعت انظارها اليه قائلة :

— لا شيء اكثر من ذلك ايها النصراني . لا شيء سوى عرفان الجميل الذي يكنّه قلبك لي ؟

وصمت بيلاي ، وتابعت مريمه كلامها :

— انظر ايها الكائن المعبود . في ساعات ارقي الطويلة ، وفي ساعات نهاري الحزينة ، تتجه اليك افكاري وخيالك الحبيب ماثل امام عيني . وانت تنبذني كنواة ، وعبثاً احاول كسب ودك . ما اشأم الساعة التي جئت بها الى هـذا القصر . افسدت عليّ صفاء قلبي وراحة ضميري . لماذا وقعت عليه عيناي يا ربي ؟ لماذا اعطيته كل حبي اذا كان عليه ان يظل مغلق الحواس على توسلاتي ودموعي ؟ اسمع ايها النصراني ! اني امرأة مسكينة شقية قد برّح بها الحب الذي قد يحملني الى الجريمة ، الى البوح باسمك ، واشبع شهوة انتقامي ، وبعدها اموت من اليأس .

ـ بربك يا مريمه ! لا تعذبي قلبي بهذه القساوة . اقلعي عن هذه الافكار السود البعيدة التحقيق .

ـ اجل ، الفروق بيننا كثيرة . انت من دين وانا من دين . تفصل بينهما بحار من الدماء . احبك كصديقة . واذا كتبت لي النجاة من هذا السجن ، واذا احتجت يوماً ما حياتي ، فانا مستعد لتقديمها لك بكل طيبة خاطر . هل تريدين مني ان اخدعك ؟ هل تريدين مني ان اكذب ؟ لا يا مريمه ، اكون لئيماً نذلاً اذا اقسمت لك حباً .

ـ بحقك ارجوك لا تكمّل . لا ادري ما اصنع ، اني ارتجف من ذاتي . قانون الحب دين بحد ذاته كتب بأحرف من نار في قلوب جميع الناس . كل شيء يعيش ويحيا بنفحة الحب .

لم احبب قبلك ، وابصرتك وشعرت بضرورة الحب . و يا ليتني لم ابصرك ، وتوجهت افكاري نحوك وعاد الامل يبسم لي بعيدة عن وطني . والآن عادت شجوني وكوابيسي ومستقبلي المظلم . ربي والهي ! هل اثمت لانني احببت هذا الكافر ؟ ان قلبي يعبدك ايها النصراني . هذا هو اثمي . هل تقوى على ادانتي ؟

ـ ادينك انا يا مريمه ؟ استميحك عفواً لاني السبب في شجوك على غير قصد مني .

ـ فأخذت يد بيلاي بين يديها بحنان : ايها النصراني ! هل تقوى على رفض امرأة عاشقة اضلتها عاطفة اقوى من كل عاطفة اخضعت ارادتها وافقدتها عقلها . ارتمت على هذا النحو بين ذراعيك آملة النجاة لكي تقودها الى جنة عدن على اجنحة الحب الصافي العظيم الذي لم يشعر به مخلوق .

ثم طوّقت بذراعيها عنق الاسير الجميل ، وفكّت الطوق فجأةً وقالت : ولكن اذا ارغمت على الهرب من امامك ولعن صورتك وذكراك والساعة التي وقعت فيها عيناي عليك للمرة الاولى . واذا اصغيت الى صرخة الكبرياء يدافع اليأس ، فاني اشبع انتقامي منك واصبح مجرمة .

وعند وصولها الى هذا الحد ، تهادت متعبة من هذا المشهد الناهش في فؤادها والوالغ في دمها .

• • •

٣

فلنتركهم وننتقل الى مشهد حب آخر .

ـ حانت الساعة لأخاطبك بدون رقيب ايتها النصرانية الجميلة . اني مطلعك على امور خطيرة تتعلق بقلبي .

ـ وانا ايضاً يا منوسة . عندما تواعدنا هذا الصباح ، فكرت بطلب حاجة منك .

ـ انت تعلمين يا حبيبة قلبي ، ان نفسي تطيب بمنحك ما هو بمقدوري . وخيخون تشهد فهي تعيش رضية بعدما كانت ستحوّل الى رماد لولا توسطك .

ـ ايها العزيز منوسة ، في الماضي كنت اشفع الآخرين ، اما اليوم فالشفاعة لنفسي .

ـ وهل تشكين بتلبية رغبتك ؟ وارادتي ارادتك .

ـ لست واثقة هذه المرة .

وحدقت هرمسندا بعينيها الناعستين في منوسة الذي كان يتأملها حالماً .

توجد نظرات في بعض الاحيان من الحياة تعتبر قصيدة كاملة ، فالنفس تطل على العين ، والعاشقان تبادلا هذه النظرات . والفرق بينهما ان منوسة سعيد جداً وهرمسندا شقية .

اضطرب ايها العزيز منوسة عندما اتبيّن الهوة السوداء العميقة عند قدمي . بئس اللحظة الاولى التي رأيتك بها . الف مرة ومرة ، يا ليتني متّ قبل ان اراك . منوسة حبيبي ! لماذا ظهرت جميلاً في نظري واستهويتني ؟ لماذا اصغيت الى صوت تضرعي وعفوت عن هذه المدينة ؟ كان الافضل لي ان اموت حرقاً ، ولا انجو واشهد النار تتقد في صدري جمراً يذيب مهجتي . عفواً يا معبودي ، لا ادري بما انطق . انني جننت بن اهوى ، وجننت من العار .

ثم غطت وجهها بيديها ، وخنقت حسرات وزفرات كانت تحاول الانطلاق من صدرها .

اهذا ما انتظره منك في هذه الخلوة ايتها الحسناء هرمسندا ؟ انت ايقظت في قلبي غراماً جارفاً وكبيراً مثل بلاد الله . ان الاشعة التي ترسلها عيناك الحزينتان نفذت الى قلبي وكسرت من انفي وشموخي . ويطربني صليل السيوف وقرع القنا في عجاج المعارك وفي الحرب السجال فأستلذ خوضها وآنس بها ، حسبت اني خلقت لخوض المعارك . الم تشاهدي الاسد يمزّق بمخالبه قطيعاً كاملاً من الغنم ؟ وبعد انتصاره الدامي يرجع وديعاً الى قرب حبيبته ورفيقته واشباله .

انا ولدت ما وراء البحار ، وسيفي كان انيسي وغرامي الوحيد ، لم احلم الا بالمجد والشهرة والسيف . امتشاق قامتك اجمل من مشقة الرمح ، ونظراتك اشد وقعاً وفتنة من لواحظ بنات الصحراء . قهرتني ايتها النصرانية ، وروّضت صدري العصي . انت كنت لي في صحراء حياتي نخلة وورداً عذباً في رمال الصحارى. احبك ايتها الفاتنة هرمسندا Hermesinda احبك بقوة حرارة الشمس المتوقدة في بلادي .

وكانت شقيقة بيلاي صاغية الى العربي المضطرم جوى . ومنوسة فتى شجاع شريف النفس ، عالي الهمة . غير انه عدو دينها وعدو وطنها . لقد استولى على قلب هرمسندا ، وهي تحبه بقوة الشعور الجديد العميق الذي وسّع آفاقها المجهولة البعيدة القرار . وارتجفت العذراء النصرانية لما شعرت بالثورة الهصور التي شبّت في عالمها الداخلي . لم تعد مثل ذي قبل سيدة على عواطفها ورغباتها . الآن اصبحت ضحية وعبدة لهذه العاطفة الغريبة المتأججة الظالمة التي اضطرمت في اعماقها . ومما زاد في تعسها وشقائها ان موضوع حبها لا يدين بدينها . فالفرسان المسلمون العرب الذين يكبلون بدون رحمة ايدي النصارى لا يستحقون حب فتاة طاهرة ، تربّت في احضان الدين المسيحي ، متحدرة من سلالة القوط .

حالتها اشبه بحالة مركب شراعي تتلاعب به الارياح ، فلا يدري اي ريح يتبع . وهذه الفتاة تصارع الف عاطفة تهز كيانها ، ولا تدري اي جرح تداوي واي ميل تساير .

ـ وانا ايضاً احبك يا منوسة ولماذا الانكار ؟ اجل ايها المعبود منوسة . ولكن

لا بد لي من مساعدة لاصل الى النهاية في محاولتي ، فانت سيد هذه المدينة ولا احد يدخل اليها او يخرج منها الا بمشيئتك .

— ما تعنين بذلك يا هرمسندا ؟

— ارجوك يا منوسة . بحق حبنا وبحق الهي والهك لا اريد ان اكون اقل مروءة من صديقتي المسكينة فلورندا الذي غرر بها الملك لذريق ، فانزوت في الدير لما رأت ان احلامها قد تبددت كما تبدد الريح الغمام . اريد الاقتداء بها ، والعيش بقربها ونبكي معاً تعاستنا . دعني اذهب الى دير القديسة اولاليا .

فسمّر فيها نشرة يائسة ، وتأملها حزيناً ، وظلّ وقتاً طويلاً صامتاً متجهم الوجه جامداً بينما هرمسندا تردد في نشيجها الفلتان : حبنا مستحيل . دعني اذهب .

— مطلقاً . ايها الإله القدير لماذا اوردتني هذا المورد الصعب ؟

صارعت اكثر مما يصارع اي كائن بشري ، واخيراً سقطت . رجالي يتذمرون بحجة اني عاملت النصارى برفق ، ولا اعبأ بهم . بمقدوري آخذك جارية ونيل اربي منك بالعنف ، ومع ذلك اما انت السيدة المطاعة في هذا الصرح ؟ فالحب الذي اكنه لك صيرني رجلاً آخر . لقد فتحت لي ابواباً خفية الى جنة الحب فدخلنا اليها معاً .

— منوسة حبيب قلبي ، اعبدك ، اجل اعبدك . هذا ما تكرره شقيقة بيلاي . انما لا يجب ان اصير زوجة لرجل لا يدين بديني . لعنة الله ولعنة الناس تلحقنا الى الابد .

— ولماذا ؟ هل الحب جريمة ؟ اليس الله تعالى هو الذي كتبه بأحرف نارية في نفوسنا ؟ هل نحن في نظره احقر من هذه الحشرات التي تحرّك اجنحتها في ظلام الليل ؟ هذه الكائنات الحية الصغيرة تتمتع بالحب . اسمعي الى تنهدات النسيم ، واصغي الى خرير المياه . وتأملي النجوم ، وانظري هذا القمر الذي يسكب اشعته الذهبية على جبينك العاجي . واسمعي صخب امواج البحر وصدى التيار الجارف ، وزئير الحيوان المفترس ، وزقزقة العصافير ، اليس كل هذا ترنيمة حب للخالق ؟ الحب هو دين جميع الناس . الحب هو اكبر حقيقة

على الارض . العالم اجمع اعترف به . دعوتك هذه الليلة لأبلغك قراري النهائي. اريد ان تصبحي زوجتي .

– معبودي منوسة ، ارى امامي هوة عميقة ، ولكنها مغطاة بالازهار . اشعر اني منجرّة الى الهاوية ولا قدرة لي عن الرجوع . انا لك يا حبيبي سأكون زوجتك . ويلي ، ماذا استطيع ان افعل الا ان اتبعك الى حيث تمضي ، الى اقاصي المعمور ، الى بلادك الى ساحات القتال ، الى واحة الامان . الى ...

– الى فردوس الحب لنقطف منه ما تصل يدنا ويشتهيه قلبنا .

فهتف منوسة : نعم السعادة سعادتي . ان قلباً واحداً لا يكفي ليملأها .

وتعانق الحبيبان على طفاح وغرقا في نشوة اللذة ، وامتزجت شفاههما ، وغاب العالم عن انظارهما ، وهيمنت فكرة الحب وحدها لتسربل وجودهما بهناءة بعيدة الغور . وفجأةً تملّصت هرمسنده من ذراعي حبيبها صفراء الوجه مرتجفة البدن جاحظة العينين ، وانسلّت هلعة بين صفين من الاشجار حتى سقطت على الحضيض بدون حراك .

فدهش منوسة ولم يدرِ السبب ، ولمّا اقترب منها ، خاطبته قائلة :

– عفواً يا حبيبي منوسة . اصفح عن اتعس النساء قاطبةً . انظر الى شبحه انه يطاردني ، ما ارهب هذا المنظر .

المسكينة هرمسنده تهذي .

– ابعدي عنك هذه الافكار السود ، وهذه الرؤيا المزعجة . شقيقك ينعم برقدة الابطال . عشيرتك تكرمه . عشيرتي تحترمه ، وانت شقيقته سيطيعك النصارى والمسلمون على السواء .

– حبيبي منوسة ، ان كلماتك تسقط على قلبي سقوط الندى على الازهار الذابلة . ان حبي وحناني سيغمرانك . انا سأكون حامية النصارى ، انا سأكون الرابطة والعروة بين الشعبين ؟

– زوجتي حبيبتي ، ما اجمل الحياة قربك .

• • •

٤

لم تكن مصالحة موسى وطارق سوى مصالحة عابرة . فالضغن داء دفين بين الاثنين . والاثنان لهما الانصار والاعوان . والطرفان يرسلان البريد الى دمشق . ذلك يمجد زعيمه ويحط من قدر خصمه ، وذلك ينتقد خصمه ويقدس زعيمه . لقد صوّر طارقاً خصمه كرجل لا محال للفطنة في عقله ، اعطبا طيّ مسرف ، يخرق نظام الجيش ، فيلين في بعض الاحيان الى حد الاسراف ، ويشتد حيناً آخر الى اقصى الشدة . بينما موسى في نشر هؤلاء رجل فطن ذكي البصيرة ، انضباطي في تصرفاته واصدقاء طارق يعتبرونه بطلاً شجاعاً كريماً سخياً جواداً شهماً دقيقاً في المحافظة على حقوق سيده من الغنيمة ، ويوزع الباقي بسخاء على جنوده ليحثهم على خدمة القضية العربية في الجهاد والفتح . اما موسى في نشرهم ، انه طمّاع ونهم ، يفرض غرائم لا يمكن قبولها ، ويجمع كنوزاً ضخمة ويكدسها في خزائنه .

وتعب الخليفة الأموي من هذه الشكاوى وخشي سوء العاقبة من جراء هذا الخلاف بين رؤساء جيشه .

فكتب الى الزعيمين بالتوجه الى دمشق ، وتسليم القيادة الى رجال اكفاء .

تلك كانت المكافأة التي لقاها موسى فاتح اسبانيا . انها ضربة قاسية تصيب رجلاً طموحاً مثله . غير انه رضخ لأمر الخليفة ، فعاد الى اشبيلية ، ودعا المسلمين والنصارى الى طاعة ابنه عبد العزيز فهو الوالي على الاندلس . ووعظه وترك معه ايوب ابن اخته ، وهو رجل محبوب نظراً لحكمته ، ليكون مساعداً لعبد العزيز في اموره ، وودع اصحابه مؤكداً لهم عودته القريبة .

ولمّا خرج من اشبيلية متوجهاً الى دمشق ، استصحب حاشية كبيرة العدد ، واربعمائة رهينة من اعرق عائلات القوط ، وجواري وعبيداً هدية للخليفة ، تتبعهم قافلة من الدواب والبغال مثقلة بالغنائم للخليفة ليخرس السنة اعدائه بهذه الهدايا الناطقة بثروة البلاد التي دخلوها .

وتوغّل في غوطة الوادي الكبير ، وكان من حين الى حين يلتفت الى الوراء كأنه آسف على مغادرته الاندلس ، متأملاً قصورها وابراجها . « ابتعد عنك ولا ارغب في الابتعاد عنك » . وتنهد من اعماق قلبه ، والحزن يملأ فؤاده . :

ثم ابحر في قادش ، وانتقل الى افريقية مع اصحابه واثقاله ، ونظم الامور : فولّى ابنه عبد الله على طنجة ، ومروان على القيروان ، واعتقد انه بذلك ضمن لاولاده السيطرة على البلدان التي احتلها ، وتوجه الى الشام حاملاً معه الغنائم .

وبينما كان موسى يهيّئ لهذه الامور ، وينتقل من مرحلة الى مرحلة مثقلاً بالغنائم ، رأى طارق ان يلبي بسرعة دعوة الخليفة . فقد ادرك اهمية الوصول قبل غريمه الى دمشق ، والمثول في حضرة من سيسمع الشكوى ، ولم يحمل معه شيئاً من الغنيمة ، لان ما كسبه وزعه بين جنوده ، والقسم الآخر دفعه لموسى ، والباقي وهبه بسخاء . فوصل الى دمشق مع شلة من الجنود الاخصاء دون هدية سوى سلاحه وجسمه المسخن بالجراح المندملة . ومع ذلك فقد استقبله الجميع بأهازيج الظفر متسارعين لمشاهدة ذلك البطل الذي افتتح الغرب ، وسبقه صيته حتى اصبح حديث الخاص والعام .

وقد اعجب الجميع بهيئته . انه مثال الجندي الممثلي الجسم ، الاسمر اللون ، السلام على سيف الاسلام وعلى بلاء الكافرين . انظروا الى الجندي البطل الذي يدوس المكاسب ولا يتطلب سوى المجد .

واستقباله الخليفة ايضاً بالترحاب وسأله عن انتصاراته . فروى له طارق اعماله الحربية باخلاص وصدق دون تبجح ، وقال له :

يا امير المؤمنين ؛ لم احمل اليك ذهباً ولا فضة ولا حجارة كريمة ، ولا اسرى ، لان الغنائم التي لم اسلمها لموسى وزّعتها بين جنودي .

وهؤلاء المقاتلون جنودك يخبرونك عن سلوكي معهم . اعدائي انفسهم يشهدون لي بالبسالة والاقدام والحلم عند المقدرة .

وسأله الخليفة : من هم هؤلاء النصارى الذين يصحبونك ؟ فأجابه طارق : انهم الاسبان ، اسود في قلاعهم ، وعقبان على خيولهم ونساء على ارجلهم . واذا غلبوا على امرهم ارسلوا ارجلهم الى الهرب مثل الماعز البري ، فليسوا بحاجة لمشاهدة الارض التي يطأونها .

– اخبرني عن البربر .

انهم كالعرب شراسة ، وخبرة في القتال وفي معرفة خدع الحرب . وهم يشبهونهم بقوتهم وبضيافتهم ولكنهم اكثر الناس لؤماً على الارض فانهم لا يحترمون وعداً قطعوه على انفسهم .

– وعن الافرنج ماذا تقول ؟

– عددهم لا يحصى ، سريعون في الهجوم ، اشداء في القتال ، وعديمو النظام ، وسريعو الهزيمة .

– وكيف كانت امورك معهم ، هل انهزمت مرة ؟

– على الاطلاق والحمد لله . لم تنهزم لي راية في ساحة الوغى وان كانت قوات العدو تفوق قواتنا اضعاف الاضعاف ، فرجالي لم يتجنبوا القتال قط .

فسرّ الخليفة من خشونة مظهر طارق ، وبرهن عن سروره بالاكرام الكبير ، وحيثما يلوح طارق ، يحف به الترحيب والتقدير والاعجاب والاكرام عند الشعب .

وما طال الوقت حتى مرض الخليفة مرضاً شديداً لم ينجع فيه نطس الاطباء ، فقطعوا الرجاء من شفائه .

وخلال مرضه وصلت انباء عن موسى بن نصير انه دخل سوريا حاملاً معه غنائم لا تحصى .

وكان سليمان بن عبد الملك وشقيق الخليفة ، وولي العهد تحسس بدنو اجل اخيه ، فشاء الفوز بالغنيمة ، فكتب الى موسى يقول له : : الخليفة مريض ولا يقوى على استقبالك في الوقت الحاضر ، فتربص في الوصول حتى يبلى من مرضه .

غير ان موسى لم يعر الرسول ادنى اهتمام ، وضرب بعرض الحائط اقوال سليمان ، وجد في السير حتى يصل الى دمشق قبل وفاة الخليفة ، فأضمر له الشرّ في اعماق قلبه .

دخل موسى المدينة ظافراً ومعه اجمال لا تقدر ما تفاتن الغنائم ، واربعمائة صبي من اشراف القوط كرهائن يلبسون التيجان المذهبة ، ومائة عذراء نصرانية ادهشن بجمالهن الحاضرين . وامر موسى بنثر النقود الذهبية في الشوارع التي يمرّ بها والناس يصفقون بحرارة لمرور موكبه .

وقالوا : انظروا الى قاهر الكافرين ، انظروا الى الفاتح الظافر الذي يحمل الى بلاده غنائم واسلاب المغلوبين ، بارك الله فيك واطال ايامك .

ونهض الخليفة الوليد من فراش المرض لاستقبال موسى ، ولمّا هرع الى القصر ، كان موسى قد زينه بالكنوز وبالتحف الثمينة ، واصطف الفتيان الرهائن بأجمل لباسهم ، والعذارى المسيحيات الفاتنات مثل حوريات الجنة .

ولمّا سأل الخليفة موسى ان يؤدي حساباً عن فتح الاندلس ، انطلق بالوصف المسهب دون ان يعرض لاسم طارق ، وتحدث كما لو ان كل شيء قد انجزه بذاته . ثم عرض له الغنائم كما لو انه استولى عليها بذاته . وعندما جيء بطاولة سليمان الحكيم ، اشاد في وصف منافعها وادعى العثور عليها . فقال طارق : كلا يا امير المؤمنين ، انا الذي عثرت عليها . وفحصها الخليفة ، ووجد انها مصنوعة من زمردة واحدة ذات حجم كبير ، وان رجلاً تنقصها ، جعل موسى مكانها رجلاً اخرى من ذهب . وسأل موسى : اين الرجل الاخرى من الطاولة ؟

فأجاب موسى : لا ادري ، هكذا وجدتها ، تنقصها رجل .

عند ذلك كشف طارق من تحت عباءته عن رجل من زمرد مثل الأرجل الباقية ، وجعلها في مكانها .

— ارأيت يا امير المؤمنين من هو الصادق ومن هو الكاذب ، وهذا شأن القسم الاوفر من الغنائم استوليت عليها وانا احتلات المدن مالكة هذه الكنوز ، واذا اردت برهاناً على صدق مقالي فسل هؤلاء الأسرى من اسرهم ؟ وسل المقاتلين المسلمين الذين شاركوني في الحروب والمعارك .

وسقط في يد موسى ، حاول الدفاع عن نفسه فقال : انا القائد الفاتح الذي سار بالجنود من فتح الى فتح ، ومن نصر الى نصر . من المستحيل افتراض استطاعة القائد الاستيلاء على جميع الأسرى الا قتل جميع جنود الاعداء . ولا يمكن القول انه جمع بيده هذه الاسلاب .

غير ان الخليفة لم يصغ اليه : لقد تبجحت بانتصاراتك متناسياً استحقاقات الآخرين ، واكثر من ذلك حاولت تنقيص قدر الذين خدموا الخليفة باخلاص .

ثم ان الخليفة وهب قسماً كبيراً من الغنائم لطارق وبقية الرؤساء دون ان يخص موسى بشيء منها فانسحب بين هزء الحاضرين وشماتتهم .

وما طال الامر ان توفي الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وخلفه اخوه سليمان . وكان الخليفة الجد الجديد يضمر حقداً شديداً لموسى لانه خالف اوامره لما نهاه عن الحضور الى دمشق ، واصغى الى اقوال الواشين به ، وما اكثرهم ضد موسى . والآن ، وقد بات محروماً من عطف الخليفة ، تجرّأ عليه الواشون واتهموه بانه بعثر قسماً كبيراً من الغنائم العائدة الى امير المؤمنين .

واستمع هذا بكل رضى الى الاتهامات الموجهة لموسى وأمره بان يسلّم جميع ما غنمه في اسبانيا .

وتحمّل موسى فقد ثروته بصبر ، وهاله ان يرى شهرته واسمه يتدحرجان على الحضيض ، فامتلأ قلبه حزناً . فقال للخليفة :

لقد خدمت الخلافة منذ صباي باخلاص وامانة ، والان جرّدت من كل شيء في شيخوختي . لا تهمني الثروة والغنى ، ولكن لا تجرّدوني من الشرف الذي نلته من عند الله .

وازداد الخليفة سخطاً لما سمع تذمر موسى بن نصير ، وامر بان تنزع عنه كل سلطة ، وان يستولى على جميع ممتلكاته ، وفرض عليه مائتي مثقال ذهب .

ثم امر بجلده ، وان يبقى في الشمس حتى منتصف النهار ، ثم يلقى في السجن .

وهزأت منه عامة الشعب واحتقرته ، وشتمت به في مصيبته .

ولما رأوه معرّضاً للشمس المحرقة ، اشاروا اليه بالاصابع هازئين ساخرين « انظروا الحسود والكاذب الذي يزعم انه استولى على بلاد الكفر » .

. . .

٥

عبد العزيز بن موسى امير الاندلس

وبينما هذه الاحداث تجري في دمشق ، كان عبد العزيز يحكم الاندلس بتسامح وصفاء نيّة نحو القريب والبعيد ، وكان اباه قد ترك له مستشاراً مخلصاً في شخص ابن شقيقته ايوب .

واسترشد بنصائحه ، فأدار شؤون البلاد بفطنة ودراية وازدهار الى حين .

ووجّه اليه والده رسالة في طريقه الى دمشق جاء فيها :

« ولدي الحبيب المشرف محتدة حفظك الله من كل مكروه وخطر . يا بني اصغِ الى نصائح والدك . تجنّب الخيانة بجميع وجوهها وان كنت خاسراً ولا تستتم الى من يرشدك اليها حتى ولو كان شقيقك . اقصِ عنك الخائنين . حذارِ يا ولدي من حبائل الحب ، فانه ميل يضعف القلب ويفسد الرأي ويحوّل القوى الى ضعيف ، ويصيّر الامير ذليلاً . واذا اكتشفت ان في صدرك ينبت زرع من الضعف فاقتلعه من جذوره وان سبب لك بعض الألم . العيوب الجديدة قابلة الاقتلاع بسهولة ولكن اذا تأصلت ، تزدهر ثم تنبت بذوراً وتعطي اثماراً كثيرة . اعمل بنصيحتي تعش برغد وصفاء .

« دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فانما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة ، فلا تطلعهنّ على سرّك ولا مكايدة عدوّك ، ولا تطمعهنّ في غير انفسهنّ ، ولا تشغلهنّ بأكثر من زينتهنّ ، واياك ومشاورتهنّ فان رأيهنّ الى افن وعزمهنّ الى وهن ، واكفف عليهنّ من ابصارهنّ بحجبك ، ولا تملك الواحدة منهنّ من الامور ما يجاوز نفسها ولا تطمعها ان تشفع عندك لغيرها ، ولا تطل الجلوس معهنّ والخلوة بهنّ ، فان ذلك اوفر لعقلك وابين لفضلك » .

• • •

فتأمل عبد العزيز في فحوى هذه الرسالة لان بين طياتها سراً لم يحل غوامضه ، فدعا اليه مستشاره وامين سره ايوب وقال له : لماذا شاء ابي تحذيري من الخيانة والغدر ؟ فهل ظنّ ان عنصري فاسد الى هذا الحد لأتمرّغ في حمأة الرذيلة ؟

فقرأ ايوب الرسالة بامعان ثم قال له : ان اباك يحذرك من الخائنين يوليان واوباس واتباعهما ، فلا تتوقع محبة وخيراً من اناس خانوا بلادهم وعشيرتهم .

فسرّ عبد العزيز من تفسير الرسالة على هذا النحو ، فصار يخشى كشف اسراره الى اولئك الناس لانه ليس من شيء اقبح على قلب الفتى الحر من الخيانة والدناءة ، وما حاجته الى نصائحهم وارشاداتهم ؟ فلم يعد لهم من وطن يبيعونه ، غير انهم قادرون على بيع اسيادهم الجدد ، فأبعدهم عن بلاطه ، وأوكل اليهم وظائف لا يستطيعون ان يأذوه منها .

وكان شديد الثقة برجاله العرب وبالفيالق البربرية ، وبمساعدتها توصّل الى احتلال البرتغال الى اقصى مناطق الغرب حتى ضفاف البحر الكبير . وارسل جنوده لاحتلال المناطق النائية من اقاصي الشمال .

وكان ايوب يقول له : لا يكفي ان نحكم البلاد بالسيف اذا اردنا ان ندعم سلطاننا علينا ان ندرس فنون السلم واعادة الثقة الى النفوس ونشر الازدهار بين صفوف الشعب الذي اخضعناه .

وتذوّق عبد العزيز هذه النصيحة التي تتفق وطبعه اللين السموح ، وبذل جهده في تهدئة الاضطراب الذي احدثه الفتح ، فحرّم السلب والنهب من اي نوع كان ، وترك للقوم حرية حراثة اراضيهم بأمان ودون ازعاج ، وحثّ العرب والبربر على النزوح من افريقية الى الاندلس للاستيطان فيها ، مقدماً لهم المسكن والارض للاستثمار ، فسهّل لهم احتلالاً سليماً .

وما لبث ان ظهر حسن تأثير هذه السياسة الرشيدة ، فكثرت المداخيل ، وعمّ الازدهار في البلاد .

فأمر عبد العزيز بجمع هذه المداخيل وايداعها الخزينة ، وجمعها في الاقاليم لارسالها فيما بعد الى الخليفة في دمشق .

غير ان رعاع القوم والمرتزقة الذين قصدوا الاندلس للسلب والنهب والغزو ،

لم تعجبهم هذه السياسة التي تحوّل دون تنفيذ غايتهم ، ورأوا ان عصر الارهاب وصل الى نهايته . فتذمروا فيما بينهم قائلين : من هذا الذي يمنع عنا حقوق الاستفادة من خيرات الارض التي انتزعناها من اشداق العدو الكافر ؟

وغذّى انصار يوليان هذا التذمر قائلين : انظروا كيف يعامل صاحبكم اعداء الايمان .

واثّرتْ هذه الكلمات في نفوس المسلمين الطامعين في السلب والنهب ، امّا محبو السلام والنظام العادل فقد صفقوا لتدابير الامير الفتى .

وكان عبد العزيز قد جعل كرسيه اولاً في اشبيلية المدينة القريبة من الساحل الافريقي في قصر جميل الهندسة ، تحيط به الجنائن الغناء الممتدة حتى نهر وادي الكبير .

وفي احد جوانب القصر مكان خصص للسبايا ، الحور الحسان الرافلات في الدرّ والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان ، وقد احتجزهنّ عبد العزيز على شكل رهائن ، يضمن بوجودهنّ في قصره الاستقرار والسلام في البلاد .

واكرم مثوى النساء العريقات في الحسب والنسب ، واقام الجواري على خدمتهن ، ودرّبنّ الشابات منهنّ على فنون التطريز والغناء والرقص ، وكنّ يقضينّ الوقت في المرح البريء ، واعتادت الكثيرات منهنّ على هذه الحياة الرخيصة الناعمة ، واخذت تمحى من ذاكرتهن تلك المشاهد المرعبة وفي غالب الاحيان استيقظت فيهنّ الرغبة في ارضاء الفاتحين .

ولمّا رجع عبد العزيز من احتلال بلاد البرتغال ، احب ان يستريح من عناء السفر في قصره بصحبة الرهينات الفاتنات ، واعتاد ان يشاهد واحدة منهنّ لا تشارك الاخريات مرحهنّ وبهجتهنّ ، وكان زوال النعمة قد صبغ على وجهها مسحة من الجمال الحزين الصامت ، فمجرّد نظرة اليها تقربها من القلب .

وجدها ذات يوم عبد العزيز في الحديقة مع صديقاتها ، وكنّ قد زيّنّ رؤوسهنّ بالزهور ورددنّ بعض الاغاني الشائعة . امّا هي فظلّت جالسة صامتة ، وقد اغرورقت عيناها بالدمع ، فتأثر الامير الفتى ، وتوجه اليها بالكلام : انت الجميلة بين النساء ، لماذا البكاء وسبب حزنك ؟ اخرجي من

عزلتك الى مسامرة اخواتك ، ما انت الا نادرة الدهر المستولية على النفوس بالقهر . فأجابت : كيف لا ابكي انا التي رتعت في سناء المجد والآن هبطت الى احط منزلة ، انا اجيلونا التاعسة ملكة اسبانيا الى زمن قريب ، وزوجة لذريق ، والآن اسيرة جارية .

ثم خفضت انظارها ، وسدرت في صمتها ، واستسلمت لدموعها .

ولمّا شاهد عبد العزيز ذلك الجمال الملكي غارقاً في النحيب ، استيقظت فيه شواعره الشريفة ورفع اجليونا الى منزلتها السابقة فأحاطها بحاشية ووصيفات شرف . وعند فراغه من شؤونه ، يأتي لمجالستها ، واهمل امور البلاد تاركاً لمستشاريه مهمة حضور الجلسات والاجتماعات ، بينما هو يتنعم بالقرب من اجيلونا متلذذاً بسماع صوتها .

وشعر ايوب بالخطر المحدق بسيده ، فقال له : تذكّر اقوال ابيك : « احذر يا ولدي من غواية الحب ، الجبار يتحوّل الى ضعيف والامير الى عبد » .

واحمرّت وجنتا عبد العزيز خجلاً ، ولزم الصمت برهة ثم قال : لماذا ترميني بالضعف ؟ ان الاستسلام الى فتنة امرأة شيء ، والتأثر من زوال نعمتها شيء آخر . ان من واجبي ادخال السلوى والعزاء الى نفس هذه الملكة التي نزلت الى احطّ درجات الذل بسببنا ، اليس من واجبنا ان نعوّض عليها بعض مـا استلبناه منها ؟ هذا فرض من فروض الشهامة وسخاء النفس .

ويصمت ايوب ويساوره القلق ، وللمرة الاولى ينصرف عبد العزيز غير مرتاح الى نصيحة من اقامه اباه للسهر عليه .

وعندما تتكدس الهموم والضجر في نفس عبد العزيز ، يلتجيْ الى اجيلونا ، فانها تملك سحراً حلالاً في كلامها ونظراتها فتسيطر عليه . وحاول يوماً ان يوقظ فيها هذا الحب الذي ايقظته فيه . قالت بصوت رصين ينفث المرارة : ان القدر القى بي تحت قدميك ، فانا اسيرة ، وانا جزء من الغنيمة التي استوليت عليها ، انا في قبضتك ولكن نفسي حرة لا تستطيع اخضاعها ، وتعلم ايضاً ان القوة تنقضي للدفاع عن شرفي ، غير اني مصممة ان اغسل بدمي اي لطخة عار تلحق بي ، ولكن من ناحية اخرى ثقتي كبيرة بشهامتك وكرم اخلاقك لكي تحترمني وتحترم شقائي ومصيبتي ذاكراً ما كنت عليه وما صرت اليه . وان كان التاج قد ازيل عن مفرقي ، فما زال دم السيادة يغلي في عروقي .

فزادت هذه الكلمات المضطرمة التي فاهت بها اجيلونا ، في هوى عبد العزيز ، فطلب ان تقرن مصيرها بمصيره وتتقاسم معه السلطان وحياته فتكون شريكة قلبه . فزالت كل المخاوف التي كانت تساور اجيلونا الملكة الاسيرة ، وقررت الزواج من عبد العزيز سيّد اسبانيا حالياً .

وجنّ جنون ايوب عندما علم بعزم عبد العزيز على الزواج بارملة لذريق . كيف سمحت للهوى يلعب بك ويردك هذا المورد ؟ هل نسيت رسالة ابيك ؟ « حذار يا ولدي من الحب ؛ انه يضعف القلب ويفسد الرأي » . فقاطعه عبد العزيز : ان ابي يتكلم عن الحب الشهواني الذي صنت نفسي عنه بانصرافي الى حب اجيلونا النقي الطاهر .

وقد شاء ايوب ان يحمله على العدول عن عزمه ، مصوراً له المخاطر التي قد تنتج عن هذا الزواج ، غير ان الفتى العاشق صمّ اذنيه عن سماع النصح ، وتزوج اجيلونا .

وتمّ الزواج في اشبيلية بأبهة بالغة ، وغيّر اسمها فجعله « ام عاصم » بعد ان وهبته طفلاً جميلاً ثمرة حبهما الطافح ، فأصبحت اجيلونا اميرة الاندلس بعد ان اعتنقت الاسلام ، وغطّت وجهها اسوةً بالنساء المسلمات ، واجيلونا لم تنجب ولداً من الملك لذريق طيلة زواجها القصير الامد ، بينما اعطت عبد العزيز طفلاً جميلاً .

احب عبد العزيز « ام عاصم » حباً حقيقياً رغم الظروف التي حملتها على الإلقاء بنفسها بين يدي قاهر بلادها . فأول جاذبية جنسية كانت جسدية محضة . هذا امر لا يقبل الريب ، لان الاتحاد الجنسي كان الطريقة الوحيدة للاتصال الحميم بينهما ، فعبد العزيز ليس بحاجة الى معرفة اللاتينية حتى ينجب ولداً .

وغيّرت ولادة الطفل مجرى الامور كثيراً ، لقد تحوّلت الملكة اجيلونا الى سيدة وقورة يحيطها الاكرام وتحفّ بها العظمة ، وراحت تبسط نفوذها على زوجها شيئاً فشيئاً ، وازداد هذا النفوذ مع الوقت .

ورأينا ان موسى بعد استيلائه على ماردة ، توجّه الى طليطلة للاجتماع بطارق ، وارسل ابنه عبد العزيز الى اشبيلية المتمردة لاخضاعها . فلم يجد

عبد العزيز كبير عناء في اخضاع اشبيلية ، وجعلها عاصمته . وانتقلت اجيلونا الى العاصمة الاندلسية الجميلة التي ظلّت عاصمة اسبانيا بضع سنوات ، واستقرّ عبد العزيز في عزبة جميلة خارج المدينة كانت دير القديسة رو فينا اجريتْ فيه تعديلات على الطراز العربي .

وحشد الجواري الجميلات والوصيفات في ذلك القصر ، والمغنيات والقيان . غير ان عبد العزيز شغلته اجيلونا عنهنّ جميعاً برواق طلعتها واناقتها ، و بوقارها وهيبتها .

وكان مغيث قد اعتقل عظيماً من اشراف القوط ، لمّا حاصر قرطبة ، هو حاكم المدينة ، ولم يكن الامر عادياً اذ ان القوط كانوا يفرون حالاً ، ولهذا كان ينقله معه في غزواته ، وكان في نيته ان يقدمه يوماً الى الخليفة كهدية .

وكان لهذا الحاكم ابنة جميلة جداً لم ينتبه اليها الفاتحون .

سمعت الفتاة قصة « الدغوندا » ، الفتاة التي فرّت مع عشيقها من مخالب عطيلا .

ـ وانا ايضاً سأخدع مغيثاً ، وسأعرف كيف اروضه ، واذا اقتضى الامر اضحي بطهارتي حتى انقذ والدي ، وبعدها اقتل مغيثاً .

و لكن المسكينة كانت تجهل تماماً النفسية الجنسية عند العرب ، وهؤلاء كانوا اكثر خبرة وواقعية من البربر « الهونس » .

اجل ، لقد استطاعت الاقتراب من مغيث ، وحاولت اغراءه بجمالها وصباها وفواتنها . واكتشف مغيث جمالها ومقاصدها وتساءل : كيف لم تقع عيني قبل اليوم على هذه الفتاة القوطية ؟ غير انه دهش من تصرفها حياله ، وسأل نفسه كيف ان عيني لم تبصر هذا الجمال . ارى في الامر غرابة فتاة قوطية تعرض ذاتها بهذه القحة ، ما غرضها ؟

وما لبثت الفتاة ان اجابت على هذه الاسئلة لمّا اخضعها مغيث للاستجواب المنتظم . انها مسكينة لم تتوصل الى ادراك مآربها ، ولم تتمكن من انقاذ والدها ، وهي ذاتها وقعت في شراك الحب . انها امثولة للفتيات الجريئات للاعمال البطولية يُعجب بها ، ولكن لا يقتدى فيها جميعها .

وعلى كل حال ابقى مغيث حاكم قرطبة بصحبته الى ان دعاه موسى عام ٧١٣ الى طليطلة .

ـ تذهب الى دمشق برفقة علي بن رباح وتخبر الخليفة بالانتصارات الباهرة التي حققناها في اسبانيا واحتلال عاصمة القوط .

وشرع باعداد الرحيل الطويل ، وغضب لما علم ان مغيث ينوي ان يحمل معه الى دمشق اسيره حاكم قرطبة ، فقال موسى : القوطي لا يذهب الى دمشق

ـ انه اسيري ، واقسم بالله انني لا اتركه لك . من حقي ان اوصله الى الخليفة .

فأمر موسى بأن ينزع منه بالقوة .

ولمّا رأى مغيث ان اسيره فلت ، قال : بما انكم اخذتموه مني فاني قاطع رأسه .

وبالواقع فان مغيث قطع رأس القوطي ، وتوجّه الى دمشق ، وكشف للخليفة اكثر مما كان موسى يرغب في كشفة . وبما ان الوليد كان قد بدأ يشعر بعدم الثقة نحو موسى ، كانت كلمات مغيث كالمطر على الارض المبللة .

ـ عد بالحال الى الاندلس وابلغ موسى اوامري ليحضر الى دمشق بأسرع ما يكون و برفقة طارق . وليأتيا مستعدين لتأدية الحساب .

من السهل تصور بهجة مغيث في نقل هذا الامر الى موسى . وتلكأ موسى عن تلبية رغبة الخليفة بضعة شهور ، غير انه في شهر ايلول سبتمبر ٧١٤ غادرا اسبانيا وخلف ابنه عبد العزيز حاكماً عليها ، وطلب منه تهدئة الحالة فيها .

ولم يضطرب الحاكم الجديد من المنافسات بين رجاله ، ولم يستطع التوفيق بين مختلف القبائل و لم يبال بما يهيّئ له القدر القاسي . سالمته الليالي ، وظنها تسالمه طويلاً ، وبسم له الحب وظنّ ان هذه البسمة لا نهاية لها ، وعزم على التمتع بالحياة بسخاء .

واجيلونا في هذه الحياة الجديدة تعني اشياء كثيرة بالنسبة له ، وتلجّ نظراتها الى اعماق نفسه مشبعة بالحب والرغبة وبتجاوب معها ، فيتحد الجسمان والروحان في تنهدات طويلة ، ويخفق القلبان باضطرام الحب كانهما جمرتان من نار واحدة .

وبينما كان والده موسى في دمشق يصارع اقوال اعدائه ومبغضيه ، كان ابنه عبد العزيز ينعم بقبلات وعناق وفواتن اجيلونا ، وهي تبادله القبلة قبلات. فنفسها التي تنبهت الى الحب في الفترة القصيرة التي قضتها مع زوجها الاول حببت اليها اللذة دون ان تدرك منها كل مأربها وجاء فارسها العربي فأيقظ فيها عواطفها المتعطشة الوثابة الى الحب واللذات .

وكان عبد العزيز يصغي الى ارشاداتها ورغائبها ، وان لم تكن كل هذه النصائح تأتي بالخير العميم ، فتساهل وتسامح مع القوط عملاً بنصيحة زوجته « ام عاصم » .

بكلمة ، ان عبد العزيز استطاب الحياة في اشبيلية قرب اجيلونا ، فلا اختلاف المذهب واللغة والعرق حال دون تذوق المتعة .

اكثر من واحد يعتقد ان الاويقات الطافحة باللذة التي يقتلها العرب مع القوطيات هي ثمرة طيش ، فكيف ان شعباً مغلوباً على امره ، اذل واستعبد يعشق ويحب ويستسلم للذة مع اسيادهم الجدد ؟ كيف ان النبيلة اجيلونا ، المساقة الى الخضوع والاستسلام الجسدي والجنسي ، تتوصل الى ان تعشق فارسها عشقاً صادقاً ، وكيف انها تمكنت بهذا الحب ذاته من السيطرة على عاشقها وسيدها ؟

نحن امام سر غامض وساحر من اسرار الطبيعة والجنس . ان الحبيب يسيطر على حبيبه ويجذبه اليه ، وبالوقت ذاته يستسلم له ويخضع لمشيئته . انها فلسفة توضح لنا تصرفات عبد العزيز واجيلونا وازواج كثيرة من الاسبانيات والعرب.

وهذه مرة اخرى علينا ان نشهد بان ماهية الحب لا يمكن ادراكها . شعور خاطف خفيف النقلة ومن يسعده الحظ ويتملكه الحب يخاله اعجب شيء في الحياة الدنيا .

ان ما جاء به العرب من الحب الى الاندلس ليس سوى نتيجة المزيج العفي والثقافي بين الشعبين ، شعور متأصل مستسلم تمام الاستسلام للجمال الجسدي ، وهكذا فان الجمال والحب تحولا بالنسبة للعرب الى اعلى القيم في الحياة ، وبالتالي الى شرط لا يمكن الاستغناء عنه للوصول الى السعادة .

وكان عبد العزيز يعتبر ذاته اسعد خلق الله قاطبةً قرب اجيلونا ، وقد يكون كذلك ، وما حسب في سعادته ان الصرح هذا قد يهوى بين ليلة وضحاها . سكرة اللذة اعمته ، فاغترّ بالايام والليالي .

اجيلونا تهتم لمستقبلها ، تخيّلت المستقبل بجسدها قاتماً غامضاً ، فملأت قلب رجلها بالطموح ، وهمست يوماً في أذنه وهما يتعاطيان الحب : الا يسرّك ان تملك الاندلس ؟ فكرة تدغدغ احلام اجيلونا : مرة اخرى ملكة على تلك البلاد : ولكن من سبّب فشل المخطط ؟

المرأة بسوء تصرفها وفساد رأيها ، وفساد مشورتها .

وصل الى اسبانيا نبأ سوء تصرف الخليفة سليمان مع موسى بن نصير ، فاشتد غضب عبد العزيز وقال : عليّ الان فرض الضرائب والمغارم لأجمع المال الذي يطلبه الخليفة من ابي ، ولا شك ان الرعية ستتذمر ، وتنغص عليه عيشه الذي صفا قرب « ام عاصم » والاشبيليات الجميلات ».

وضمّ قصره المنيف اسراباً من الجواري البيض والسود يسهر عليهنّ العبيد الخصيان تعلو اصواتهنّ في ارجاء القصر بالقهقهات والحبور والغبطة الجامعة . كل هذا يجري في غيبة عبد العزيز لتفقد شؤون رعاياه ، وعند عودته تهيمن السكينة ويعمّ الهدوء في انحاء القصر ، ولا يعكّر ذلك السكون سوى وقع خطوات الجواري والقيان وبعض الهمسات الخفية .

وفي سكينة الليل ، كل شيء يدعو الى الحب واللذة . الجو ، الاشياء ، الاشخاص ، الاماكن ، القاعات ، والطبيعة كلها .

السيد المطلق ينهي ويأمر ولا مرد لحكم ولا يحق لسواه الدخول الى مقاصير الحريم حيث يتعلمنّ الغناء وانشاد الاشعار والرقص :

بنفسي ريماً راش لي اللحظ شفرها ... وما غير احشائي لدى الرشق من ترس
رمتني بسهم اللحظ من قوس حاجب ... فواكبدي من ذلك السهم والقوس
هلال ولكن الجوانح افقها ... مهاة ولكن تنتمي لمرى الأنس
يميس ببدر الوجه غصن قوامها ... فيا خجلة الاغصان من ذلك الميس
فلو سئل المسواك عن ذلك اللمى ... لاخبر ان الريق فاق على الكاس

وينسين او يتناسين الجنس وسيطرته لان ميلهن لا يحملهن على التفكير بأمر آخر سوى في الاتحاد الجنسي ومختلف وجوهه .

والصغير عاصم لم يكن في عمر يسمح له بان يتعدى اهتمام حاضنته. امه اجيلونا المعتادة على البلاط تجر ذيولها عجباً ، فلم تجد صعوبة في تدبير ذلك المحيط الصغير . وعبد العزيز كان يتمتع في قصره الاشبيلي بخير ما تصبو اليه نفس مخلوق : منزل رحب ومرتع سهل ، وامرأة اعطاها الحسن قياده وحبتها الغصون الميادة انعطافها ، ولذلك فان الانباء الواصلة اليه من دمشق عكرت عليه صفو جوه . ولم يبق امامه سوى مجابهة الخليفة حتى ولو اقتضى الامر في شق عصا الطاعة واعلان استقلال الاندلس عن الدولة الأموية .

وهذا المشروع يتفق ورغبات اجيلونا الطامعة في ان تصبح من جديد ملكة على الاندلس ، وتحث زوجها على قطع علاقاته بدمشق .

— لا نقدر ان نثق بمن يعاملون اباك تلك المعاملة الخشنة ويذلونه على هذا النحو هو وعائلته .

وكان عبد العزيز يسمع هذه الكلمات من « ام عاصم » ولا يجد جواباً ولا يقرر رأياً .

— لا شك انهم صانعون بك الصنيع نفسه في ليلة ليس بها كوكب .

هذه الكلمات رددتها اجيلونا مرات كثيرة بحدسها النسائي .

وكان يجيبها عبد العزيز : ولكن الاسلام لا يستقر في اسبانيا بدون مساندة امير المؤمنين ، وانا لا اقوى وحدي على مجابهة الخطر لأن المسلمين والنصارى يعملون معاً على مناوءتي .

— لا يتم ذلك اذا اعلنت نفسك ملكاً على الاندلس .

— انا اعلن ذاتي ملكاً ؟ ولماذا ؟ سلطاني يوازي تقريباً سلطان الخليفة .

— ولكن الا تفهم ان ملكاً بدون تاج هو ملك بدون مملكة . هل تريد ان اصنع لك تاجاً بالجواهر والحلى والذهب ؟

— انه جنون مطبق ، وديانتنا تحرم علينا ذلك .

ـ وما شأن الناس بما يجري داخل قصرك؟

ولم يقوِ عبد العزيز على معارضة اجيلونا العنيدة والحبيبة المعبودة ، وتركها تصنع ، ووضع تاجاً على رأسه ولسان حاله يقول:

يا من اذا ما لاح بارق وصله يخفيه جنح من رقيبك داجِ
أترى يفاجئني السرور بليلة فيها محيّاك البديع سراجي
وتبيت ملتزمي لنحرك حيث لاَ احد يصد ولا الرقيب يفاجي
وحلاك ازهاري وخدك روضتي واللفظ راحي والرضاب مزاجي
ابداً اناجي القلب من فرط الجوى بتعلل من وصله ويناجي

وكان عبد العزيز قد ارسل محمد بن حبيب بن ابي عبيدة المعافري وأسامه بن ملك الشولاني واسماعيل بن ابي عبد الله وغيرهم ينقلوا الغنائم والاسلاب الى الخليفة في دمشق . ووصلوا الى دمشق في عام ٧١٥/٩٧ ، واستقبلهم الخليفة بكل حفاوة ، ثم امر بعودة ثمانية منهم الى الاندلس : اسامه ، اسماعيل ، حبيب ونعمان ، ومعهم اوامر من الخليفة بقتل ابناء موسى بن نصير الولاة في القيروان وطنجة واسبانيا .

اول من قرأ هذه الاوامر الصارمة كان صديق عبد العزيز حبيب بن عبيدة الفهري ووزيره ، ودهش حبيب ولم يصدق ما يقرأ لسانه ، فقال حبيب : لا اتصور ان الحسد يصل الى هذا الحد وان البغض يؤدي الى الجريمة المنكرة التي يدبرونها ضد موسى واولاده الذين ادّوا خدمات جلّى للقضية العربية ولمجد الاسلام ، ولكن الله عادل ويأمرنا بالطاعة لرؤسائنا .

وكان عبدالعزيز في ذلك الحين بقرية قريبة من اشبيلية تدعى كنيسة القديسة روفينا التي حُوّلت الى مسجد حيث يجتمع المؤمنين للصلاة . وفي هذه القرية كان عبد العزيز يقضي اوقاته الى جانب حبيبة قلبه اجيلونا .

وخشي المتآمرون ان يثور الجيش عليهم ، فدسوا على عبد العزيز واشاعوا عنه مسلم لا يصدق ايمانه ، وان زوجته القوطية تؤثر عليه تأثيراً ليس في صالح الاسلام . وهي تريد ان تجعل منه ملكاً .

وصدقت عامة الشعب الاشاعات والاقاويل وتهامسوا بها فيما بينهم ، وعبد

العزيز غافل عما يجري حوله ، فقد انساه حب اجيلونا موقفه الدقيق المحفوف بالاخطار .

ومن يدري الى اين قد تكون اجيلونا قادت عبدالعزيز بفضل ما تفرضه عليه من فتنة؟ كانت خبيرة في توجيهه لو لم تظهر على مسرح الاحداث امرأة اخرى تتآ كلها الشهوة الحسية وتعصف بأردانها الاهواء .

كان يقيم في اشبيلية احد ثقاة موسى بن نصير وزيره حبيب بن ابي عبيدة الفهري تزوج ايضاً قوطية جميلة ليست اقل طموحاً من اجيلونا، ونشبت بين الامرأتين مزاحمة خرساء .

كانت امرأة حبيب تحسد اجيلونا ولا تهمل فرصة للنيل منها . وفي ذات ليلة جاءت الى زوجها مضطربة .

– ما بكِ ؟

– شاهدت عبد العزيز يضع تاجاً من الذهب على رأسه .

وكان حبيب يعلم تمام العلم ان الهمسات لا تأتي من زوجته فقط حول تصرفات عبد العزيز واجيلونا ، ونسب بعضهم للاثنين مشاريع سياسية قابلة للشك .

فسأل امرأته : اين شاهدته والتاج على رأسه ؟

– عندما كان وحيداً مع اجيلونا في حجرته ، تلك ليست اشاعات بل حقائق تثبت منها بنفسي . وحبيب بدافع من زوجته ، اطلع بعض الزعماء العرب المتعصبين واصحاب النفوذ ، فاستاءوا من تصرفات عبد العزيز في الاندلس ، فشكوه سراً لدمشق .

وادرك الخليفة سليمان بن عبد الملك ان تلك "عائلة مجابة خطراً على الدولة ، واتخذ الوسائل لكبح جماحها . وموسى الذي كان اسيراً في دمشق تحمّل اول نتائجها .

بينما في اشبيلية حبيب وامرأته يحفران تحت اقدام عبد العزيز ، لم يتحرك احد من اصحابه لانقاذه ، ومنهم ايوب بن حبيب اللخمي ابن شقيقة موسى وبالتالي قريب عبد العزيز .

وكلهم يعرف ميزات الامير الواثق باصدقائه ، والغافل عما يدبرونه له ، لم تصعب عليهم مفاجأته . وفي ذات يوم بينما كان يصلي في الجامع القريب فاستل خنجره وطعنه طعنة واحدة لم تقضِ عليه ، فتحامل عبد العزيز على نفسه والتجأ الى بستان قريب . وظنّ بعض المتآمرين انه قد نجا ، وخافوا سوء العاقبة ، فولوا الادبار لا يلوون على شيء ، غير ان الجاني لحق بالامير وادركه واجهز عليه في شهر رجب (٩٧ كانون الثاني ٧١٦ مسيحية) .

وشاهدت اجيالنا المنظر الرهيب ، وجمد الدم في عروقها ، وغلبها اليأس والمرارة ، غير ان المتآمرين لم يتعرضوا لها ، بل تمّ لها ان تشاهد كيف ان قتلة زوجها فصلوا رأسه عن جثمانه ، وارساوه الى الخليفة سليمان في دمشق . انه برهان ساطع على كونهم نفذوا مهمتهم الموكولة اليهم .

* * *

٦

بعد مقتل عبد العزيز ، اتفق العرب على تولية ايوب بن حبيب اللخمي ، ولم تدم ولايته اكثر من سبعة اشهر ، انتقلت خلالها قاعدة الحكم من اشبيلية الى قرطبة . وما لبث ان اقاله محمد بن يزيد الذي خلف عبد الله بن موسى بن نصير على شمالي افريقية ، وكانت اقالة ايوب بايعاز من خليفة دمشق لما علم ان ايوب هذا ، من اقرباء موسى بن نصير .

وحلّ مكانه في ولاية الاندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفي ، وكان في افريقية ، فجاء الى الاندلس عام ٩٧ هجرية ، فتوجه الى حدود اسبانيا الشرقية ودخل في الغاليا ، بلاد الافرنج ، لاستعادة الحصون والمدن الشمالية التي غزاها المسلمون من قبل ، فاحتلّ مدينة « نربونه » Narbona « وبزيه » « وقرقشونه » ومدن « سبتمانية » وهذه تابعة لمملكة القوط . وتخلّفت عن الطاعة بعد ان غزاها المسلمون لاول مرة بقيادة موسى بن نصير . وكان صارماً جائراً شديد الوطأة على الاعداء وعلى المسلمين على السواء ، يعاقب على الهفوات بالموت وكلهم يرتجفون في حضرته . وزرع الرعب في جميع المناطق التي احتلها حتى بلغ نهر غارونه .

ووصل الى اسبانيا نبأ وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز في ٧١٩/١٠١ ، وبكاه الاقارب والأباعد والاصدقاء والاعداء على حد سواء .

وكان قبل وفاته قد عزل الحر سنة ١٠٠ هجرية لقساوته وصرامته ، واختار مكانه السمح بن مالك الخولاني ، وتنفس الاندلس لانه نجا من جزور الحر .

وكان عبد العزيز قد نصحه بالرفق والعدل ، فقدم الى الاندلس في عام ١٠٠هـ وبادر الى قمع الفتن واصلاح الادارة والجيش . ومسح اراضي الاندلس وقرّر عليها الخراج بنسبة الخمس .

وبدون تأخر توجه الى الحدود الشمالية ، الى بلاد الافرنج على رأس جيش ضخم ، فهاجم « اربونه » «وكرقشونه » « وتولوشه» ، وحاصرها وتضايقت من الحصار واستعدت قوات المسلمين لدخولها واحتلالها عنوةً ولكن وصلت انباء الى الجيش العربي تقول بقدوم نجدة كثيرة العدد ، على رأسها القند « اودو » ، فلم يتخاذل السمح من هذا النبأ، وامر بالتحرك للقتال، وكانت قوات العدو من الكثافة بحيث انها، بالغبار المتصاعد من سنابك خيلها، حجبت نور الشمس. والتقى الجيشان، وشدد السمح من عزائم رجاله وحثهم على الثبات والصبر قائلاً : ان الله معنا ، واذا كان الله معنا فمن يقهرنا ؟ وكانت المعركة سجالاً ، واذا كانت كلامته لا تسمع ، فقد كانت افعاله تنظر . يصول ويجول ويجندل الفرسان بالعرض والطول وجواده « شاك اليه بعبرة وتحمحم » :

« لو كان يدري ما المكالمة إشتكى ولكان لو عرف الكلام مكلمي»

وبينما كان يقاتل قتال اليائس المستميت فوق ظهر جواده ، طعنه احد الجنود الاعداء الذين يتكاثرون حوله طعنة خرقت اضلاعه ونفذت الى قلبه فأردته قتيلاً ووقع عن صهوة جواده، ووقع الاضطراب في جيش المسلمين لما رأى قائده مضرجاً بدمائه ، فولى الادبار ، واعمل فيهم الاعداء السيف ، واستطاع هذا الجيش الوصول الى « سبتمانيا في التاسع من ذي الحجة سنة ١٠٣ ، ٩ حزيران ٧٢١ . ومن جملة القتلى نعمان بن عبد الله الخضرمي الذي كان من اول الداخلين الى الاندلس ونعيم بن عبد الرحمن بن معاوية التجيبي وغيرهم من زهرة فرسان العرب .

وارتدّ الجيش الى اربونه ، وهناك اجتمع القواد وسلموا قيادة الجيش الى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي نظراً لشجاعته وبسالته اللتين اظهر عنهما في خوض عدة معارك ، وكان الجيش يحبه ، وهللوا لانتخابه قائداً عاماً .

ووصلت الى اسبانيا هذه الانباء ، ففجّ الناس وتحرّكت الجيوش من جميع المناطق الاندلسية بأمر من عنبسة بن سحيم الذي اختاره بشر بن صفوان والي افريقية والياً للأندلس . وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز قد جعل الاندلس ولاية مستقلة تتبع الخلافة مباشرة ، ولكن خلفه يزيد بن عبد الملك لم يقرّ هذا التعديل فعادت الاندلس تابعة لافريقية كما كانت .

واستطاع عبد الرحمن الغافقي ان يخمد الفتن ويستبقي الجزية على اربونه

وعلى النصارى في بلاد الافرنج ، يحتفظ بخمس الغنائم للخليفة والباقي يوزعه بين جنوده ، فسيب له محبة الجند ، والتفاني في ارضائه والسير ورائه مهما كانت المسيرة شاقة ، غير عابئ بالمخاطر والاهوال .

وكان بعض الزعماء المسلمين في اسبانيا يحسد عبد الرحمن الفافقي على احترام الجنود ومحبتهم له ، فكتبوا الى الوالي في افريقية مشيدين بشجاعته وحنكته ودرايته في الحروب ، ولكنه تهاون بأمر النظام ، وانه يفسد عادات الجند العسكرية الشظفة . وعبد الرحمن ذاته لم يكن ينكر هذا التصرف تجاه الجنود فيقول : لا استطيع ان انكر شيئاً على جنودي بعد خروجهم ظافرين من ساحات القتال .

واثرت هذه الاقوال في نفس الوالي بافريقية فعزله وعيّن مكانه عنبسة بن سحيم الكلبي ، فهذا كان من قبيلة والي افريقية بشر بن حنظلة بن صفوان الكلبي . وكان عنبسة محبوباً محترماً فطناً شجاعاً . ولم يتذمر عبد الرحمن الفافقي يثنيه عن التمرد والعصيان والتذمر والاحتجاج وسوء النية ، فاكتفى بمنصب قائد الجيش وهنأ عنبسة بعبارات المودة واظهار الصداقة .

وجاء عنبسة الى قرطبة مقرّ الولاة عند عهد ايوب الفهري ونظام الجبية من الاقاليم وزرع الاراضي على المسلمين دون ان يلحق ضرراً او اذي بالنصارى ، وبقيت اراضي كثيرة دون استثمار ، وفرض الجزية بمعدل الخمس على الاراضي المحتلة بالقوة ، والعشر على التي استسلمت بدون قتال . ووضعت اموالها وحياتها تحت رحمة المسلمين ، وامر باعادة بناء جسر قرطبة ، ثم توجّه لتفقد الاقاليم الاسبانية الداخلية ، ووزع العدل والمساواة والانصاف في كل مكان . وثار بعض الاسبان في منطقة « طرزونه » ، فدخل المدينة بالقوة وهدم جدرانها وحصونها وعاقب المتمردين ، وضاعف الجزية على الشعوب المحتلة مرة ثانية . وفي ايام عنبسة قام بجليقية علج خبيث يدعى بيلاي ، فعاب على العلوج طول الفرار ، واذكى قرائحهم حتى سما بهم الى الثأر ودافع عن ارضه . ومن وقته اخذ النصارى بالاندلس في مدافعة المسلمين عما بقي بأيديهم من ارضهم والحماية عن حريمهم ، وقد كانوا لا يطمعون في ذلك ، ولم يبقَ في ارض جليقية قرية فما فوقها لم تفتح الا الصخرة التي لاذ بها العلج ، مات اصحابه جوعاً الى ان بقي بمقدار ثلاثين رجلاً نحو عشر نسوة ، وما لهم عيش الا من عسل النحل في جباع معهم في خروق الصخرة ، وما زالوا ممتنعين بوعرها الى ان اعيا المسلمين امرهم واستقروهم وقالوا : ثلاثون علجاً او ما عسى ان يجيء منهم .

هكذا يصف العرب الحركة الاستقلالية التي انبثقت في جبال استوريش .

وبعد ان نظم الامور في اسبانيا واستتب الامن والنظام فيها ، توجه عنبسة نحو بلاد الافرنج بقوات جرارة واجتاح منطقة « اربونه » واستولى على « قرقشونه » « ونيمه » Nimes وما بينهما من القواعد ، وارتدّ القوط عن محالفة الافرنج الى محالفته ، وتابع زحفه في وادي « الردنه » واستولى على اسرى وغنائم ، ودخل بورغونيه حتى مدينة اوتون فخرّبها .

فخشي اودو دوق اكيتانيه ان يهاجمه المسلمون مرة اخرى ، فسعى الى مفاوضتهم ومهادنتهم . وبسط المسلمون سلطانهم في شرق جنوبي فرنسا .

ونجاح عنبسة يرجع الى الجرأة واللباقة اكثر منه الى القوة والكثرة . وكان لينه ورفقه وحسن معاملته للسكان عاملاً في تقوية سلطان الاسلام في جنوبي فرنسا .

ولكن قضى نكد الطالع ان ينكبّ العرب مرة اخرى ، فان عنبسة حين عودته الى الجنوب ، داهمته قبل ان يجمع اليه جميع جيشه ، جموع كبيرة من الافرنج فأصيب اثناء المعركة بجروح خطيرة لم تمهله سوى ايام قليلة توفي بعدها . فكانت ولايته اربعة اعوام واربعة اشهر . وكانت وفاته سنة ١٠٧/٧٢٥ .
وقبل وفاته عيّن مكانه عزرة بن عبد الله الفهري لكي يتولى امر الجيش ريثما عبيدة بن عبد الرحمن السلمي والي افريقية ، فلم يظلّ في منصبه اكثر من شهرين فقط . وكان عزرة من علماء الاندلس وفرسانها ، وصار لعقبه نباهة . وولده هشام بن عزرة هو الذي استولى على طليطلة قصبة الاندلس وفي عقبه بوادي آش من مملكة غرناطة نباهة وادب . وقال بن سعيد عنهم انهم ذوو بيت مؤصل ومجد مؤثّل .

وولي بعده يحيى بن سلمة الكلبي ، انفذه الى الاندلس بشر بن صفوان الكلبي والي افريقية . فقدم الاندلس سنة ١٠٧ وامتدّ حكمه سنة ونصف لم تقع فيها حوادث او غزوات تذكر ، كما انه لم يغزَ فيها بنفسه غزوة . وكان سريره قرطبة .

ثم توفي بشر بن صفوان ، وخلفه في ولاية افريقية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي ، فولّى على الاندلس عثمان بن ابي نسعة الخزعمي ، قدمها سنة مائة وعشر ، ثم عزل سريعاً بعد خمسة اشهر ، وكان سرير سلطانه بقرطبة .

وولي بعده حذيفة بن الاحوص القيسي ، واتى اليها والياً من قبل عبيدة المذكور . وكان قدوم حذيفة في ربيع الاول سنة مائة وعشر ، وعزل منها سريعاً ايضاً ، ويقال ان ولايته استتمت سنة .

وولي بعده الاندلس الهيثم بن عبدو الكلابي ، فوافى الاندلس في محرم سنة مائة واحدى عشرة ، وولي سنتين واياماً . ولاّه ايضا عبيدة السلمي عامل افريقية ، فقدم الاندلس في محرم سنة ١١١ .

وحاول الهيثم ان يقمع الفوضى . وكان الهيثم حازماً قوي العزم . فوجه « منوسة » حاكم اشتوريش الى بلاد الافرنج لقمع الثورات ، وبقي هو في الاندلس يطارد الشغب والفوضى بشدة . واضطهد معظم الزعماء والمخالفين ، له في الرأي ولمّا رأى المسلمون ظلمه وجوره وبخله ، حاولوا التآمر عليه واكتشف المؤامرة ، فأنزل بأصحابها اشد العقوبات ، فاستولى على اموالهم وممتلكاتهم واودعهم السجن ، ثم قتل بعضهم شر قتلة .

وكان من جملة المغضوب عليهم والمسجونين رجل اسمه زياد بن زيد كثير الاصدقاء ، فأوصلوا تذمره الى الخليفة هشام ضد الهيثم الظالم عدو الشعب وقاهر الضعيف والمستولي على اموال الناس .

فلما قرأ الخليفة هذه الشكوى ، احب ان يتحقق من صدق قائلها ، فوجه الى اسبانيا محمد بن عبد الله يتبين عن كثب تصرفات الهيثم ، واعطاه الصلاحيات اللازمة لإقالة والي الاندلس اذا اقتضى الامر ، وتعيين والٍ مكانه .

وصل محمد الاشجعي الى قرطبة وتحرّى الامور بسرية تامة ، ولم يلبث ان تحقق من صدق التهم الموجهة ضده ، فعرض عليه كتاب الخليفة ، وعزله من منصبه وسجنه بعد ان اركبه وسيّره حماراً في الشوارع مهاناً واستردّ منه جميع الاموال التي اختلسها واغتصبها ، واطلق سراح الذين اعتقلهم ظلماً .

اختار الاشجعي مكانه بمصادقة الخليفة هشام بن عبد الملك في صفر ١١٣/٧٣١ ، عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، والياً للأندلس . وكانت ولايته الثانية . فضجّ الناس بالبشرى وهللوا وكبروا . وكانت ولايته الاولى سنة ١٠٣ على اثر مقتل السمح كما قدمنا .

وكان عبد الرحمن جندياً عظيماً ظهرت مواهبه العسكرية في غزوات غاليا : وحاكماً قديراً بارعاً في شؤون الحكم والادارة ، ومصلحاً كبيراً يضطرم رغبة في الاصلاح ، بل كان بلا ريب اعظم ولاة الاندلس واقدرهم جميعاً .

وتجمع الرواية الاندلسية كما يقول عنان ، على تقديره والتنويه برفيع جلاله والإشادة بعدله وحلمه وتقواه ، واحبه الجند لعدله ورفقه ولينه ، وجمعت هيبته كلمة القبائل فتراضت مضر وحمير وساد الوئام نوعاً في الادارة والجيش ، واستقبلت الاندلس عهداً جديداً .

بدأ عبد الرحمن ولايته بزيارة الاقاليم المختلفة ، فنظم شؤونها وعهد بادارتها الى ذوي الكفاءة والعدل وقمع الفتن والمظالم ما استطاع ، وردّ الى النصارى كنائسهم واملاكهم المغصوبة ، وعدّل نظام الضرائب ، وفرضها على الجميع بالعدل والمساواة ، وقضى صدر ولايته في اصلاح الادارة ومعالجة ما سرى اليها في عهد اسلافه من عوامل الاضطراب والخلل ، وعني باصلاح الجيش وتنظيمه عناية خاصة ، فحشد الصفوف في مختلف الولايات ، وانشأ فرقاً قوية مختارة من فرسان البربر باشراف نخبة من الضباط العرب ، وحصن القواعد والثغور الشمالية وتأهب لاخماد كل نزعة الى الخروج والثورة .

• • •

٧

خرجت غوديوسا من دار القند حزينة القلب غير قادرة على مقاومة الرغبة التي كانت تدفعها لنزهة في العراء بجانب القصر .

وكانت ساهمة الطرف ، تمشي على غير هدى ، ودخلت في الغابة . واستسلمت العذراء الشقية الى النحيب الفلتان ، معيدة الى ذهنها السويعات الحلوة التي ذهبت الى غير رجعة ، ولا تقوى على نسيان الغيرة التي كانت تتآكل فؤادها من هوى بيلاي بفلورندا ، واتهمت السماء بقساوتها لانه عندما لبست فلورندا ثوب الترهب في دير القديسة اولاليا عادت روحها اليها تنعشها الآمال .

الحياة في نظرها استشهاد ، كيف تعيش بدون حبيبها في هذا الوادي ، وادى الدموع ، فالموت بدا لها المنقذ الاكبر . انه ملاك كريم يقودها بيديه الى عالم الحقيقة والحب الابدي حيث تتأمل بيلاي الى ما لا نهاية له ، لانها على الارض حالت بينها وبينه كف القدر . العالم في نظرها مدفن ، وزقزقة العصافير نشيد في مأتم الزهور ، والشمس مشعل موقد في جنازة .

وانغماسها في افكارها السود اوصلها الى وعدها الذي قطعته لأبيها بقبول غوديولا زوجاً لها . انها التضحية الكبرى بالذات . غير ان توسلات والدها العجوز كانت اقوى منها .

واقبل المساء ، واخذ الغسق يبسط على الطبيعة قناعاً من الرقة واليبوسة عندما يبهت النور ويتوارى النهار ساعياً الى قبره في ظلمة الليل . هكذا دفنت آمال تلك العذراء وتعرّت احلامها وغاصت في الفراغ الرحيب الذي يطوّق الحياة . والتلال والجبال الشامخة وخرير المياه في السواقي المترقرقة والغابات الكثيفة بالاشجار الغضة الجبارة والكاتدرائيات المنتصبة انتصاب العمالقة ، كل هذا يبيّن لعينيها باهتاً حزيناً متألماً .

فلورندا في الدير

وكان انسان يراقبها عن بعد ، يفترسها بنظراته ، متحاشياً الظهور . كانت منشحة بالبياض وقد عقد شعرها الطويل الاشقر ، وتاهت في الغابة دون هدف معيّن . ولو لم تستسلم بذلك المقدار الى ذاتها وتأملاتها لأبصرت ثلاثة فرسان سائرين في اتجاه القصر ، وسمعت وقع حوافر خيولهم عند اقترابهم . ولمّا بصرت ملامحها ، عرتها هزة رعب واصفر لونها ، وضمّت يديها الى صدرها كأنها ضارعة ، واستندت الى جزع شجرة كي لا تفقد توازنها تحت ثقل تأثيرها .

وتبادل احد الفرسان الكلام مع رفيقيه اللذين تابعا المسير نحو القصر . وحفّ بها الخوف فالعرب ادركوها .

وترجّل العربي عن ظهر جواده وارتمى عند اقدام الفتاة ، وتأملت حركاته كما لو كانت امام شبح جاء من العالم الآخر . وألقت بنفسها عليه هاتفة من اعماق قلبها : أأنت ايها الخيال المعبود ؟ أأنت الرؤيا الازلية في احلامي ؟ هل غادرت الاخدار السماوية لاختطافي من وادي الدموع هذا ؟ هـل انا في هذيان ؟ ربي والهي ، ام انا في حقيقة ؟

وتأملها الفارس حالماً ، وانحدرت دمعتان على خديه :

— انا هو ايتها المعبودة غوديوسا !

— حبيبي بيلاي ؟ ونبأ وفاتك ... ؟

— كان كاذباً .

والعذراء العاشقة الفاتحة ذراعيها ، المجنونة من السعادة ترامت على حبيبها ، وضمها الى صدره بحنان لا فريد عليه .

وانطلقت صرخة من فم بيلاي ، غوديوسا اغلقت عينيها على الضياء ، وانصبغ وجهها بصفرة الموت . ولو لم يتداركها لسقطت على الحضيض . وتأملها برعب ومرارة وحزن .

— تموتين الآن بين يدي يا من هي احب اليّ من حياتي !

وتوجه الى الجدول ، وغرف من الماء براحتيه ورشه على الوجه الشاحب المصفر .

وخرجت من حنجرته صرخة فرح مثل المشرف على الغرق يتمكن من ادراك الشط . وتنهدت الفتاة وفتحت عينيها اللتين منذ قليل خيّم عليهما ظلال الموت .

واطلعها بيلاي على مغامراته والاخطار التي تعرّض لها .

وتوجه الاثنان الى القصر ؛ هندسة البناء الذي نزل فيه منوسه ، من الفن الروماني البيزنطي ، انه انتقال من الفن الوثني الى الهندسة المعمارية المسيحية .

ولم يكن من الصعب دخول الرهبان على قصر منوسه نظراً الى السحر الذي احدثته في نفسه شقيقة بيلاي . هرمسندا التي عاشت مع عمها وخدمه المسيحيون دون ازعاج .

ودخل بيلاي القصر بزي الرهبان ، وكشف نفسه لعمه وابن عمه ، وقال لهم : انظروا الى اين وصل بنا الذل . لكي اعانقك يا عمي ولكي اشاهد شقيقتي عليّ ان ادخل هذا القصر بزي الرهبان . تخفي اسماءنا وراء هذا الثوب الاسود . اني اريد ان ابيّن لهؤلاء الكافرين ان بيلاي ما زال حياً وسيرون سيفه يلمع في ساحات الوغى .

— خفف يا ولدي من حدتك . تذكّر المكان الذي انت فيه ، وتذكّر القتل والسلب والنهب والتشتيت ، ان الله تعالى شاء ان يكون هكذا . ما نفع هذه الحمية العقيم . اتريد ان تموت سدى . اين مقاتلونا ؟ اين شرائعنا ؟ اين معابدنا ومدننا ؟ اي وطن تريد الدفاع عنه ؟ لقد سقط هذا الوطن ولم يعد له من وجود . وطن « ريكاردو » « ووامبا » « وسندشفنتو » مات ، مات الى الابد ، ماتت دولة القوط . وانت كنت اسيراً في قبضة العرب .

— وما همني ان اقع اسيراً مرة ومرتين ومائة مرة ما دامت فيّ عروق تنبض .

— اين شقيقتي هرمسندا ؟ اريد ان اعانقها . انا في اشد الشوق اليها .

وظلّ الشيخ الهرم صامتاً جامداً اصفر اللون .

— لقد ولدت في ساعة بؤس يا ولدي ، الاقدار تلاحقك .

— تكلم بحقك ، اين شقيقتي ؟

— لا تسمها ، ان اسمها يؤذيني ، ويسوءني ان اطلعك على النبأ القاتم .

— هل ماتت ؟

كلا انها تعيش ، ولكن موتها قد لا يؤثر عليك . ان شقيقتك انقذت هذا الشعب ، فلولاها لكانت النار التهمت هذه المدينة بما فيها ، ولكان السيف

العربي قضى على كل حياة . انها ارتمت على قدمي القائد العربي رحمة بهذا الشعب البائس ، فوجدت عنده الرضى والشفقة ، فرق قلب العربي ، وبفضلها تعيش خيخون مطمئنة في ظلال السلام بينما بقية انحاء البلاد تقاسي الامرين : جميع المحاربين الذين قاتلوا الى جنبي ينعمون الآن بين عيالهم بالسلام والطمانينة بفرق ضئيل وهو ان الحاكم الذي كان لذريق اصبح « منوسه » .

وتوقف الشيخ عندما وصل الى هذا الحد فقال له بيلاي : تابع .

— ان هرمسندا هي الملاك الحارس لجميع النصارى بتوسطها السخي ، هي التي جعلت قيودنا خفيفة ومنوسه لا يرد لها حاجة ، فهو عاشقها ويلاطفها ، ولقد عرض عليها الزواج

— وهي ؟ ما رأيها بكل هذا ؟

— انها مستسلمة الى فاتنها في حبها الاول :

— رباه ، لماذا انزلت بي الضربة تلو الضربة ؟ بالأمس لذريق مزّق احشائي ثم الأسر والسجن والغربة والاضطهاد ، قطعت اسبانيا من اقصاها الى اقصاها محمولاً بحبي الاخوي . اهذا يا إله السموات والارض ما ينتظرني ؟ هل استحققت كل هذا ، اهانة على اهانة ؟ حبي الاول تلطخ بالعار ، وطني يحتله الغرباء ، احلامي بالمجد تلاشت كالضباب ، واخيراً اهلي يسامون الخزي . شقيقتي عزائي الوحيد هرمسندا ، هرمسندا ، ، ما اوسع هذا الفراغ !

وخبأ وجهه بيديه يحاول ستر دموعه ويخشى ان يكشف النور وصمة العار العالقة به .

— يا ليت السماء استلت مني حياتي في معركة وادي بكة حيث سقط الألوف من الابطال مكللين بالمجد ، آه شقيقة بيلاي تهوى عدو بلادها .

— آه من النساء ! انهن حاملات شرف الرجال ! فلماذا يوضع هذا البلسم الثمين في اناء سريع العطب ؟ ولكن بحقك قل لي متى انبثق هذا الحب في صدرها ؟ متى صار زواجها ؟

— في هذا اليوم ، وقد يكون في هذه الساعة .

— اليوم . لقد وصلت في حيني . اني سأنتصب بينهما كشبح مثل وخز الضمير . سترتجف من رؤيتي .

وتوجه الى مسكن هرمسندا ، ودخل القصر الحزين الموحش في السابق ، فتحول الى بهجة الشرق التي ادخلها عليه منوسه ، فاتسعت قاعاته وتزينت بالدواوين من الحرير الدمشقي والسجاد العجمي الفاخر ، والحمامات للوضوء واسراب من الجواري يملأن الغرف الداخلية ، والخدم والحشم هنا وهناك ، والمغنون والمغنيات اجتمعت كلها في قصر الحاكم العربي .

وطلب ثلاثة من النصارى المثول بين يدي منوسه ، فأذن لهم بالدخول .

– ما حاجتكم ؟

– نرغب مشاهدة هرمسندا .

وكان المتكلم بيلاي نفسه . وخشي رفيقه « برمند » ان ينفضح امرهم فقال : امد الله في حياة مولاي ، هذا الفتى يبغي مخاطبة هرمسندا لينقل اليها وصية اخيها الذي قتل .

– قتل بيلاي ؟ والله لقد سئمت سماع هذا الاسم ، في كل مكان يتردد . فمنهم من يقول انه مات ، ومنهم من يقول انه حيّ يرزق . ان هذا الرجل لا يرضيني . لقد تمكن من الهرب من قرطبة . غير ان هذين الفارسين ، واشار الى بيلاي « واتنخلد » ، شهدا مصرعه ، وجاءا ينقلان الخبر المشؤوم الى شقيقته هرمسندا .

– حاول ايها الشيخ ايصال هذين الشابين الى هرمسندا ولا تزعجوها كثيراً .

ثم اشار الى احد خدمه بأن يدلهم على الطريق المؤدية الى مسكن هرمسندا .

وبعد اجتياز اروقة عديدة ، وصلوا الى مدخل اطلتْ منه هرمسندا وبهتت .

– رباه ، هو هو ، بيلاي !

فقال الشيخ برمند : الصمت ، الصمت . واغلق الباب ، وقاد الجميع الى الداخل .

وتأمل بيلاي شقيقته بقساوة وغضب وتهديد وهي صفراء اللون ، مضطربة الحركة ، خجلة النظرات ، لم تجسر ان ترفع رأسها في حضرة اخيها البطل المضطهد ، عدو العرب الذين اختارت منهم زوجاً لها .

– انظرها يا بيلاي . انها تذوب خجلاً وتحترق ألماً . تناسى شقاءها وحبها ، وتذكر انها من دمك وهي شقيقتك .

– اجل ايها الشقيق بيلاي . انني في حضرتك خجلة ، ولكن لا تعلم كم جاهدت وتمنيت الموت وتذكرتك وحاولت الهرب . وشاهدته واحببته وبكيت وصارعت وخفت من ذاتي وسقطت . استحق سخطك يا اخي ولا ارجو صفحاً ، ولكن على الاقل دعني اضمك الى صدري .

– ابتعدي عني . لست شقيقتي . انك زوجة عدونا . لقد نسيت اسم فافيلا ولطخت سمعة بيلاي . انت لعبة في ايدي العرب . انت عاري وخجلي .

– اهكذا تنعتني ايها العزيز بيلاي ؟

– اجل ، انت اجهزت على شرفنا المتزعزع . انت تركت السبيل للعرب كي ينظروا الينا باحتقار اكثر ، انت استسلمت لمن لا يدين بديننا ، بينما غيرك ظل اميناً لوطنه ودينه . على الاقل ، تصرفك به كان اضطرارياً وبالعنف .

– كلا ، بل بالحب والرضى .

– الحب ؟ شقيقة بيلاي تدنس وتدنس اسم اخيها بحب حرّمه الله والوطن . شقيقة بيلاي كان عليها ان تغرس الخنجر في صدرها قبل ان تقع في شباك هذا الحب . وكنت بكيتك وما كان الخجل يمتلكني ويغطي جبيني .

– وماذا تستطيع ان تفعل امرأة مسكينة عاشقة ووحيدة ؟ تحدثني عن الوطن ، محبتي لهذا الوطن كانت اصل محبتي لمنوسه . لقد كنت عشت بعيدة عن العالم وعن نزوات القلب . سقطت بلادنا ، واحتلها العربي من اقصاها الى اقصاها وغرس فيها هلاله . انا اعتقد بتعاليم اوربانو القائلة ان العالم كله هو وطن الانسان ، واننا جميعاً اخوة . آه لو رأيت الارهاب والمذابح والضيق الذي كان يخنق هذا الشعب في ساعة الهجوم . انا شاهدت الامهات الثكلاوات يصرخن ، ويصل صراخهن الى الفضاء . اتعتبر اثماً تصرفي بمواجهة الخطر ومحاولتي انقاذ هؤلاء المساكين بدموعي ؟

رنّ صوتي الحزين في قلب منوسه وسمع لي وأوقف غضبه ووعد بالسلام . كان جميلاً وشاباً وشجاعاً وشهماً ، والحب ، الحب الظالم ، الحب الطاغي الذي كنت اجهل اسمه حتى ذلك الحين حلّ في صدري . لو تعلم كم قاسيت

وغالبت واستجرت باسمك في ظلام الليل وهدوء الطبيعة ، وفي الصباح استيقظ ويستيقظ في قلبي الحب بأشد من السابق ، وتوصلت الى الاعتقاد ان العناية الالهية قد ارسلتني وسيطة بين السيد الجديد والمسود ، وذراعاً توقف يد الجلاد ، وصوتاً يعزي الحزانى ، ويلبي منوسه ندائي في كل مرة اتوسّل اليه . فكرمه ورقته وتصرفاته نحونا ، وعزلتي وموتك ...

— آه ، لو بقيت فيك من العزة والمحبة لأخيك ...

— انا ما جئت الى هذه الربوع الا لأعلن صوت الحرية ، وهذه الجبال الوعرة ستكون الحرز المصون للابطال الذين يريدون خلع النير عن اكتافهم . الحقي بي يا هرمسندا ، اني ارثي لحالك ، انسي منوسه وانا انسى ايضاً ضعفك ونعيش سعداء او نموت شرفاء .

ومدّ ذراعيه الى شقيقته فارتمت عليهما ، وبقيت برهة طويلة والغصة تخنق صوتها . وكبحت جماح دموعها .

— تعالي معي يا هرمسندا . تعالي معي .

ولزمت الصمت .

— الا تجيبينني ؟

— شقيق روحي ، اصبت في قولك ان هذا الحب مخجل ، ان هذه الرابطة ليست من هرمسندا . ولكن القدر او بالاحرى الله ذاته ربط حياتي الى حياة هذا الرجل . احب ان اطيعك ولكن لا اقوى على طاعتك .

— اصمتي ايتها المرأة ولا تجدّفي . هل تجسرين على القول ان الله ربط قلبيكما .

— وعدت الله ان اصبح زوجة لمنوسه .

— وستصبحين جاريته فقط .

— يحبني حتى الجنون .

— محبته دنس وعهر .

— كم انت على خطأ .

— غضب الله عليك . وشهر خنجره في يده ، وتصبب العرق من جبينه ، فصرخ فيه برمند :

— خفّف من حدتك ، وتقبّل المصيبة بالصبر الطويل ، ولا تجلب عليك غضب منوسه . الوطن يضع فيك آماله . لا تكن انانياً . وفكّر انه اذا كانت شقيقتك قد استسلمت الى حب قاهر فان الكثيرين من الآباء والأمهات والزوجات والأخوات ينتظرون العزاء من ذراعك . فلنهرب قبل ان يدروا بأمرنا .

فأدرك بيلاي ان برمند على صواب ، وخجل من تصرفاته الطائشة ، واغمد خنجره في وسطه ، والقى نظرة اخيرة غير قابلة للوصف على هرمسندا .

— استودعك الله ايتها المرأة الفاجرة . تمرّغي ما شئت في حمأة الفجور ، ولبي دعوة الدعر العابثة بلبك . استسلمي لضجيعك وداعبيه ، ومكّنيه من تهديك ، ومتّعيه بفواتنك . وقبّلي اليد التي سفكت دماء القوط . تنعّمي بملذاتك التي يجود بها عليك حبك الفاجر الاثيم المجرم . تناسي ذاتك وتناسي اهلك بين ذراعي هذا الغريب الذي دنس بلادك . أقسم لك انك سوف لن تنعمي طويلاً بلذائذك . فالذين ما زال يجري الدم في عروقهم حاراً ، الممتنعون في جبال اشتورس ، سينقضون قريباً على قصر الظلم هذا ، وعندما ترين حبيبك جذعاً بدون رأس ، وعندما ترين جميع الافواه تبصق في وجهك ، عند ذلك انتحبي وموتي في عارك وفي آلام عذابك وتبكيت ضميرك .

وبعد ان قذف في وجهها هذه اللعنة الفاحشة ، توارى كالخيال يتبعه رفيقه .

وفي تلك الاثناء دخل رسول على منوسه يحمل معه رقاً ففتحه فاذا به :

— «كن على حذر من بيلاي . لم يمت . قد يكون وصل الى خيخون للتآمر عليك . برمند له ولد يرافق بيلاي . العجوز برمند خائن . انك تربي صلاً في حجرتك» . وكان الخطاب مغفلاً .

وتبادر حالاً الى ذهن منوسه صورة النصراني الجسور الذي يرافق الشيخ عم هرمسندا ، ثم هتف في جنوده وخدمه : اغلقوا الابواب ولا تسمحوا بالخروج للخارج ولا بالدخول للداخل ، وآتوني ببرمند ومن يرافقه .

ثم اسرع الى مخدع هرمسندا مصفر الوجه ، في ملامحه تهديد ووعيد ، فظنت

هرمسندا ان زوجها غاضب عليها لانه لم يتمتع معها بلذة الحب بعد حفلة العرس ، وعرض عليها الرسالة قاذفاً اياها بها .

— اجل اخي حي وقد شاهدته اليوم هنا .

— هذه المقابلة لن تتكرر .

— وما تعني بهذا القول ؟

— ان اخاك اسير مع برمند وابنه .

— منوسه حبيبي ، ماذا جنت يداك ؟

— هذا واجبي .

— بيلاي فقط كان يرغب في رؤيتي .

وبعد ان القى على هرمسندا نظرة غاضبة ، خرج بسرعة من عندها ، فعلمت انها اغاظته ، ولا تريد اغاظته ، فالحب المالك فؤادها لا يرحم مخلوقاً وهو سنّة الخلق كبّل مخيلتها وعقد حلقة حول قلبها الطاهر ، غير ان الحب الذي تكنه لأخيها جاء ليقلقل فيها صفو هناءتها ، هي كأشباح سوداء تتراءى لها وتنغص عليها عيشها .

ومرّ الخريف باثماره ، وسعت العصافير مفتشة على مناخ آخر ، واتّشحت السماء بردائها المسوّد بالغيوم ، وهبّت العواصف ، واشجار الورد والزهور موئل الحب والمحبين ، تعرّت من خضورتها وازهارها ، وخرصت العصافير وأقفر الغاب الا من اغصان عارية ، وافترشت الحضيض اوراق صفر تتلاعب بها الرياح او تدوسها اقدام مسافر حزين يتأمل الشتاء بنظرات تنفث الكمد في فؤاده ، وشاهده من ذي قبل ، في الربيع ، فواح العبير مخضوضر العود . ومرّت ساعات البهجة التي تمتعت بها هرمسندا في هيكل الحب ، حيث تتراءى لها على مدخله صورة بيلاي اخيها شاحبة وتحدقها بنظرات قاسية . ومنوسه عاوده الكره للنصارى الذين يشقون عصا الطاعة . غير ان هرمسندا تهوى منوسه ، قوة غريبة تشد بها اليه مع ان هذا الحب تقبّل ضربات جسام وخرج منها ظافراً . وكانت خادمتها « اليفة » كاتمة اسرارها ، تسكن في اعلى غرف القصر ، وكانت

تتهادى بانظارها على الوديان والسهول المحيطة بالقصر من جانب ، ومن جانب آخر البحر الذي لا نهاية له ، وتسرّ بهذا المنظر . وسألتها اليفة :

– ما بك حزينة اليوم اكثر منك في اي زمن مضى ؟

– اجهل ، في بعض الاحيان تراود النفس يبوسة مجهولة المصدر . اشعر كأن شراً قريباً ينتظرني . فهل لك ان تجدي مبرراً لهذا الحزن .

– اجل ، منذ ان غادرت صديقتك مريمة هذه الربوع ونفسك لا تطيب ، وكانت الواحدة تفرج كربة الاخرى . ان مريمة لم تكن سعيدة في هذا القصر لذا فضلت الاقامة في عزلة ، وقد تكونين تشتاقين الى هذه العزلة نفسها .

وفي هذه الاثناء كان منوسه يدبر شؤون البلد ويستعد لاستقبال امير قرطبة القادم اليه . وفجأةً دخل عليه حاجبه اسماعيل مضطرباً .

– سيدي وصل بعض الفرسان العرب في حالة يرثى لها ، لقد نكبوا بهزيمة .

– هل انت في صوابك ؟ من استطاع ان يقهر جنودنا ؟

– النصارى يا مولاي !

فأمر منوسه بمثول الفرسان امامه ، فرووا له قصتهم ووقوعهم في كمين قضى على اكثرهم .

وانزلهم منوسه في القصر واستسلم للتفكير من جديد ، غير ان اسماعيل دخل عليه مرة اخرى والهلع بادٍ على وجهه .

– سيدي ، سيدي .

– ما بك ؟

– ثار الاشراف في خيخون وجروا وراءهم النصارى المقيمين في هذه المدينة واخذوا يقتربون من ابواب الاسوار والحرس يهربون لا يلوون على شيء ، واصوات النصارى ترتفع : عاش بيلاي ، عاش بيلاي ! لا شك انه قائد هذا الهجوم .

– بيلاي ، بيلاي ؛ دائماً هذا الرجل . يا ليتني قتلته واسترحت من شره . الرأفة ، الرحمة ، الشفقة ، كلمات لا معنى لها .

وتسلح منوسه في الحال ، وجمع قواته ، وانطلق الى ساحة الوغى . وكان

النصارى يهاجمون القصر من الباب الرئيسي ، فدافع حراس منوسه دفاع الابطال واشتدّت وطأة القتال ، وسقط القتلى من الطرفين وامتدّ القتال الى جوانب القصر ، انهم يقاتلون في كل قاعة وفي كل غرفة وفي كل رواق .

النصارى القاطنون في المدينة على اختلاف طوائفهم تسلحوا بما وصلت اليه ايديهم ، وانطلقوا نحو القصر ، وتصدى لهم الفرسان العرب مانعينهم عن نجدة اخوانهم ، وبيلاي على رأس قواته ، واشتدّ القتال ، وتضايق العرب ، اعداؤهم كثر ، غير انهم ثبتوا ، لاسيما وقد علموا ان قوات الحر قادمة اليهم .

وسرتْ الاشاعة بين النصارى فهدّت من حيلهم مثلما يصاب الملاحون الذين بعد ان يصارعوا الامواج ، ويتغلبوا عليها ، ويكادون يقتربون من مرفأ النجاة ، الا تهبّ عاصفة هوجاء عليهم وتشتت جموعهم .

وبالفعل ، فما كادت القوات القوطية تسيطر على مدينة خيخون ، حتى وصلت قوات الحر المعدة لاحتلال « سبتمانيا » . قوات هائلة لا تحصى .

وادرك النصارى ان الخطر محدق بهم ، وشقّ عليهم ان يغادروا المدينة ، ولكن ادركوا ان تضحيتهم لا تجديهم نفعاً ، فغادروا المدينة منتشرين في الجبال الوعرة المسالك محتمين في اعاليها . وتوالت هجمات المسلمين عليهم ، وبرّح بهم الجوع والتعب ، وتضايقوا اشد الضيق ، وفي اكثرهم حتى لم يبقَ منهم سوى ثلاثين رجلاً وعشر نساء ، فتركوهم وشأنهم ، انهم ثلاثون حماراً وحشياً .

* * *

٨

تركنا منوسه ينعم بحب هرمسندا شقيقة بيلاي . فقد ضحت بكل شيء فلحقت بمنوسه واحبته واحبها ، ونعما بهذا الحب بعض الوقت ، فمنوسه هذا بعد أن اخمد الفتنة في شمالي اسبانيا وأرغم بيلاي شقيق زوجته هرمسندا الى اللجوء الى كهوف الجبال العالية ، صخرة بيلاي « كوفادونغا » بنفر قليل لا يزيدون على اربعين رجل وامرأة ، غادر خيخون بصحبة زوجته الاسبانية لتفقد الولايات الاخرى الواقعة تحت حكمه في جبال البرت الغربية وسبتمانيا فيما وراء البرت ، باسم حكومة الاندلس وذلك حوالي سنة ٧٢٥ .

وكان الدوق اودو امير اكتين ، منذ اجتاح المسلمون اراضيه ، رأى خطر الفتح الاسلامي يهدد ملكه فسعى الى مهادنة المسلمين والتقرب من حكومة الأندلس ويحاول في نفس الوقت ، أن يجمع حوله الحلفاء لمقارمتها اذا اقتضى الأمر .

فلما تولّى منوسه حكم الولايات الشمالية وهي تجاور اكتين من الشرق والجنوب : سعى الدوق الى التفاهم مع هذا الحاكم العربي البربري .

وكان منوسه زعيماً قوي المراس كثير الاطماع نافذ الهيبة في هاتيك الوهاد ، ولم يكن على اتفاق مع حكومة الاندلس ، ذلك انه كان من اقطاب البربر الذين عبروا الاندلس مع طارق بن زياد ، والبربر يحقدون على العرب لاستئثارهم بغنائم الفتح والرئاسة .

وعلى اي حال فقد تفاهم دوق اكتين ومنوسه والمرأة في هذه المرة ايضاً لعبت الدور الاول في هذا التفاهم .

في احدى الغارات التي شنّها منوسه على ممتلكات اودون ، غنم وسبا ونهب وقتل ، ووقعت عينه على احدى السبايا ، فلم يرَ اجمل منها وسألها عن حالها فلم تجب الا بدمعات بللت خديها ، فأشفق منوسه عليها واحترم دموعها ورثى

لحالها ، وبين الشفقة والحب حاجز اوهى من نسج العنكبوت ، فجاء بها الى قصره ، وافرد لها علية يأتي اليها من حين الى آخر لزيارتها وتفريج كربتهـا ومؤاساتها .

وشاع في القصر ان منوسه جاء بسبية بارعة الجمال ، ووصل الخبر الى اسماع هرمسندا ، فقامت وقعدت وتملكها يأس وحزن كادا يقضيان عليها . انها تحب منوسه ولا تريد ان تشاركها امرأة في هذا الحب ، تريده لها دون سواها ، وكتمت غمها ، فلا تفتح شفتاها الا لاطلاق الزفرات الحرار .

ووقف منوسه على شجوها ، فدخل اليها على عادته باسماً منفتح الصدر وحياها : السلام على الروعة والصباحة . وكادت تطفر الدمعة من عينيها ولم تنطق بكلمة ، دمعها يتكلم عنها .

وراعه بكاؤها ، فمسح دموعها : هل لي ان اعرف ما يشجيك ؟

— وما شأن هذه السبية الجديدة ؟ اني اغار منها . فهي ترشح بالبهاء واخشى ان تستولي على جنانك فتنبذني . فاقترب منها وضمها الى صدره ولامست شفتاه شعرها .

— اتحسبيني جننت لاستبدل الدر بالبرد ؟

— وما ادراك من هي ؟ قد تكون امرأة ذات حسب ونسب ، وهي ترتع في مغرورق البهاء ومستفيض الانوثة .

وتنهدت حفيظة منوسه ولم يسأل عن اسم الجارية وابيها فقد تكون ابنة احد الاشراف .

— ليس من امرأة مهما علت ومهما رتعت في البهاء التي تقوى على ان تحل في قلبي الذي هو وقف عليك كما تعلمين . اقدر تضحيتك وحبك لي .

واقترب منها اكثر فاكثر ، فارتمت عليه باكية :

— انت كل شيء لي في هذه الحياة . فاذا تخليت عني ما نفع الحياة بعدك ؟

وتضايقت انفاسها في صدرها فاخرجتها زفرات حرار ، وضمها الى صدره ، وضمته الى صدرها ، وفتشت شفتاه عن شفتيها ، وامتزجت الدمعة بالابتسامة ،

وجذبها اليه وضغط عليها وامتزج الجسدان وتحطم نهداها على صدره وشدها اليه لدرجة انها وجدت صعوبة في التنفس وتمتمت كلمات غريبة كأنها تهذي : انت رجلي ، انت خطيئتي ، انت لذتي ، رميتني بلحاظك واصبتني وقتلتني ولم ترد الي حياتي . انت صيرتني جميلة ، انا لك على ما تشاء ، اطلب وغال في الطلب ...

كانت هذه الكلمات مثل الزيت صبّ على الجمر اللهبان ، فعبثت يده بصدرها ببعض العنف ، واليد الاخرى تخفف عن جسمها الثياب وتتجول على انحاء جسمها وشفتاه توزّع القبل المحمومة على وجهها وصدرها وظهرها . وابتعد عنها قليلاً ، وشاء ان يشاهدها في عريها . جسمها البض الممتلئ باللحم الذي يغلف عظامها . نهداها المستديران النافران بوقاحة ، خصرها ، كفها ، فخذاها ، ساقاها ، كلها فوّتن نبهت حواسه الى الحب ، الى اللذة . وكان بينهما عراك : الواحد يبغي امتلاك الآخر ليكون هو هي ، وهي هو . روحان خافقتان في جسد : لا غالب ولا مغلوب او بالاحرى كل واحد غالب ومغلوب في الوقت ذاته : وطال العراك وقصر الكلام وكثر التنهد واطلاق الزفرات الغائصة باللذة التي ادركت اوجها وشهقات تصاعدت من الصدرين معاً ، وتراخت مفاصلهما وافترقا مستلقين على ظهريهما في هناءة بعيدة القرار .

ورمقته بعينين باسمتين يلمعان بالحب العميق وبادلها النظرات كانه يريد ان يقول لها : اتشكّين بعد ما جرى بيننا بحبي لك ؟ غير انه من جهة اخرى كانت الاسيرة الحسناء تشغل باله .

وتحرى عنها بذاته ، وكم كانت دهشته عظيمة لما علم انها ابنة الدوق اودو صاحب اكتين. وتأملها وراعه حسنها المصفّى . وسألها عن اسمها فأذا هو « لمباجيا » . فشدد الحراسة عليها واوصى بالعناية بها .

وما طال الامر ان اقبل رسول من الدوق اودو يطلب افتداء ابنته بالثمن الذي يرغبه منوسه .

ولم يشأ الحاكم العربي أن يقبل فدية ، فهو يريد الاحتفاظ بها . وعزّ على اودو ان تعامل ابنته كسبية ، فاقترح على منوسة الصلح او على الاقل المهادنة.

ووجد طلبه القبول لدى منوسه ، وادرك انصار منوسه ان اللعبة خطيرة لا ترضي صاحب الاندلس ولا ترضي صاحب الشام الخليفة هشام بن عبدالملك ، ونصحوه بالعدول عنها لانها وخيمة العواقب ، معناها ان الجهاد قد انتهى وان الزحف المقدس قد توقف على حدود الاكتين . واذا شاء والي الاندلس مخاصمته ، فهل يستطيع بمساعدة اودو صد الهجوم العربي ؟ وهل هو واثق من اخلاص الجيش له ؟

كلها اسئلة مشكوكة الاجابة عليها بما يرضي منوسه ومع ذلك خالفهم جميعاً وهادن اودو وطلب منه يد ابنته لومباجيا .

وتحققت ظنون المسكينة هرمسندا الراغبة في الاستئثار بفوائد حبيبها فجاءت ضربتها تقاسمها اياه او تستولي عليه بكامله . فراحت تأكل حسرتها وتعيش بأساها .

وعبثاً حاول منوسه اقناعها ان قلبه يخفق لها وحدها ، وزواجه بلمباجيا ليس الا زواج مصلحة قضته الظروف ، وهو سيرث تلك المملكة المتنائية الاطراف بعد وفاة اودو ويتغلب على كارلو ، ويبسط جناحه على الفاليا بكاملها .

ولم تقنع بحججه ، لومباجيا هي سبب البلاء . وتمثل لها المستقبل مظلماً وتخيلت منوسه قتيلاً ، وتساءلت عن مصيرها بعد مقتل حبيبها ، واسودت الدنيا في وجهها ، ورزحت بأشجانها وفقدت لذة العيش ولكنها ما زالت على هوى مقيم رغم الأمل الذبيح .

ولسوء حظها لم ترزق وَلداً من منوسه مع شوقها الشديد ولهفتها اللجوج على ولد يكون ثمرة حبهما ، والوَلد يقرّب منوسه منها ويعزيها في وحدتها عندما يكرن زوجها يخوض المعارك او يتلهى بالقرب من حب جديد جاءت به الغزوات المرفقة . فلت الامر من يدها ورضت بمصيرها على مضض واسلمت ذاتها لحكم القدر فهو ارحم وارفق بها من بني البشر .

ووصلت الى قرطبة اخبار لم يستَرح لسماعها عبد الرحمن الفافقي الوالي الجديد على الاندلس ، وحال تفسير هذا التقارب بين منوسه والدوق اودو : وقال لجلسائه : نحن ما جئنا لنهادن . جئنا للجهاد ، للفتح ؛ فماذا يبطن منوسه من هذا التحالف وهذه المصاهرة مع عدوّنا ، والحائل الاكبر دون الوصول الى قلب البر الاكبر لضربها ، وهي فريسة هنيئة ولقمة سائغة نلتهمها ولا نغص

بها . انه عدوّنا ولا نخشى نقمته . حاربناه وغلبناه متى شئنا . فما الداعي الى التحالف ؟

وقلّب الامر على جميع وجوهه ولم يستقم له رأي صائب ولا حجة ولا سبب مرجح . هل للمرأة صلة في هذا التفاهم ؟ ووصفوا له لومباجيا ، فإنها حسناء تستهوي الحلي فتشجيه . ولمّا كتب اليه يسأله عن صحة الانباء الواردة الى قرطبة عن تقربه وتحالفه مع الدوق اودو . وكان الجواب : انها ليست سوى هدنة قصيرة الامد .

وابى عبد الرحمن الفافقي اقرار هذه الهدنة التي ليس لها من مبرر ، الوقت ثمين وكل دقيقة تمرّ تقرّب الافرنج من الخلاص وتبعد المسلمين عن بهجة النصر والظفر . لا مهادنة مع العدو . القتال ، القتال دون هوادة حتى القضاء على كل مقاومة .

ووجّه اليه الكتاب ، فلم يلقَ اذناً صاغية ولا ارادة صادقة في العمل به بل ان لومباجيا سعت اكثر واكثر بما لها من دهاء ونفوذ وولوج الى القلب ، ان توفق بين زوجها وابيها ، فتحوّل تلك الهدنة الى تحالف حقيقي في الحرب والسلام ، في السراء والضراء ، ضارباً عرض الحائط توصيات عبد الرحمن والي الاندلس . انه حب جديد مثل الثمرة الجديدة او الثوب المدشن له رهجة حتى يسلوه صاحبه .

وحسب منوسه ان السعادة ، كل السعادة ، قد حاز عليها من اطرافها بالقرب من لومباجيا ابنة الدوق اودو .

وكشف القناع عن وجهه وبدت نواياه على حقيقتها ، فشقّ عصا الطاعة : واعلن الثورة ، وأوعز الى الدوق ليكون على اهبة القتال لان والي قرطبة قاصدهما بجيوشه ، وانه لا ينقض الهدنة والمصالحة بينهما ، وليس مستعداً لتجريد حسامه في وجه حليفه وعمه .

وصلت تلك الانباء الى عبد الرحمن الفافقي ، فجهّز جيشاً وارسله الى الشمال بقيادة ابن زيان لتأديب الزعيم الثائر .

وما طال ان دخل ابن زيان الى « مدينة الباب » او « باب شزرا » الحالية .

ولم يعثر عليه فيها ، فأمر بمطاردته في المغاور والادغال ، في الجبال والوهاد : اذ ان منوسه بقي وحده بعد ان تفرّق انصاره من حوله وكان يأمل ان يقاوم في « مدينة الباب » الواقعة على منحدر جبال البرت (البيرنه) ، وقد شاء منوسه ان يحمل معه اعز شيء على قلبه ، فأخذ لوميا جيا ولم يأخذ هرمسندا . الحب الجديد طغى على الحب القديم .

وسيقت معه وقد برّح بها النصب والكلل ، وتضايقا من حر الشمس ، وجلسا قرب ينبوع ماء انحدرت مياهه من الجبال العالية . وتصور النهاية ، ولم يعبأ بحياته ، الحياة اسيرة الحسناء . ويضطربان ويرتعدان من حفيف الشجر عندما يلاعبها النسيم ، فكأن فرسان بن زيان قد ادركهما . وخرير الشلالات يخيفهما وأدركا ان نهايتهما قريبة لان جنود بن زيان تطاردهما من صخرة الى صخرة . وقد كان على بيّنة من موقعهما الحرج ، وبحث عن ملجأ يخبئ فيه وحبيبته سالبة لبّه ، لما وجد نفسه تطوقه الجنود من كل صوب ولم يتركوا له وسيلة للنجاة ، حاول الدفاع عن نفسه ، فانتضى سيفه ، وما تنفع الشجاعة في موقف كتب فيه النصر للكثرة . وبالفعل تكاثروا عليه ، ولم يشأ الاستسلام ، كما لو كان واثقاً من انه قادر عليهم جميعاً بشجاعته وبأسه . ووصلت حرابهم الى جسمه فسقط يئن من جراحه ، وتناهشته سيوفهم حتى لم يبقَ فيه موضع لضربة سيف ، ثم اجتزوا رأسه عن جسده المدمى ، ووضعوا الرأس في عدل ، وساقوا لوميا جيا اسيرة سبية ذليلة ، ورضيت عن مصيرها مكرهة .

ولمّا اوصلوها والرأس الى عبد الرحمن ، طرب كل الطرب وقال : والله هذه مصيدة لم يحظَ بها صياد ، رأس الاسد المتمرد والصبية الشرود . انها غنيمة باردة لا يستحقها الا صاحب الشام . تلك نهاية منوسه المفجعة ونهاية حب هرمسندا التي انتقلت الى سيد آخر وانطوتْ آمالها طيّ الرداء .

القند اودو

ودرى القند اودو بمقتل حليفه وسبي ابنته ، واخبره الجواسيس ان قائد المسلمين يقصده بقوات جرارة . فدبّ الهلع في قلب اودو ، فكتب الى الاقاليم يستنجد بها ، فأقبل اليه الرجال من كل فج وصوب ، فخرج بهم لملاقاة العرب ، واصطدم بهم وفي كل مرة كان يصاب بالهزيمة على يد عبد الرحمن الغافقي القائد الذي لا يقهر ، فاجتاز نهر الفارونه ، واجتاحوا بلاد القند واحرقوا القرى ونهبوا وسلبوا واسروا وغنموا ، انه جيش كالعاصفة او الاعصار يدمّر حيث يهبّ . وما كانت كثرة الغنائم الا لتزيد في شراسة الجنود المسلمين وجشعهم .

وبعد ان اجتاز عبد الرحمن الغافقي نهر الدردونيه ، تغلّب على جيش القند اودو ، فهزم هزيمة فادحة ومزّق جيشه شر تمزيق ، والله وحده يعلم كم قتل في تلك الموقعة من النصارى . وطارد عبد الرحمن جيش الدوق حتى عاصمته بردال (بوردو) واستولى عليها بعد حصار قصير ، وفرّ الدوق في نفر من صحبه الى الشمال ، وسقطت الاكتين كلها في يد المسلمين .

ودبّ الرعب في صفوف الافرنج فالتجأوا الى ملكهم كارلو واطلعوه على الغارات العربية وما سببت لهم من خسائر في الارواح وفي الممتلكات بأربونه وتولوسه ، وبردال ، فعزاهم الملك على مصيبتهم وعرض عليهم مساعدته .

وارتدّ عبد الرحمن نحو الرون مرة اخرى ، واخترق الجيش العربي برجونيه . واستولى على ليون وبزنصن ، ؛ ووصلت سرياته حتى صانص التي تبعد عن باريس نحو مائة ميل فقط .

وارتدّ عبد الرحمن بعد ذلك غرباً الى ضفاف اللوار ليتم فتح هذه المنطقة ثم يقصد عاصمة الافرنج .

غير ان المستشرق كاردون يقدم شرحاً آخر لسير عبد الرحمن فيقول : انه زحف اولاً على آرل وحاصرها فبادر القند الى نجدتها ، فلقيه عبد الرحمن وهزمه

والجأه الى الفرار ، ثم عبر عبد الرحمن نهر الغارون واستولى على بوردو ، وكان القند قد جمع جيشاً جديداً وحاول رده ، فهزم مرة اخرى . ثم اخترق عبد الرحمن بيرجور وسانتونج وبواتو وهو يثخن في تلك الانحاء حتى انتهى الى تور.

افتتح عبد الرحمن نصف فرنسا الجنوبي كله من الشرق الى الغرب في بضعة اشهر فقط ، وامتدّ خط الظفر مدى الف ميل من جبل طارق الى ضفاف اللوار . وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل العرب الى حدود بولندا وربى اسكتلندا . فليس الرين بأمنع من النيل او الفرات ، ولعلّ اسطولاً عربياً كان يصل الى مصب التيمن دون معركة بحرية بل ربما كانت احكام القرآن تدرّس الآن في معاهد اكسفورد وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحي والرسالة = (جيبون) .

• • •

٩

الافرنج

كان الفرنج مجموعة من القبائل استقرت في اواخر القرن الخامس بين نهر الرين والبحر في اقليم الفلاندر ، وكان اميرهم في اواخر القرن الخامس ملك اسمه كلوفيس وحارب القوط الذين نزلوا في جنوبي فرنسا وقتل ملكهم « الاريكو» واستولى على الاراضي الواقعة بين نهر اللوار وجبال البرت ، ولم يبقَ في يد القوط سوى ولاية « سبتمانيا » ، واعتنق كارفيس (كلودويه) النصرانية ، وجعل عاصمته باريس ، نصّرته امرأته « غرطلد » .

وتقاسموا مملكته بعد موته حتى جاء كلوتير الثاني وبسط نفوذه على فرنسا بكاملها .

وسار ولده داغوبير في اثره، وكان هو آخر ملك في اسرة كلوفيس الميروفنجية.

امّا الذين جاءوا بعد داغوبير فكانوا رجالاً ضعفاء الخلال والعزائم ، فضعف العرش وانهارت السلطة المركزية ، وامتدت الى القصر سلطة جديدة هي سلطة محافظ القصر ، وهو منصب ابتدأ قليل الاهمية وانتهى بان اصبح من اهم مناصب الدولة السياسية والادارية تلتف حوله الزعماء والاكابر ، ويستلم زمام الحكم اذا كان الملك طفلاً .

والأسرة الكارلية كارولنجيي قد اختصت بهذا المنصب الخطير منذ عهد الملك داغوبير ، وكانت اقوى بطون الافرنج في اوستراسيا (مملكة الفرنج العربية).

وكان انحلال الأسرة الميروفنجية وانهيار سلطانها على هذا النحو سبباً في تفرّق الكلمة عند الفرنج . وتطلع الزعماء الى الاستقلال والرئاسة ، واضطرمت

الحرب الاهلية بين الفرنج في اوستراسيا ، والفرنج في نوستريا ، واسفر هذا الصراع عن استقلال ولاية « اكيتانيا » في غاليا الجنوبية ، وعلى رأسها الدوق اودو ، ثم الى منصب المحافظ في اواخر القرن السابع الى امير مقدام جرئ من الأسرة الكارلية هو ببين ، يحكم مملكة الفرنج في الشرق والغرب مدى سبعة وعشرين عاماً ، ثم توفي في ١٦ دسمبر كانون الاول سنة ٧١٤ .

وكانت امرأته « بلكترود » قد اعطته ولدين ، وسعت الى القاء كارلوس في السجن ، وكارلوس هذا كان ابناً غير شرعي لببين ، جاء من علاقات غرامية بين الملك في ايام صباه ، واحدى الجواري . غير ان ولدي بلكترود توفيا في حادث .

ووجد اودو دوق اكتين الفرصة ملائمة للاستيلاء على كامل مملكة كلودويه . وظهر له في بادئ الامر ان الوصول الى الغرض مكفول اذ ان الافرنج كانوا يتساءلون ، اليس الأجدر بنا ان نقبل بهذا الرجل ملكاً من ان نسلم زمان امورنا الى فتى لا خبرة له ولا دراية .

ولكن كارلو تمكن من الفرار من سجنه الذي القته فيه امرأة ابيه ، ورافقه بعض المخلصين له ، والتجأوا الى الغابات ، وما طال الامر ان شرع يشن حرب عصابات ضد اكيانيا محاولاً الانتقام من بلكترود واعدائه جميعاً فنازلهم في حرب مكشوفة وقهروه فيها ، فعمد الى مناوشتهم في معارك صغيرة تعمل فيها المفاجأة الدور الاول .

غير ان الامر لم يطل على هذا النحو ، فقد ظهر على مسرح الاحداث فريق ثالث قلب الاحداث رأساً على عقب ، العرب القادمون من اسبانيا القاصدون الى احتلال « اكيتانيا » .

ولما وجد كارلو ان العرب يكفونه شر الدوق اودو ، اغتنم الفرصة وشكل جيشاً قوياً وتوجه به نحو الشرق لصد هجمات القبائل الجرمانية المتوحشة التي اجتازت نهر الرين غازية « غالية » «Galia» .

وتولوسا عاصمة القوط القديمة ، كان العرب يحاصرونها ، وكانت على وشك السقوط في ايديهم لما وصل الى نجدتها دوق اكيتانيا ، فقضى على مقدمة العدو ولكن القوى الغازية انسحبت بانتظام جارّة وراءها غنائم لا تحصى .

وكانت خطط العرب ترمي الى التخلي عن الأماكن التي لا سبيل لهم الى احتلالها عاملين بقول المثل العربي :

« اذا لم تستطع امراً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع » .

ذهبوا يفتشون عن عورات العدو . وبينما كان كارله مشغولاً في منطقة الرين ، واودو يبسط سيادته على حوض اللوار ، كان العرب ينسلّون الى مناطق البحر المتوسط مسارين وادي نهر الرودانو ، وصعدوا في منطقة بورغونيا حتى وصلوا الى مدينة « اوتون » فدوّخوها ونهبوها في ٢١ آب سنة ٧٢٥ .

والغنائم الكثيرة شجعت المغامرين المشارقة والافارقة على القدوم الى الاندلس لتقوية صفوف الجنود العربية التي وجدت نفسها قادرة على شن الغارات بقوة متزايدة لتدعيم ممتلكاتها في بلاد « غاليا » . وبينما كان دوق اكتين يبذل جهده للصمود في وجه الزحف العربي ، كان كارله قد ثبت دعائم سلطته ، فبعد ان قهر القبائل الجرمانية ، عاد الى باريس حيث شكّل مملكة حقيقية .

وكان الحاكم العربي منوسه المستقر في « نبارة » بعد تخليه عن اشتوريس ، اظهر عن تسامح وتساهل كبيرين مع المسيحيين كما شهدناه في خيخون .

ولمّا رأى دوق اكتين شجاعة الفرسان العرب فتأثر له الحيلة باستخدامهم في محاربة خصمه كارله ولكي يضمن تعاونهم معه ، زوّج ابنته لمباجيا الجميلة بالقائد منوسه .

ولمّا علم هشام بن عبد الملك بما يجري في جنوب فرنسا ، وجّه عام ٧٣١ قائداً من خيرة قواده هو عبد الرحمن الغافقي بالاوامر المشددة لمعاقبة منوسه الذي يتعاقد مع النصارى دون استشارة الخليفة .

سارت الحملة التأديبية ، وما عتمت ان ادركت منوسه الذي لم يكن مستعداً لمقاتلة سيده ، وما طال ان تفرّق انصاره من حوله .

اما عبد الرحمن فاستفاد من فرصة وجوده في الاكتين لاجتياحها ، وكان التقدم سريعاً بنوع ان القوات العربية اطلت على مدينة « بوردو » واحتلتها عنوةً ، ونهبتها طيلة عدة ايام دون ان يتمكن « اودو » من نجدتها لانه وصل متأخراً

جداً ، وحاول تطويق الغزاة مجازاً نهر الغارونا الذي يمرّ فوق المدينة ولكنه خسر الجولة الاولى ، فولى الادبار قبل فوات الاوان ، وعبد الرحمن الغافقي واصل الزحف حتى « بواتيه » مستولياً على جميع الكنوز التي يصادفها في طريقه بما فيها كنوز كنيسة سان ايلاريو . ونهب ايضاً كنيسة القديس مرتين Martin في تور .

وكان اودو قد ذهب يستعين بخصمه كارله واقنعه ليهرع لنجدته امام الخطر العربي الذي يقترب بسرعة من ممتلكاته .

وهنا يجدر بنا ان نذكر ان « تاي تونغ » منذ اكثر من قرن ، اوجد الركاب للحصان ، وهذا الركاب يستفيد منه الخيال استفادة جمة ، فان خيالة منتظمة تزحف زحفاً منتظماً يخلق الهلع في نفوس جنود الاعداء ، كما خلق الهلع في نفوس الجنود الالمان لما ابصروا الدبابات الانكليزية في الحرب العالمية الاولى .

وهذا ما اصاب العرب مع الصينيين لاول وهلة ، ولما استعادوا رباطة جأشهم تحققوا من ان الخيل ترفس بالمهماز وهم الخيالة المعروفون ما لبثوا ان ادركوا اهمية المهماز فاستعملوه ، وهذا ما يسهل لهم ترويض الحصان .

وبعد سنوات قليلة من هذا الاكتشاف كان معاوية يزوّد جنوده بهـذا السلاح الجديد .

ولا بد من القول ان الانتصارات الساحقة التي أحرزها ، بالرغم من كونهم احسن الخيالة ، يعود الى هذا الركاب الجديد . فالانتصارات الكبيرة على فرسان القوط وتوغلهم السريع في الاكتين مدين بقسم كبير لهذا الركاب الذي اخترعوه .

والجنود الافرنج فهموا سريعاً ان استعمال الركاب هو الذي يعطي الفارس مهارة واستقراراً على ظهر الجواد ، فعمدوا الى استعماله قدوة بالفرسان العرب .

فهذه الركاب الذي سهّل الانتصارات العربية في كل مكان طيلة احدى وعشرين عاماً في الغرب ، تبناه الافرنج ايضاً .

وبالرغم من تقدم الصيف ، طمع عبد الرحمن الغافقي بالجنود الافرنج نظراً لانتصاراته السهلة والغنائم التي استولى عليها ، فجمع جنوده المشتتين في السرقة والنهب وانطلق بهم نحو تور ، واخذت تظهر طلائع الافرنج على بضعة كيلومترات من بواتيه .

فانقضّ عليهم الجيش العربي واصطدم به كارله بصفوف متراصة من الخيالة ، واستمرت المعركة على عنفها ثلاثة ايام بدون لياليها وغطت الجثث ضفتي النهر « سينون » وكثر الجرحى وانينهم . وفي اليوم الرابع لمّا دقّ كارله النفير داعيا جنوده الى استئناف القتال ، تبيّن ان العرب قد تركوا خيامهم بما فيها على حالها ليخدعوا العدو انهم ما زالوا فيها بأنيتهم واعتدتهم واسلحة كثيرة وقتلاهم وجرحاهم وبين القتلى عبد الرحمن الغافقي ، فلا شك ان موت القائد هو الذي حمل الجيش على الانسحاب .

فأمر كارله بمطاردة العرب المنسحبين ، ولكنه لم يتوصل الى تدميرهم . فانهم توصلوا الى قطع جبال « البرت » واستردّ الافرنج بوردو والاكتين .

ويقول كونده في وصف هذه المعركة :

في عام ٧٣٢/١١٤ جمع كارله جيشاً ضخم العدد وتوجه لملاقاة المسلمين الذين كانوا قد وصلوا الى مدينة تور وشاءوا احتلالها عنوةً . تبيّن عبد الرحمن ان العدو قادم اليه بخيله ورجله . وشاهد عبد الرحمن وقواده الاضطراب في صفوف الجيش والفوضى السائدة فيه من جراء استسلامهم للسلب والنهب ، وكانوا مثقلين بالغنائم والاسلاب ، ولكن لم يشأ عبد الرحمن اغاظتهم بارغامهم على التخلي عن قسم كبير من الغنائم يعيقهم في هذا الزحف المقدس وينصرفون الى سلاحهم وخيولهم ، وكان واثقاً من حسن طالعه ومن شجاعة جنوده ، تجاهل واحتقر كثرة العدو وملأ نفوس قواده بوعود خلابة بالنصر والظفر . وهذه الثقة بالظفر والفوضى السائدة في الجيش العربي والاخلال بالنظام في هذا الجيش الجبار كانت الضربة القاضية على العرب في تلك المعركة الحاسمة بين الشرق والغرب ، بين الاسلام والمسيحية ، ودخلوا تور على مرأى من جيش العدو ، واعملوا فيها السلب والنهب والتقتيل والتشنيع بلا شفقة ولا رحمة كأنهم ذئاب جائعة .

والتقى الجيشان على نهر « اوار » ، وكل جيش يخشى الآخر ، وعبد الرحمن الواثق من حسن طالعه ، بادر الى الهجوم بعنف لا مزيد عليه من قبل الخيالة العرب ، وظلّ القتال على اشده طيلة النهار ، جاء الليل وفرق بين المقاتلين .

وطلع الصباح وبدأ القتال كأنه بركان يضطرم ، وتوغلت الخيالة العربية

في صفوف الافرنج ، ولكن شاهد عبد الرحمن القسم الاكبر من خيالته يغادر ساحة القتال للدفاع عن الغنائم والاسلاب . وانقسام الجيش على هذا النحو يؤدي به الى الهزيمة ، فصار يتجوّل محاولاً تقويمها وتنظيم صفوفها فأصيب بسهم اودى بحياته فسقط قتيلاً فوق جواده ، وعمّ الذعر والاضطراب في صفوف الجيش الاسلامي ، واشتدت وطأة الفرنج على المسلمين ولكنهم صمدوا للعدو حتى جاء الليل وافترق الجيشان دون غالب ولا مغلوب .

وهنا ، اضطرم الجدل والنزاع بين قادة الجيش الاسلامي ، واختلف الرأي ، وهاجت الخواطر وسرى التوجس والفزع ، ورأى الزعماء ان كل امل بالنصر قد غاض فقرروا الانسحاب على الاثر . وفي الحال غادر المسلمون مراكزهم وارتدوا في جوف الليل وتحت جنح الظلام جنوباً صوب قواعدهم في سبتمانيا تاركين اثقالهم ومعظم اسلابهم غنماً للعدو .

وفي فجر الغد لاحظ كارله وحليفه اودو سكون المعسكرات العربية ، فتقدما منها بحذر واحجام ، فألفياها خاوية خالية الا من الجرحى الذين لم يستطيعوا مرافقة الجيش المنسحب فذُبحوا على الاثر . وخشي كارله الخديعة والكمين ، فاكتفى بانسحاب العدو ولم يجرؤ على مطاردته وآثر العودة بجيشه الى الشمال .

وواصل العرب انسحابهم حتى اربونه ، وجاء القند اودو لمحاصرة المدينة ، فقاومت ولم يستطع ان ينال منها مأربه ، ففك الحصار عنها وانسحب بقواته بعد ان اصيب بخسائر فادحة .

ثم اورد المؤرخ كاردون في كلامه عن موقعة بلاط الشهداء فقرة ذكر انه نقلها عن ابن خلكان جاء فيها :

« لمّا استولى العرب على قرقشونه ، خشي كارله ان يتوغلوا في الفتح ، فسار لقتالهم في الارض الكبيرة (فرنسا) في جيش ضخم ، وعلم العرب بقدومه وهم في لوذون (ليون) ، وان جيشه يفوقهم بكثرته ، فعولوا على الارتداد . وسار كارله حتى سهل انيسون دون ان يلقي احداً اذ احتجب العرب وراء الجبال وامتنعوا بها ، فطوّق هذه الجبال دون ان يدري العرب . ثم قاتلهم حتى هلك عدد عظيم منهم وفرّ الباقون الى اربونه ، فحاصر كارله اربونه مدة ولم يستطع فتحها فارتد الى اراضيه وانشأ قلعة وادي رذونة (الرون) ووضع فيها حامية قوية لتكون حد بينه وبين العرب .

والرواية الاسلامية تمرّ على هذه الموقعة إما بالصمت او الاشارة الموجزة ، وتعرف موقعة تور في التاريخ الاسلامي بواقعة البلاط او بلاط الشهداء لكثرة من استشهد فيها من اكابر المسلمين .

لقد تحدث عن هذه المعركة باسهاب الاستاذ الصديق محمد عبد الله عنان ، وقد يكون غالى في اهميتها فيقول من بعض ما يقول :

اجل كان اللقاء الحاسم بين الاسلام والنصرانية وبين الشرق والغرب على وشك الوقوع . وكان اجتياح الاسلام للعالم القديم سريعاً مدهشاً . فقد سحق العرب دولة الفرس الشامخة واستولوا على معظم اقطار الدولة الرومانية الشرقية من الشام الى اقاصي المغرب ، وقامت دولة الخلافة قوية راسخة الدعائم فيما بين السند شرقاً والمحيط غرباً . وكانت سياسة الفتح الاسلامي مذ توطدت دولة الاسلام ترمي الى غاية ابعد من امتلاك الاقطار وبسطة السلطان والملك . فقد كان الاسلام يواجه في الاقطار التي افتتحها في العالم القديم انظمة راسخة ، مدنية واجتماعية تقوم على اصول وثنية او نصرانية...

وقد حاول الاسلام في المشرق ان يعبر الى الغرب عن طريق قسطنطينية ، وبعثت الخلافة جيوشها واساطيلها الزاخرة الى عاصمة الدولة الشرقية مرتين ، الاولى في عهد معاوية بن ابي سفيان في سنة ٤٩ هـ / ٦٦٩ ، والثانية في عهد سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨ / ٧١٧ ، وكانت قوى الخلافة في كل مرة تبدي في محاصرة القسطنطينية غاية الاصرار والعزم والجلد ولكنها فشلت في المرتين وارتدت عن اسوار قسطنطينية منهوكة ، واخفق مشروع الخلافة في افتتاح الغرب من تلك الناحية ، ولكن جيوش الاسلام جازت الى الغرب عن طريق اسبانيا واشرفت من هضاب البرت (البرنيه) على باقي امم اوروبا النصرانية . ولولا تردد الخلافة وخلاف الزعماء لاستطاع موسى بن نصير ان ينفذ مشروعه في اختراق اوروبا من الغرب الى المشرق والوصول الى دار الخلافة بطريق القسطنطينية. ولكن الفكرة فاضت في مهدها لتوجس الخلافة وترددها كما يقول الاستاذ عنان، ولكن هذه النقطة تحتاج الى ايضاح ، وسنوضحها ونعطي فيها رأينا .

ويواصل عنان كلامه :

« غير ان الفتوح التي قام بها ولاة الاندلس بعد ذلك في جنوبي فرنسا كانت طوراً آخر من اطوار ذلك الصراع بين الاسلام والنصرانية . فقد كانت مملكة الفرنج اعظم ممالك الغرب والشمال يومئذ ، وكانت الدولة تقوم في الغرب بحماية النصرانية ، على نحو ما كانت الدولة الرومانية في الشرق ، بل كانت مهمتها في هذه الحماية اشق واصعب ، اذ بينما كان الاسلام يهدد النصرانية من الجنوب ، كانت القبائل الوثنية الجرمانية تهددها من الشمال والشرق ، وكانت الغزوات الاسلامية تقف عند سبتمانيه ومدنها . ولكنها امتدت بعدئذ الى اكتين وضفاف « الغارون » Garonne ثم امتدت الى شمالي الرون وولاية بورغونية ، وشملت نصف فرنسا الجنوبي كله » .

كانت المعركة في سهول فرنسا اذاً بين الاسلام والنصرانية ، بيد انها كانت من الجانب الآخر بين غزاة الدولة الرومانية والمتنافسين في اجتناء تراثها ، كانت بين العرب الذين اجتاحوا املاك الدولة الرومانية في المشرق والجنوب ، وبين الافرنج الذين حلوا في غالس (فرنسا) والمانيا . والفرنج هم شعبة من القبائل البربرية التي غزت روما وتقاسمت تراثها من « وندال وقوط وآلان وشوابيين » . فكان ذلك الصراع بين العرب والفرنج في سهول فرنسا اكثر من نزاع محلي على غزو مدينة او ولاية بعينها . كان هذا النزاع في الواقع ابعد ما يكون مدى واثراً ، اذ كان محوره تراث الدولة الرومانية العريض الشاسع الذي فاز العرب منه بأكبر غنم ، ثم ارادوا ان ينتزعوا ما بقي منه بأيدي منافسيهم ، غزاة الدولة الرومانية من الشمال .

وكان الخطر داهماً حقيقياً في تلك المرة لان المسلمين عبروا البيرينيه عندئذ في اكبر جيش حشد واتم اهبة اتخذت مذ الفتح . وكان على رأس الجيش الاسلامي قائد وافر الهمة والشجاعة والقدرة هو عبد الرحمن الغافقي ، وهو اعظم جندي عربي عبر البيرينيه . وكان قد ظهر ببراعته منذ موقعة تولوشة حيث استطاع انقاذ الجيش الاسلامي من المطاردة عقب هزيمته ومقتل قائده السمح ، والارتداد الى سبتمانيه . وتبالغ الرواية الفرنجية في تقدير الجيش العربي واهبته ، تقدره باربعمائة الف مقاتل ، هذا عدى عن جموع حاشدة اخرى صحبها لاستعمار الارض المفتوحة . وهو قول ظاهر المبالغة . وتقدره بعض الروايات العربية بسبعين الفاً او ثمانين الف مقاتل ، وهو اقرب الى الصواب .

وكان ما كان من امر المعركة غير الحاسمة التي استمرت يومين فقط ولاح

معركة بواتيه

النصر في جانب العرب ، انما لسوء طالعهم قتل قائدهم عبد الرحمن الغافقي ، فاغتنموا قدوم الليل وانسحبوا على غير انكسار لان معركة تدوم يومين فقط لا تقرر مصير جيش تزيد قواته على ثمانين الف مقاتل ، كانوا على وشك الظفر بعدوهم ، فالانتصار لم يكن عسكرياً ، كما ان الانهزام لم يكن عسكرياً ايضاً الانتصار معنوياً وسياسياً ، فقد اوقف الافرنج الزحف العربي وتقدمه نحو اوروبا ، ومن المسؤوا الاكبر عن هذا التوقف ؟ المسؤوا الاكبر في نظري هو الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي امر موسى بن نصير وطارق بن زياد بالحضور الى دمشق لمّا كانا يتوغلان في جنوبي فرنسا ، ولمّا كان الافرنج في حالة من الفوضى والانقسام لا تسمح لهم بتشكيل مقاومة او جيش قادرين على صد العرب او التوقف في وجههم فقط .

تلك الفكرة الخاطئة الفاسدة الهزيلة الخرقاء التي ولدت من دماغ الوليد بن عبد الملك هي وحدها اوقفت الزحف العربي المظفر ، فلا قوة الافرنج ولا الخلاف بين موسى بن نصير وطارق بن زياد او بين العرب والبربر او الغنائم التي استولى عليها الجيش الاسلامي احدثت اي تأثير على ضعف همة العرب او تخاذلهم في الفتح والتقدم عبر اوروبا . فكرة طائشة صادرة عن دماغ مريض افسده الطمع في الحصول على الغنائم وخيرات الارض ، وهو عن قريب يغمض عينيه عنها الى الابد . هذا هو السبب الحقيقي الوحيد الذي شل ايدي العرب او كبّلها لكي لا تجهز على عدوها .

خاض العرب معركة بواتيه خمس عشرة سنة بعد الموعد الذي كان عليهم ان يخوضوها . معركة بواتيه كانت من حظ موسى بن نصير وطارق بن زياد وليس من حظ عبد الرحمن الغافقي .

من الذي اعطى الافرنج مهلة خمس عشر عاماً ليستعدوا ويجمعوا صفوفهم ويلموا شملهم ؟ ليس موسى بن نصير ولا طارق بن زياد او ضعف الجيش العربي وبرود همته في القتال ، بل هو الوليد بن عبد الملك بفساد رأيه ومرض همته اللذين اعطيا الافرنج قوة لا يملكونها وسلاحاً لا يعرفون القتال به واتحاد لم يألفوه ضد العدو المشترك .

هل نلوم موسى بن نصير لانه اطاع اوامر خليفة الشام وترك للعدو فرصة الاستعداد والتنفس وجمع الشتات ؟ لا نعلم الى اين تصل مسؤولية موسى في

طاعته للخليفة الوليد . هل كان هذا المريض المتقلب على فراش النزاع قادراً على معاقبة القائد البطل المتنقل من نصر الى نصر .

انها من غباوة القدر ان يجعل انساناً مريضاً كليلاً مفلول القوة يتقلّب على فراش النزاع ينتصر على قائد بطل فتح الفتوحات ويسعى الى فتوحات اوسع ، هذا ما يسمونه المنطق المعكوس ولكنه حصل بالفعل فغيّر وجه التاريخ . ولو ان القدر كان منطقياً في تصرفاته لكنا اليوم نقرأ في التاريخ : « وشاءت فلول الافرنج المنهزمة امام الجيوش العربية الظافرة ان تشكل مقاومة متماسكة على ضفاف نهر اللوار ولكن موسى بن نصير بمعاونة طارق بن زياد شتت من جديد تلك الفلول ، وواصل زحفه الى باريس بغنائم واسلاب لا تأكلها النيران . وبعد احتلال باريس ارتدّ نحو الشرق بدون مقاومة تذكر حتى وصل الى نهر الرين فعبره وتابع سيره حتى الدانوب فعبره ايضاً وهو اشبه شيء باعصار يجرف كل من يعترض سبيله . وفي هذه الاثناء كان قد توفي الوليد بن عبد الملك وخلفه اخوه سليمان ، فأعدّ جيشاً واسطولاً يفوق عدة وعدداً اسطول معاوية ، وتدارك الاخطاء التي وقع فيها معاوية في محاولته فتح القسطنطينية . وهوجمت اسطنبول من الشرق ومن الغرب ، من البر ومن البحر ، واستمرّ القتال شهراً كاملاً انجلى عن نصر باهر للجيوش العربية المنقضة على القسطنطينية من كل فجّ وصوب ، وانتهى بسقوط هذه المدينة كل امل للقوات البيزنطية بالمقاومة » .

هذا ما كنا قرأناه اليوم في كتب التاريخ العربي لو ان القدر كان منطقياً في تصرفاته مع العرب الغالبين .

• • •

١٠

ما اجمله صباح ، بكل طيبة خاطر اتنزه عند الجدول .

وكانت المتكلمة غوديوسا مخاطبة وصيفتها كلوتيلد :

ـ غداً اخرج في نزهة قصيرة . اشعر ايتها العزيزة كلوتيلد بالسعادة والبهجة . حلمت الليلة حلماً جميلاً : انا راكبة الى جانب حبيبي بيلاي البطل ، وهاجمنا الاعداء بعنف ، وقهرهم بيلاي بشجاعة دفاعاً عني ، وولوا الأدبار ، وأدار عينيه نحوي ، وانا وضعت اكليلاً من الغار جللت به رأسه مكافأة له . انه زوجي . وفجأةً مرّت جنازة ، ثم استيقظت ، وهذا ما يسبب لي بعض القلق .

ـ على العكس ، الاحلام صورة حية عن الحقيقة ... وفاة غوديلا النجس .

ـ ما هذه الضجة ؟ الا تسمعينها يا كلوتيلد ؟

وفي تلك اللحظة ترجل فارس من صهوة جواده ، وصعد السلم الرئيسي ، وهرعت الوصيفة الامينة الى لقائه ، ورحبت به ، وتوجها معاً الى غرفة غوديوسا المستلقية على فراشها تغطيها غلالة بيضاء ، واسدلت شعرها على كتفيها ، انها صفراء الوجه نحيلته ، ولكن على جمال ، احاطت عينيها دائرة زرقاء تنم عن عذاب داخلي ، ومن حين الى آخر تبللهما دمعة ، انها شبيهة بزهرة ذابلة ، فواحة العطر ، صوتها فضي تخالطه رنة حزن وتألم .

ومن خلال النور اللطيف المتسرب الى الغرفة تبينت وجه الفارس القادم ، وهتفت من اعماق قلبها بصوت مفعم بالتأثر : بيلاي !

ـ انت هنا طريحة هذا الفراش وفي هذا ...

ـ هل تغيرت عليك الى هذا الحد ؟

– كلا كلا ، ان صورتك مطبوعة في قلبي بأحرف نارية .

– لقد شقينا كثيراً .

ولزم الاثنان الصمت معاً برهة طويلة ، غير ان لحاظيهما كانت تنطقان بما لا ينطق به لسانهما . وخرجت كلوتيلدا من الحجرة ، وخرقت غوديوسا الصمت الطويل كما لو انها قرأت في جفني بيلاي الف فكرة وفكرة تدور في تلافيف دماغه وتعذبه . واشارت اليه بالجلوس على حافة سريرها ، فأطاعها ، وانطلقت زفرة من صدرها .

– ما هذا ؟ هل تشعرين بألم ايتها الحبيبة ؟

– على الاطلاق . بقربك اشعر بالسعادة الكاملة تغمرني ، واستفيد من هذه الوحدة لأطرح عليك سؤالاً .

– لك ما شئت .

– هل تجيبني بالحقيقة ؟

– لم اكذب على الاطلاق .

– ادرك ذلك ايها العزيز بيلاي . غير ان اموراً كثيرة في الحياة الدنيا تعذبنا اذا حاولنا ان نسبر غورها ، اقرأ في قلبك ، وأفسّر تعبير نظراتك .

وأطلّت عليهما كلوتيلدا في تلك اللحظة مضطربة صفراء اللون .

– كارثة يا سيدتي .

– ماذا ؟ ابي ؟ هل اصابه حادث غريب ؟

وصمتت كلوتيلدا لا تقوى على الاداء .

– ما بك ؟ اجيبيني .

– لقد عثروا في الغابة على جثمان والدك بدون حياة ، سقط عن ظهر جواده .

– ربي والهي ! من كان يعتقد اننا في غمرة هذه الفرحة تدهمنا هذه التّرحة ؟ لقد جفت الدموع من مقالينا ، وعندما ابتدأ حظي المشؤوم يبتعد عني ، عاد

الشقاء ليفتح لي جروحي . كان حلمي في محله . تبعثر املي كما تبعثر اوراق الخريف عند هبوب الريح .

وتأملها بيلاي بألم لا يوصف لانها دخلت في الهذيان .

– حسبت في ظني ان الربيع قد تزين بأجمل ما عنده من الزينة ليحضر عرسي وظننت ان الجدول والساقية بخريرهما وجريهما الوئيد ، والهزار بتغريده الرخيم والانسام السكرى من عطور الليل ، وزهور الغور واخضرار قمم الاشجار ، كلها شجو يغني لطربي واسعادي ، ولكن يا للأسف لم اسمع سوى انشودة الموت تهدر في اذني .

ولمعت نظرات غوديوسا واصفر جبينها وخداها وذبلت شفتاها مثلما تذبل الزهرة الطرية .

وتأملها بيلاي بخوف وحنان اشبه بحنان الأم التي تشهد احتضار ابنها الحبيب وليس في اليد حيلة .

والصبية السادرة في ازمة حادة وتوتر عصبي شديد اطلقت صرخة حادة :

– الا ترونه ، الا ترون الجنازة والمأتم ، تحقق حلمي ، انها جنازة ابي المسكين . كم من الهموم قد كشّح عن صدري . ما هذه الاشباح المقتربة مني ، ابعدها عني ايها العزيز بيلاي . ان شبحاً يقترب مني صامتاً باسماً ابتسامة جهنمية ، يجرحني بمنجله الذي يحصد فيها نفوس البشر . حبيب قلبي انقذني من مخالبهم ، اموت واغادرك الى الابد . مات ابي والحياة تهرب من قلبي ؟ ابي ، ابي الحبيب ، اشعر بالاختناق .

وحاولت كلوتيلد اقناع بيلاي ان لا خوف على حياة غوديوسا لان هذا الهذيان اصابها اكثر من مرة ولم يطمئن بيلاي لحالتها ، فعاودته الافكار السود فهو كعصفور يطارده الصياد فينتقل من غصن الى غصن حتى يعثر على ملجأ له بين الصخر حيث لا تراه عين الصياد ولا يصل اليه سهمه .

– لا تنسني ، يا بيلاي ، اتذكر مقامنا في ربوع الاندلس الجنوبية ، خذ هذا الصليب ، يا بيلاي ، يقولون انه كان لأمي التي لم اتعرّف عليها . لم يغادر

صدري اربطه الى عنقك ، عربون حبّي الابدي لك . آه ربما بعد قليل لن تعود غوديوسا بالنسبة اليك سوى ذكرى أليمة .

وبيلاي الذي اعمته الكآبة الخرساء ، اخذ الصليب الصغير الذي قدمته له غوديوسا وأدناه من شفتيه وقبّله بعبادة وحرارة كما لو كان ذخيرة مقدسة وقال :

– ابعدي عنك هذه الافكار القاتمة العابثة بلبك .

– يؤسفني ايلامك ايها الحبيب بيلاي ، اصفح عني ، ان رأسي كالجمر وقلبي يتمزق . ربي والهي ، ارحمني واشفق عليّ .

ولزمت الصمت بعض الوقت كما لو ان آلامها قد فارقتها . وهكذا قضت تلك الليلة بين هذيان واستراحة وقتية وانحطاط عام وساءت حالتها عند طلوع الفجر .

بلاي وكلوتيلد ساهران في الغرفة المجاورة والحراس في الأروقة يأتون ويذهبون والقلعة مغمورة بالأسى والناس يتكلمون بصوت منخفض .

اصيبت غوديوسا بالأغماء وجحظت عيناها فتأملها بيلاي وعيناه تضطربان وهتف من اعماق قلبه :

– الموت ، القبر على مدخل السعادة ! ايها الإله القدير لا تسمح بمرور شبح الموت الغاشم يقصف هذا الغصن الرطيب ويشوّه هذا الجمال النضيد ، لا تسمح بتحطيم سعادتي وآمالي !

ورفع ناظريه نحو السماء بخشوع وضراعة وابتهال مصلياً لاجل هذه الصبية التاعسة .

وفي هذه الاثناء وصل الى قلعة «باميا» رسول يسأل بألحاح ولهفة عن بيلاي ، فخرج هذا من غرفة المريضة وتوجه الى القاعة العامة في القلعة .

ولم يدهش لقدوم الزائر الذي جاء ليبثّ في اذنه رغبة بعض الاشراف في تلك الانحاء بالوقوف صفاً واحداً للدفاع عن اشتورش ، لان انشغال العرب في جنوبي فرنسا جعلهم يهملون تلك المناطق النائية من بلاد الاندلس الرحيبة المترامية الاطراف .

ومرّت ساعات واخذت غوديوسا تستعيد ادراكها وهدوء اعصابها ، انه السكون بعد العاصفة الهوجاء .

نهضت من فراشها وعبثاً حاولت وصيفتها اقناعها بالبقاء في الفراش ، وقصدت ضريح والدها الذي دفن في ذلك الصباح وبللت التراب بدموعها ورفعت صوتها بالصلاة قائلة :

– « ليبلغ صراخي اليك يا رب ، حسب كلامك فهّمني ، لتدخل طلبتي الى حضرتك ، الى الرب في ضيقي صرخت فاستجب لي . ارفع عيني الى الجبال من حيث يأتي عوني ، معونتي من عند الرب صانع السموات والارض . لا يدع رجلك تذلّ ، الرب حافظك الرب ظلّ لك عن يدك اليمنى لا تضربك الشمس في النهار ولا القمر في الليل، الرب يحفظك من كل شر يحفظ نفسك، الرب يحفظ خروجك ودخولك من الآن الى الدهر » .

* * *

١١

بَـــلاَيْ

وتنفس بيلاي الصعداء بعد انسحاب العرب من ابيط (اوفيدو) وخيخون (جيجيو) لأن حالته كانت في الويل ونفسه ادركت التراقي .

وحذا حذو الافرنج في الاستفادة من تمزيق الاسلام بالاندلس، وانضمت اليه البقية الباقية من القوط الذين ارتدوا امام الفتح الاسلامي الى قاصية الشمال واعتصموا بجبال استورش وجليقية في الركن الشمالي الغربي من اسبانيا .

وكان من اعظم اخطاء الفاتحين انهم لم يعنوا بسحق تلك الفئة الضئيلة قبل استفحال امرها، لما اصبحت قوة لا يستهان بها تنافس العرب وتنازعه سيادة اسبانيا .

ولا بأس اذا استرسلنا قليلاً في وصف تلك المناطق النائية من شمال اسبانيا.

تقع مدينة ليون الإبرية عند ممر سلسلة جبال قنتبرية ، وهي اول بلد كبير احتله ملوك اشتورش عندما جمعوا قواتهم وتشجعوا وعبروا تلك الجبال منتهزين فرصة انسحاب الكثيرين من العرب وانشغالهم في محاربة الافرنج .

وصل موسى بن نصير وطارق بن زياد معاً الى قرب ليون حوالي سنة ٧١٤ في شهر يوليو (تموز) ، التاريخ العربي يذكر مدينة اخرى اسمها اشترقة ، ومن اشترقة اتجه موسى بن نصير وحده شمالاً بغرب فاخترق الممر المعروف اليوم بممر بخارس حتى وصل الى ابيط (اوفييدو الحالية) ، وهذا الممر هو اطول ممرات الجبال وأعسرها في اسبانيا على العبور .

واوفييدو تقع في سهل منفسح كله خضرة واشجار . هنا ابتدأت اسبانيا النصرانية تتكون . فان الفتح العربي بعد ان اخترق هذه الجبال واحتلّ ابيط اتجه الى اقصى المدن التي كانت قائمة هناك وهي مدينة خيخون وخلّف فيها حامية عسكرية اقام عليها قائداً وعاد ادراجه .

وقد كان في هذه الحامية كفاية لو ان حوادث التاريخ تجري على ما يقدر الناس ، فان هذه الناحية بدت للعرب آنذاك وكأنها الدنيا وخاصة بعد العناء الذي تحمّلوه في الوصول اليها .

والعرب يعلمون ان فلولاً من القوط واهل البلاد اعتصموا في تلك البطاح ولكن اولئك المعتصمين بدوا لهم اذا ذاك اقل من ان يثيروا خوفاً او يشكلوا خطراً على الدولة العربية في الاندلس ، فقد قدروهم بثلاثين رجلاً وعشر نساء ، دفعهم خوفهم من العرب الى الايغال في الهرب منهم فأبعدوا في التراجع ناحية الشرق حتى وصلوا الى جبال عالية كلها مضايق ومغاور وهي الجبال المعروفة باسم « قمم اوروبة » ، مجموعة من المرتفعات العالية تطل عليها ثلاث قمم عالية ترتفع ناهضة في الجو كأنها رؤوس ابراج .

في هذا الركن القصي اطمأنوا وتجمّعوا حول بلدة صغيرة تعرف باسم « كانغا دي اونيس » جعلها بيلاي او بلايو عاصمته ، بعد انسحاب العرب من تلك النواحي باحثين عن فتوحات اوسع ومغانم اوفر في البر الكبير في بلاد سبتمانيا . فاذا تقدم العرب انسحبوا الى الجبال فلم يدركهم احد .

تقع كانغاس على ٦٦ كيلومتراً شرقي ابيط ، وكانت الطريق المؤدية اليها في القرن الثامن الميلادي مغطى بغابات واحراش ولم يكن الناس يقطعونه الاّ على خوف ومشقة .

وابتداء من كنغاس تبدأ منطقة الجبال فتمر في طرق جبلية كثيرة المنعرجات حتى تنتهي الى نقطة التقاء جبال قمم اوروبة ، فتجد نفسك وكأنك داخل حصن ، فالجبال تحيط بك من كل جانب اسوار وقمم اوروبة الثلاث تطل عليك كأنها ابراج .

وفي حضن هذه الجبال تجد منفسحاً صغيراً كأنه ركن منعزل في روضة يانعة ، فالخضرة عن اليمين وعن الشمال والاشجار قائمة زاهره حيثما نظرت والماء ينحدر من الجبال في شلالات صغيرة وعشرات من الناس رجالاً ونساء يسيرون باتجاه الجبل بخشوع وهيبة شأن المقبل على حرم مقدس . وترفع بصرك الى حيث تتجه انظرهم فترى مغارة واسعة المدخل قد انشأوا فيها كنيسة معلقة على الجبل .

تلك هي كنيسة « كوفا دونغا » قدس من اقداس اسبانيا ، وهؤلاء الذين يسيرون نحوها حجاج اقبلوا من بعيد للزيارة او للوفاء بنذورهم . ومن ثمّ فان الكثيرين منهم يقبلون على كانغامس سائرين على اقدامهم حفاة ، فاذا وقعت ابصارهم على الكنيسة ركع بعضهم وسار على ركبتيه وفاء لنذره حتى يصل الى السلّم المؤدي الى الكنيسة .

وتصعد السلّم فاذا البيت في مدخل المغارة الواسع ، وقد اقاموا مصلى صغير في الفسحة الصغيرة التي يفضي اليها الصاعد . ثم تمر بفجوة في الصخر اقاموا فيها ضريحاً لبيلاي او بيلايو ، فاذا انتهيت من الممر وجدت فسحة اخرى اقاموا في ركنها مذبحاً للصلاة ومدوا المقاعد للمصلّين ، والى يسار المذبح بنوا دويرة صغيرة لسكنى الكاهن الموكل بهذين المصلين ، وفي اقصى اليمين فيما بقي من المغارة انشأوا ديراً صغيراً ، حفروا بالصخر لكي يستوفوه عمقاً . وخلف ذلك كله في قاع الغار جدول يجري ملؤه ثم ينحدر من شلال صغير الى بركة عند قاعدة الجبل .

هذه المغارة والموضع المحيط بها يسمّيان « كوفادونغا » وهو اسم مركب من « كوفا » و « كهف » و « انغا » ، وهو اسم الموضع في القديم .

وسرّ قداسة مغارة « اونغا » هذه اسطورة قديمة تقول ان الجماعة النصرانية التي اعتصمت في تلك الناحية جهدت في ان تحافظ على استقلالها ورد الحامية العربية عن دخول اراضيها . فلما اراد احد قواد هذه الحامية تسمية المراجع النصرانية « علقمة » اقتحام تلك الناحية ، تصدى له الجماعة النصرانية بيلاي فهزمه عند هذه المغارة .

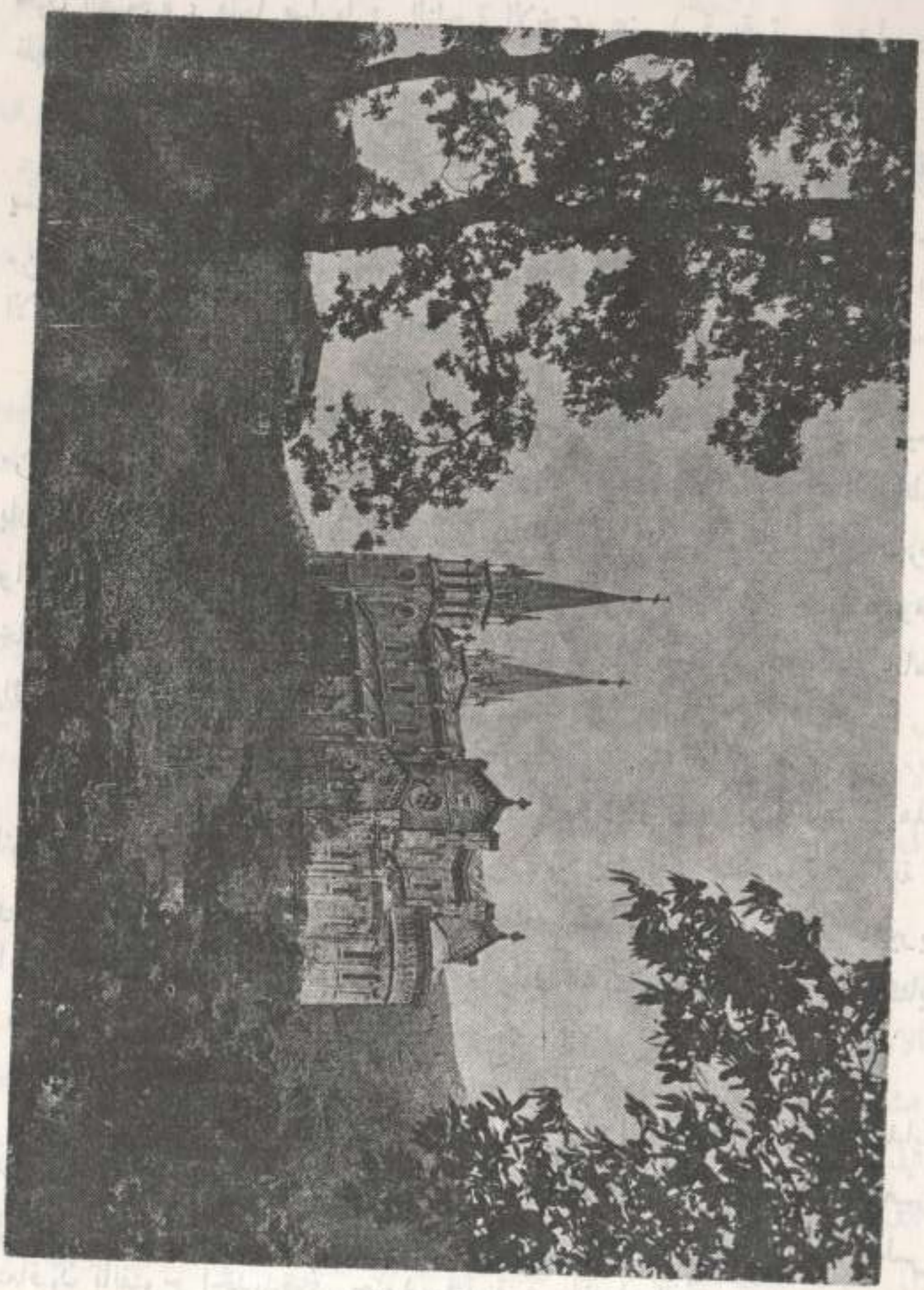

معبد كوفا دونغا

و لم يهزمه ، زعموا ، الا بمعجزة اذ ان السيدة العذراء ظهرت من الغار وجعلت ترد سهام العرب الى نحورهم فهلك معظمهم . واما الباقون فأسرعوا يدورون حول الصخرة ، فلما صاروا في الناحية الاخرى عنـد قرية تسمى « ليبيبنا » ظهرت العذراء مرة اخرى واهالت عليهم الصخر فهلكوا .

تلك هي معركة كوفادونغا التي تعتبر في كتب التاريخ الاسباني بدءاً لما يسمونه بحركة « الاسترداد » من العرب . وبعدما تقدم بيلاي فأخرج العرب من خيخون وردهم الى ما وراء الجبال وحصّن الناحية وجعلها امارة تحمل اسم الاقليم اي امارة اشتوريش التي اصبحت مملكة فيما بعد .

وانت اذا وقفت عند قاعدة الصخرة وتأملت المغارة وما حولها تبينت انه ليس من الضروري ان تكون قد وقعت هناك معركة اصلاً ، لان الجوّ هناك خليق بان يبعث الخيال ، ينشئ الاساطير . لا بد انه دار مناوشات كثيرة بين العرب واهل هذه الناحية ، لان الارض لا تسمح بتحركات جيوش كبيرة ، ومن خلال هذه المناوشات نشأت اسطورة « كوفا دونغا » وجرت بها السنة الناس واثبتها مؤرخو تلك المملكة على انها تاريخ .

وخلال عصور سيطرة الاسلام على بقية شبه الجزيرة الابرية تلفتت هذه النواحي الى بلاد النصرانية بينما كان بقية شبه الجزيرة، عدا امارة برشلونة ، يولي وجهه شطر الشرق العربي ويدخل في نطاقه الحضاري ، فكأن جبال قنطبرية فاصل حضاري وجغرافي في آن واحد، كما يقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه « رحلة الاندلس » .

وكما اشرنا سابقاً ، احتشدت فلول قليلة من ابناء الارض المفتوحة منذ البداية حول بيلاي اعتصم بها في تلك الوهاد واستمر يعمل على تنظيمها وتقويتها ويغيّر على الاراضي الاسلامية المجاورة كلما سنحت الفرص . وشغل ولاة الاندلس المتعاقبون بالفتوح الجديدة في جنوبي فرنسة ثم بإخماد الفتن .

وكان احتجابها وراء القفر والصخر يحميها من غزوات المسلمين .

وكما رأينا اتخذ بيلاي عاصمته « كانغا دي اونيس » . وكان يكفيه الدفاع

عن نفسه وصيانته من ايدي المسلمين ، وهذا في حد ذاته يعتبر نصراً كبيراً وجهوداً تفوق قواه .

وشظافة العيش ووعورة الاراضي وقلة الموارد وعدم الامن العسكري اعطت بلاط بيلاي ومظهراً ريفياً خشناً ، وهذا مما سبب له هزء المسلمين والنصارى معاً في بقية المناطق الاسبانية ، غير انه لم يجد وسيلة اخرى للبقاء في قيد الوجود .

وعرف بيلاي كيف يستثمر جمال ابنته هرمسندا التي رزقها من غوديوسا ، وسماها على اسم اخته هرمسندا التي لحقت بالقائد العربي منوسه كما رأينا .

ولم تكد هذه الطفلة تدرك الخامسة عشرة من سنها حتى شاء ابوها ان يخطبها لابن بدره دوق قنطبرية ، لانه تشكل وكر آخر للمقاومة في تلك الانحاء وكان هذا الدوق يرأس الثوار ، كل هذا جرى لما كان العرب منهمكين في امورهم بجنوب فرنسا ، وكل هزيمة كان الافرنج يلحقونها بالجيوش العربية يتهلل لها بيلاي وتشدد من عزائمه في المضي في فورته ، وعلى العكس كل انتصار عربي في سبتمانيا كان ينذره بالقضاء القريب لان العرب بعد تصفية امورهم مع الافرنج يكتسحون مناطق القنطبريك بقوات ترغب في الاستقرار ولا تريد العودة الى الجنوب والى المناطق الدافئة .

قلنا تشكلت مقاومة ترأسها دوق قنطبرية ، وكان لهذا الدوق ابن اسمه الفونسه ، شاء الدوق اتباع العادة الجارية في ذلك العصر ، نحن ما زلنا في الثلث الاول من القرن الثامن الميلادي ولا يفصلنا عن معركة وادي بكة سوى خمسة عشر او عشرون عاماً ، والعادة كانت ما زالت متأصلة في نفوس الاشراف الذين كتبت لهم النجاة من تلك المعركة الرهيبة التي لم ينجُ منها الا كل طويل العمر ، ومن بينهم دوق قنطبرية بدره ، فهذا عملاً بالعادة السارية ارسل ابنه الى بلاط الملك بيلاي ، اذا كان يحق لنا ان نسمي ذلك البلاط بلاطاً ، واذا دلَّ هذا على شيء انه يدل على ان هيبة بيلاي ومرتبته اعلى من مرتبة دوق قنطبرية ، والا لما كان هذا الدوق ارسل ابنه الى كونغا دي اونيس .

وما طال الامر ان جمعت المحبة بين الشابين الفونسه وهرمسندا ، او بالاحرى

جمعها الوالدان ، ذلك الطامع بمصرهة ملك، وان كان صغيراً ، فهو ملك، والآخر لانه يجد في دوق قنطبرية حليفاً يمكن الركون اليه في اوقات الشدة .

الزواج يوفّق بين القلوب ويزيل المزاحمة ...

وساعد الحظ لفونسه هذا لانه اصبح بعد ذلك ملكاً ، لمّا توفي فافيلا بن بيلاي وهو ما زال فتى فقد هاجمه دب ومزقه ارباً ، والدباب كانت كثيرة في مناطق استورش وما زالت حتى اليوم تهبط من الجبال وتعيث فساداً في المزارع والحقول .

فالفونسه هذا توصل الى العرش ولعب دوراً خطيراً جداً في تأسيس مملكة اشتورش ، وهذا ما سنتحدث عنه في كتاب آخر ان شاء الله .

• • •

١٢

الملك بَلايْ

في غرفة من قلعة باميا كانت فتاة جميلة اللباس جالسة في زاوية الغرفة ، حانية رأسها على كتفها .

تألمت المسكينة طويلاً ، وكانت سعيدة في تلك الساعة ، فالكاهن بارك زواجها ببيلاي ، واصبحت الملكة غوديوسا . ودخلت بعض السيدات الى المكان وحيينّ الملكة ، ثم اوصلتها الى القاعة الرئيسية في القلعة الغاصة بالفرسان المدججين بالسلاح .

وفي ذلك القصر أعدت وليمة العرس ، الملك بيلاي والملكة غوديوسا السعيدة

وغوديوسا كانت من اسعد خلق الله ، والافراح قائمة وقاعدة في قصر باميا ، واقبل فوج من العذارى لابسات البياض ، مكللات الرؤوس بأكاليل الزهر ، يرتلن الحان الظفر ، ويدعين بالسعادة للملكين ، ويرافقهنّ في الغناء موسيقيون ، ورعيل من الخدم والجند والرجال المسلحين يهللون في القاعات المجاورة حيث يقدم الطعام والشراب على الوافدين ، وبذلت غوديوسا الصدقة بسخاء في ذلك اليوم السعيد .

والملك بيلاي يتحدث مع بعض الاشراف القوط في شؤون الحرب ، ونقل عاصمته من كانغاس دي اونيس الى خيخون . ومن وقت الى آخر يتبادل الزوجان بعض النظرات الناضجة منها السعادة .

وامر الملك بيلاي السيدات والسادة بالجلوس على المائدة الرئيسية ، وخرج ليرى الاشتوريين الذين يحتلون عدداً من قاعات القصر . فهتفوا له عند دخوله عليهم ، وعاد الى القاعة حيث كانوا في انتظاره .

المائدة سخية ، وجوقة موسيقية تعزف بدون انقطاع ، وقرروا انهم في اليوم التالي يتوجهون الى خيخون التي اصبحت حدود مملكته .

وبينما كانوا في بهجتهم غارقين ، كانت اجراس دير القديسة اولاليا تقرع حزناً ، لقد توفيت الأخت فلورندا .

وفي العام التالي ، نصب في نبارة ملك آخر اسمه غرسيه خيمنس .

فمن اشتوريين الى قنطابريين الى قوط الى اسبان ورومان ، كلهم تجمعوا حول بيلاي . انها مملكة صغيرة من ابيط حتى كانغاس دي اونيس ، لا تكاد تزيد على اربعين ميلاً طول ، وعشرة اميال عرض . هناك ابتدأتْ تتكوّن اسبانيا من جديد .

ومرّت سنتان على اعلان بيلاي ملكاً ، وكان ذات يوم في قلعة باميا التي كان يفضلها للراحة نظراً لحسن موقعها واشرافها على الوديان الخضراء . وفي احدى الغرف امرأة بارعة الجمال تتأمل طفلاً راقداً في سريره وتبادل الزوجان الملكان النظرات الناعمة هانئين بهذا الطفل الجميل الذي اطلق عليه ابوه بيلاي اسم فافيلا اكراماً لاسم ابيه دوق قنطابريا .

وربح بيلاي بعض المعارك الصغيرة دون ان يخرج من مملكته الضيقة .

وتوفي اخيراً في كونغاس دي اونيس بعد ان ملك تسعة عشر عاماً ، في ١٧ ايلول من سنة سبعمائة وسبعة وثلاثين . ودفن مع زوجته الملكة غوديوسا في معبد سانتا اولاليا في قبر صغير كان قد امر ببنائه على مقربة من كانغاس .

ابتدأت اسبانيا في كوفا دونغا ، صخرة بيلاي ، تستعيد ارضها . وما دامت الشمس تشرق وتغيب سيردد اسم بيلاي الرومي في كل زمان ومكان .

• • •

الخاتمـــة

بقي علينا ان نعرف مصير ابطالنا الاسبان الذين جئنا على ذكرهم ولم يعرف ماذا حل بهم بعد ان ساعدوا العرب على دخول بلادهم ، نقصد بهم القند يوليان وعائلته .

فاورندا تركناها تموت راهبة في الدير ، غير ان اسطورة اخرى تحدثنا عن نهاية مختلفة ، وعندما تدخل الاسطورة في التاريخ تلبسه ثوباً فضفاضاً برّاقا لمّاعاً ، ولكن لا تلائمه ، تتلقى عامة الشعب الاحداث التاريخية فينمقه خيالها وينسج حولها احداثاً لا تمت الى الاحداث التاريخية بصلة ، وتعطيها نهايـــة تختلف عن النهاية التاريخية ، وتروج هذه الرواية الجديدة التي لا تنتسب الى التاريخ الا بصلة بعيد النسب . وتمر الاجيال وتتحول هذه الاساطير الى تاريخ بحيث انه يصعب التمييز بين الاسطورة والتاريخ . والغريب في الامر ان الاسطورة تولد اسطورة اخرى واسطورة اخرى الى ما لا نهاية له من الاساطير . ويأتي الباحث والمؤرخ ويشكل عليه التمييز بين صحة هذا الخبر او فساده .

يقول لنا التاريخ ان القند يوليان ساعد العرب ورافقهم في فتوحاتهم وارشدهم الى المسالك والطرقات التي سلكتها جيوشهم للاسراع في الفتح ، فانه بعد سنتين من دخولهم الى اسبانيا كانوا قد ادركوا جبال البرت (البيرنيه) . وحفظ له العرب الجميل . واولاد غيطشة لم تكن مساعدتهم للعرب مجانية فقد استعادوا جميع المزارع والضياع التي كان لذريق ملك القوط قد انتزعها من ابيهم الملك غيطشة وهي تعدّ بالألوف ، من اغنى المناطق الاسبانية ، والمطران اوباس شقيق غيطشة نال حظوة كبيرة عند الفاتحين الجدد .

ولكن التاريخ على هذا الشكل لا يرضي عامة الناس ، وهذه النتائج لا تتفق

وطبعه . الشعب الاسباني يعتبر هؤلاء من الخونة الذين سلّموا بلادهم لأعداء الدين ، وبالتالي لا يجب ان تكون نهايتهم سعيدة ، لان الخائن يعاقب ولا يكافأ ، فنسجوا حولهم اساطير تدينهم وتجرّهم الى اسوأ مصير .

فلورندا لم تعد تلك الفتاة الطاهرة البريئة التي جنى عليها الملك لذريق وسلب منها عفافها ، لا شيء من هذا في نظر الاسطورة ، فلورندا عاهرة ويشيرون اليها بالاصابع انها « قحبة » ، فهي التي اغرت الملك لذريق وقد تكون اغرت غيطشة قبله ايضاً . فلا يذكر النصارى اسمها الا مقروناً بالنعت « قحبة » ، فهي المسؤولة الوحيدة عن الويلات التي ألمت باسبانيا . وامام هذا الاحتقار الشامل من قبل ابناء جلدتها تجاهلها ، داخلها يأس وقنوط نهش روحها وأذبل جمالها ، فتحوّلت نظراتها الوديعة الحالمة الى نظرات جوفاء خارجة عن « عينين عالقتين في نفق كأنهما سراج كوخ نصف متقد » ؛ وذهبت نضارة خديها ، واصبحت تصرفاتها مع اهلها غريبة ، فعندما يحاول ابوها معانقتها تشيح عنه وتبتعد عنه وتتصور الويلات التي سببتها لاسبانيا .

وفي ذات يوم كانت تتنزه مع والدها في حديقة قصرهم بمالقة ، فدخلت الى برج واغلقت الباب وراءها وصعدت الى اعلى البرج ونادت والديها : ليعلم الناس في المستقبل ان هذه المدينة سيطلق عليها اسم « مالقة » تذكاراً لأشقى فتاة وضعت حداً لحياتها بالانتحار .

ثم القت بنفسها من اعلى البرج فسقطت على الحضيض محطمة العظام ، وتضيف الاسطورة ان اسم مدينة مالقة يعني ذلك المصير المفجع .

مع ان مالقة بالحقيقة هي مدينة اسسها الفنيقيون في جنوبي اسبانيا حوالي ٥٠٠ قبل المسيح واسمها فنيقي « ملك » اي محل المقددات والمخللات .

والقند يوليان الذي سايرته الظروف حتى ذلك الحين اصبح موضوع كراهية وبغض من ابناء بلاده ، فالنصارى يلعنونه لانه المسؤول عن دخول العرب الى بلادهم ، والمسلمون يحتقرونه ولا يثقون به لانه خائن ، فالرجال يبتعدون عنه لما يرونه مقبلاً اليها في اجتماعاتهم ، والنساء يتذمرنَ وتشمئز نفوسهنَّ منه لما يحاول ملامسة اطفالهنَّ فيبعدنهم عنه بغضب . انه يعيش وقد اخذه القرف من ذاته ، وعبثاً حاول اقناعهم واقناع نفسه انه انتقام عادل ، ولم يقتنعوا منه لانه ليس اهانة مهما عظمتْ تستحق خيانة الوطن .

وحاول تناسي هذا الاحتقار والازدراء فانصرف الى الملذات يغرقها غرقاً . فجمع حوله ما لذّ وطاب من مأكل ومشرب وموسيقى ورقص وغناء ومغنيات وجواري وقيان وخدم وحشم ، كله لم يجده نفعاً ، ضميره يوبخه ويقض عليه مضجعه .

وتضيف الاسطورة ان سليمان بن عبد الملك ، الخليفة السفاح ، بعد ان قضى على اولاد موسى بن نصير ارسل الى الاندلس قائـــداً عربياً اسمه الحر ليحل محل عبد العزيز بن موسى في ولاية اسبانيا . وكان هذا الامير الجديد شرساً قاسياً سفاك الدماء لا يثق بأحد ، استهلّ عهده بالشدة والعنف . لم ينظر بعين الرضى الى النصارى الذين حاربوا في صفوف العرب ، ولا سيما القند يوليان بنوع خاص . فاذا خان بلاده لا يصعب عليه ان يخون العرب .

وازدادت الشبهة لما قامت ثورة في الشمال من قبل النصارى المرابطين في جبال اشتوريش وكهوفها وكان الحـــر قد صحب معه حكيماً اسمه « يوذا » ، وكان داهية عصره جرّبته الايام وحنكته نكبات الدهر ، سافر في طول البلاد وعرضها وتأدب بعلم النجوم والفلك والتنجيم والتنبؤ فقرّبه الحـــر وأطلعه على اسراره وتخوّفاته وشكوكه ببعض الناس . فطلب الحكيم الاختلاء بذاته لاستشارة كتبه والاتصال بعالم ما وراء الطبيعة .

وذهب الى الحـــر وأطلعه على اكتشافاته وما بان لعينيه من مناجاته للنجوم والاستدلال بها على طبائع البشر وخفاياهم .

— ايها الامير ، كن على حذر لان الخيانة تدور حواليك ، فحياتك في خطر وانتبه للقند يوليان وعائلته .

كفى سيموتون جميعاً ، الآباء والابناء ، كلهم سيموتون .

وفي الحال وجّه دعوة الى القند يوليان ليحضر الى قرطبة ، ووجده الرسول في اشد ساعات الضيق اثر انتحار ابنته فلورندا التي لأجلها ضحى بمملكـــة بكاملها . واعتذر الكونت يوليان عن الحضور بذاته وارسل بعض اخصائه . فاعتبر الامير الحـــر هذا التصرف بمثابة جريمة كبيرة ولم يعد من شك في ان القند يوليان له ضلع في التمرد والعصيان ، وما اقصى عائلته عن الاندلس الا لكي ينصرف بكل قواه الى مقاومة السيطرة الاسلامية .

اول بادرة انتقام ظهرت من الامير الحـــر قتل سيسبوته وابياس ابني غيطشة بتهمة الخيانة ، كما تقول الاسطورة ، وهكذا كفّرا بدمائهما عن خيانتهما في معركة وادي بكة .

وانقضّ الحـــر في الحال على قرطاجنة حيث اعتصم الكونت يوليان ، غير ان هذا تمكن من الفرار مع خمسة عشر فارساً نظراً لسرعة وصول الامير الحـــر الى مدينة قرطاجنة ، والتجأ الى قلعة « ماركيلو » في جبال اراغون ، فغضب الحـــر غضباً شديداً ما عليه من مزيد وأبحر من قرطاجنة قاصداً سبتة في شمالي افريقية للاستيلاء عليها واعتقال امرأة القند فرندينا وولدها .

للقارئ الخيار في تصديق هذه الاسطورة ، كما تقول الاسطورة ، او عدم تصديقها فانها قديمة العهد وفي ذلك العهد كانت الخرافات مسيطرة على العقول .

كانت فرندينا جالسة في غرفتها بقلعة سبتة المطلة على البحر ، وهي مستسلمة الى هواجس وافكار سوداء تراود دماغها بعد المصائب التي حلّت بغائلتها ، لما ابصرت اخاها المطران اوباس على مدخل القلعة فهرعت اليه لمعانقته ولكنه منعها ، ولاحظت عليه اصفراره والنار تقدح من عينيه .

وقال لها : « لا تلمسيني ايتها الشقيقة ، فان النـــار الثابة في ضلوعي تحرقك ، حافظي على ولدك أشد المحافظة لأنهم يطلبون دمه » .

وتوارى عنها مثلما حضر بخفة البرق ، وباب الغرفة ظل مقفلاً كما كان عند وصوله .

وفي اليوم التالي جاء نبأ يقول ان المطران اوباس قد أسره النصارى في معركة دارت رحاها في جبال اشتورش بين العرب والمسيحيين ، ويقول النبأ ذاته ان الحر قد قتل عدداً لا يستهان به من انصار القند يوليان الذي اضطر الى الهرب مرة ثانية من قلعة اراغون للنجاة بنفسه ، وقال النبأ ايضاً ان الحر قاصد سبتة بخيله ورجاله .

وكانت فرندونا جريئة بطلة فخشيت خيانة خمسين جندياً عربياً يعيشون في قلعتها فأمرت بقتلهم غيلة .

ولبّى الحرس أوامرها . وبينما العرب جالسون في فنان القلعة لا تخالجهم ريبة فيما يتهيأ لهم من الغدر الا شعروا ان جلاديهم قد انقضوا عليهم وذبحوهم ولم ينجُ منهم سوى خمسة عشر رجلاً التجأوا الى برج وشاهدوا من بعيد قدوم اسطول الحر ، وقرروا المقاومة حتى وصول إخوانهم لإنقاذهم .

وهاجم رجال فراندوفا الحصن وردوا عنه بخسائر كبيرة ، فحفروا تحت الحصن وأوقدوا فيه النار فشبت بقوة وهوى البرج بمن فيه فتحطم بعضهم على الصخور والباقون ادركوا وذُبحوا عن آخرهم .

وصل اسطول الامير الحر الى سبتة قرب المساء ، وشاء النزول فسدوا في وجهه الابواب فحاصر المدينة واستشار العالم الفلكي فقال له : نجمك يسيطر على نجم الطفل « العربوط » طيلة اسبوع وبعدها يصبح ابن القند يوليان آمناً وقادراً على القضاء عليك .

فأمر الامير الحر بمهاجمة المدينة من كل جانب ثم انقض عليها فالتجأت فرندينا مع رجالها الى القلعة وشاءت الدفاع عنها ولكن بطولتها لم تجدِ ها نفعاً ، فهاجمها العرب من كل جانب ، وادركت ان كل مقاومة هي باطلة ، همها إخفاء ابنها وقالت في سرّها لا يفتشون عنه بين الموتى . واخذته ا المعبد الصغير المظلم .

— لا تخش ، يا ولدي ، البقاء في هذا المعبد .

— لا يا أماه ، فالظلمة تبعث إلى الطمأنينة والصمت والاحلام .

ووضعته في مدفن فلورندا شقيقته وقالت له : هل تخشى الموتى يا ولدي الحبيب وقرة عيني .

— كلا ، الموتى لا يؤذوننا وكيف تريدين أن أخاف من شقيقتي .

ففتحت القبر وقالت لابنها : أناس متوحشون قاصدون هذا المكان لقتلك ، ابق هنا برفقة شقيقتك ولا تحدث ضجة اذا كان لحياتك قيمة في نظرك .

وعمل الولد بنصيحة أمه ومكث في القبر طوال النهار . وفي هذه المدة كانت

جنود الحر قد تمكنت من القلعة ودخلتها واعملت السيف في أهلها ، واقتيدت امرأة يوليان للمثول امام الحر ، فوصلت شامخة الانف ، عالية الجبين كأنها ملكة تتقبّل تحية رعاياها . ولما سألها الامير عن ابنها ارتبكت في الجواب وقالت : ابني بين الاموات .

ـ أنا لا أقبل الدعابة ، قولي لي اين اخفيتيه .

واختار الامير في أمره تجاه هذه المرأة المصرة على كتم موضع ولدها ، فأخرجه عالم الفلك من حيرته لأنه لاحظ بعض الاضطراب في كلمات المرأة فقال له : اترك القضية على عاتقي وانا أريحك منها ، انا آتيك بالولد .

وامر « يوذا » الجنود بالتفتيش الدقيق في اربعة جوانب القصر وامر باحضار فرنديا لانها كانت داهية عصرها ، لكي تشاهد عملية التفتيش . ولما دخلوا المعبد الصغير اصفر وجهها وارتجفت شفتاها ، فقال يوذا في نفسه : هنا مكان الولد .

غير ان التنقيب في انحاء المعبد لم يأتِ بثمرة ، وشاء الجنود الانسحاب ولاحت سيماء البشر والظفر في عيني فرانديا ، فتذكر يوذا قولها لما ادعت ان ابنها بين الاموات راقد ، فأمر الجنود بتفتيش القبور .

فأبصروا قبر فلورندا نصف مفتوح وعاينوا الولد نائماً تحيط به هالة من الطهر والوداعة وهو مستسلم لرقاد عميق ، فأخذه أحد الجنود بذراعيه وقدّمه للأمير .

وما كان من فرانديا الا ان ارتمت على اقدام الحر وتناست شموخها وكبرياءها وانفتها وكرامتها :

ـ الرحمة والشفقة ايها الامير ، ارفق بتضرعات وتوسلات أمّ ، باركتك السماء واسبغت عليك نعمها على قدر شفقتك ورأفتك بولدي .

ـ خذوا هذه المرأة من أمامي واسهروا عليها .

فجرّها الجنود غير عابئين بمقاومتها وصراخها وألقوها في مطمورة في القلعة . ثم حملوا الولد ! الحر فلم يتحرك قلبه بذرة من الشفقة على وداعته وطهارته

لأن قصده الوحيد إبادة عائلة يوليان ، فسلّم الولد المربوط ا يوذا . فقاده بيده في سلم لولبي في احد الابراج حتى وصلا الى اعلى مكان في البرج وقال للولد :

– لا تتماسك بي يا ولدي فلا خوف عليك .

فأجاب الطفل : انا لا أخشى العلو يا ابي .

وهبّت نسمات رطبة على وجهه وجبينه ، وامواج البحر تتكسر من بعيد على الصخور الناتئة .

وقال يوذا : اتعرف تلك الاراضي النائية وراء البحر الازرق .

– انها اسبانيا مسقط رأس اجدادي .

– مدّ يدك الى الامام وباركها .

ولما شاء الطفل ان يمد يده ليبارك تلك الاراضي البعيدة عنه ، جمع الشيخ كل قواه ودفعه الى الفراغ فسقط الولد المسكين من ذلك العلو الشاهق وتحطمت عظامه الطرية على الصخور الصلداء .

وعاد يوذا الى الحر فسأله : هل الطفل بأمان ؟ فأجاب يوذا : تعال وابصر .

فصعد الحر الى البرج وتطلع الى اسفل فشاهد كومة واحدة لا شكل لها ولا صورة ، فأمر بإلقائها بالبحر طعاماً للاسماك .

وفي الصباح التالي سيقت فراندينا من مطمورتها واقتيدت الى الساحة العامة ، واطلعت على مقتل ولدها ، وهي ستلحق به عن قريب ، فلم تذرف دمعة واحدة ولم تتوسل . شعرها منبوش وعيناها غارقتان في وقبيهما لكثرة السهد وخداها مصفران باردان مثل بلاط القبور ، ولم تفارقها مسحة من الجمال ، وهيبتها تفرض احترامها على رعاع القوم .

وجيء بجماعة كبيرة من الاسرى المسيحيين الى الساحة العامة فصرخ فيهم الحر : هذه امرأة القند يوليان ، عائلتها جرّت الويلات عليكم وعلى بلادكم .

ثم أمرهم ان يرجموها حتى الموت ولكن الاسرى النصارى تراجعوا قائلين : الله ينتقم منها لا نحن . لا نريد ان يقع دمها علينا وعلى ابنائنا .

فثار غضب الامير واقسم الايمان المحرجة انه يعاقب بالرجم كل أسير لا ينفذ أوامره .

وهكذا نُفِّذت أوامره وماتت فراندينا مرجومة على يد ابناء أمتها .

وأمر باحراق قلعة سبتة وابحر الى اسبانيا ليلاً مستضيئاً بألسنة النار المتصاعدة من احتراق الابراج .

ولم يطل ان وافت القند يوليان منيته ، اما سبب موته فما زال مجهولاً ، فالبعض يؤكد ان الحر تتبعه وطارده في الجبال حتى ادركه وامر بقطع رأسه . وغيرهم يقول ان العرب سجنوه في مطبق ومات بالعذاب الشديد .

وغيرهم يؤكد انه قُتل تحت قلعة ماركويلو القريبة من « وشقة » ، فقد سقط عليه البرج وقتله . والجميع متفقون على ان ايامه الاخيرة كانت بائسة الى اقصى حد ؛ ولم يمت حتف انفه ، لعنة السماء رافقته الى الابد ، ولم يسكن احد بعده في القلعة التي حلّ بها بسبب الضجيج والاشباح والرؤيا التي كانت تتراءى ليلاً وليست سوى تلك النفوس المعذبة ، نفوس النصارى الجاحدين الذين وقفوا الى جانب الخائن القند يوليان .

ظل اسم يوليان سبّة بأفواه الناس ومصيره عبرة للخائنين .

تلك هي الاسطورة التي تناقلها الشعب مكتوبة جيلاً بعد جيل وهي بالحقيقة بعيدة عن الواقع ، قريبة من التصديق لأن الخائن يستحق العقاب على النحو الذي ذكر في الاسطورة .

هل نعتبر ابناء غيطشة خونة لأنهم انضموا الى صفوف العرب رغبة منهم في استعادة امواهم وممتلكاتهم وضياعهم ومزارعهم البالغة عدة آلاف مزرعة استولى عليها لذريق بعد ان نكّل بأبيهم .

احتاج اليهم للقتال فدعاهم لخوض المعركة ، لسفك دمائهم وليس للتعويض لهم عن إساءته اليهم ، اما العرب فكانوا اسخياء معهم الى اقصى حدود

السخاء . قرّبوهم وردّوا لهم ضياعهم البالغة ثلاثة آلاف ضيعة وعاشوا اسياد في حمى الدولة العربية .

ليسوا هم الذين تنكّروا اوطنهم بل ان وطنهم تنكّر لهم في شخص الملك الذريق .

وقد يكون السخط عليهم متأتّياً من ويلات الحروب الطويلة التي خاضتها اسبانيا طيلة سبعمائة وثمانين عاماً حتى تمكنت من استرداد اراضيها التي استولى عليها العرب في عامين فقط .

الفهـــرس

	صفحة
تمهيد	٥
القسم الأول	
الوثبة الجامحة	١٥
الأب والإبنة	٢٩
المؤامرة	٣٤
موسى ويوليان	٤٧
فلوراندا وللذريق	٥١
معركة وادي بكة	٨١
اولاد غيطشة	٨٦
افتتاح قرطبة	٨٩
نهاية موسى بن نصير	١٠٧
القسم الثاني	
الانتفاضة	١٢١
عبد العزيز بن موسى أمير الأندلس	١٤٣
القند اودو	١٨٠
الافرنج	١٨٢
بَلايْ	١٩٨
الملك بَلايْ	٢٠٥
الخاتمـــة	٢٠٧
المصادر	
المصادر العربية	٢١٧
المصادر الأجنبية	٢١٧

المصادر العربية

- « كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب » ، للمقري
- دولة الاسلام في الاندلس » ، لمحمد عبدالله عنان
- « رحلة الاندلس » ، للدكتور حسين مؤنس
- « باب استفتاح الاندلس » ، لابن حبيب · صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٥٧
- « البيان المغرب في اخبار ملوك الاندلس والمغرب » ، لابن عذارى المراكشي
- « كتاب اعمال الاعلام » ، لسان الدين بن الخطيب
- « مروج الذهب » ، للمسعودي
- « كتاب بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الاندلس ، للضبي .

المصادر الأجنبية

- Florinda o la Cava Don Juan de Dios de Mora.
- Historias de amor de la Historia de España : Allonso Tejada.
- Leyendas de la conquista de Españo : Washinton Irving.
- Florestas de leyenda : Ramon Menendez Pidal.
- La Inquisición española : Hanry Kamen.
- Españoles ante la historia : Sanchez - Albornoz.
- Historia de la dominación de loss Arabes : Conde.
- De Mahoma a Godefredo de Bouillon : Alexandre de Saint - Phall.

للمؤلف :

سلسلة ابطال من الاندلس

ظهر منها حتى الآن

- بَلاَيْ الرومي
  او العرب في اسبانيا وجنوبي فرنسة
- الناصر لدين الله اول خليفة في الأندلس
- صبح البشكنسية
- « السيِّد » عنترة الإسبان
  او الأندلس على عهد ملوك الطوائف وقدوم المرابطين اليها .

مطابع الكريم الحديثة
ش.م.م: ٩٣٠٢٧٧
جونيه - لبنان